ربع قرن في القيود

الجزء
الثالث

الحصاد



صبحي الجيار

دار النهضة العربية
٣٢ عبد الخالق ثروت - القاهرة

ربع قرن في القيود

الجزء الثالث

الحصاد

بقلم

صبحي الجبار

الناشر

دار النهضة العربية

٣٢ شارع عبد الخالق ثروت

مقدمة

أخى القارىء :

استعرضت معك فى الجزء الأول من هذا الكتاب ، تفاصيل « المأساة » القدرية التى فُرضت على حياتى ، وسدت فى وجهى أبواب الأمل .

وفى الجزء الثانى « الكفاح » اصطحبتك معى فى رحلة الصراع والعمل ، والمتعة والأمل . ولمست بنفسك كيف كنت أضاعف الجهود لأتغلب على القيود ، وأتقدم خطوة فى طريق النجاح ، وأعوض ما فاتنى فى ركب الأصحاء .

وفى هذا الجزء « الحصاد » ستحصد معى ثمار تلك الجهود المضنية التى قاسيتها فى كفاحى ، وكابدتها أنت - يا أخى القارىء - فى تتبعها على الورق . وكل ما أطمع فيه بعد أن تفرغ من هذا الكتاب أن تردد معى عن اقتناع ... إن الحياة حلوة رغم كل شىء .

الطبعة الأولى ١٩٦٨

صبحى الجيار

العلاج فى لندن

كان لابد للقرار الثورى بعلاجى فى الخارج ، من أن تتبعه إجراءات ثورية لتنفيذه . بدأت بإرسال لجنة من القومسيون الطبي إلى بيتى ، وكانت مكونة من ثلاثة أطباء من أخصائيي العظام، وبعد أن فحصوا حالتى ، رأيتهم يهزون رؤوسهم ويتهامسون بصوت لم أسمعه ، لكنى فهمت من ملامحهم أنهم غير متفائلين من السفر لتأخر الحالة وسيطرة المرض على معظم المفاصل . وبدأوا يناقشوننى فى العلاج وماذا أنتظر منه . قلت :

ـ لو تمكنت بعد العلاج من أن أخدم نفسى بنفسى، وأتنقل داخل البيت وحدى.. فهذا يكفينى ، ولو تمكنت من الخروج إلى الشارع معتمداً على عصا أو عكاز . . فسوف أعتبرها نعمة كبيرة جداً .. لكنى لا أطمع قط فى أن أعود كإنسان عادى ، فأنا أعرف أن المفاصل الصناعية لاتعوض الحركة الطبيعية ، لأن أربطة المفاصل ستتمزق ولا يمكن إعادتها أو تعويضها .

فقال الدكتور عز الدين موسى ، وكان أكثرهم صراحة :

— ولماذا لم تُجر هذه العمليات فى مصر ؟

قلت :

— لأنى لم أجد طبيباً مصرياً واحداً يضمن لى الحد الأدنى الذى أرتضيه مقابل المجازفة بإجراء العمليات .

قال :

— وهل ضمن لك الأطباء الأجانب هذه النتيجة ؟

— كلا .. ولكن معلوماتى التى استقيتها من الكتب والمجلات الطبية الحديثة ومن أساتذة الطب فى مصر، ومن الدكتور الأمريكى الذى شخص حالتى منذ سنوات .. عرفت من هؤلاء جميعاً أن عمليات المفاصل الصناعية تُجرى بنجاح كبير فى الخارج .

فأجاب الدكتور عز الدين بصراحة :

— نحن نسافر إلى الخارج باستمرار، ونرى أحدث ماوصل إليه الطب فى هذا المرض . وأعتقد أنك لن تستفيد كثيراً من سفرك . ولكن مادامت الفرصة قد أتيحت لك .. فلا بأس من التجربة .

صدمتنى صراحته حينذاك ، لكنها لم تؤثر فى أملى الجامح ، وحماسى المندفع . كنت يومها مستعداً لأية مغامرة أو تضحية ، بعد أن سنحت لى فرصة العمر التى انتظرتها طويلا . ولو علمت الغيب ساعتها لاحترمت صراحة الدكتور عز الدين ، ووفرت

على نفسى العذاب فى أسوأ فترة مرت عبر حياتى .

كانت سماحة لجنة القومسيون فوق ماتوقعت ، فقد سألنى أحدهم :

ـــ هل لديك فكرة عن طبيب معين أو بلد معين تعالج فيه ؟

قلت على الفور :

ـــ نعم ، فمن دراستى للموضوع من شتى جوانبه ، عرفت أن العلاج قد يكون فى روسيا أو ألمانيا أو انجلترا أو أمريكا . أما روسيا فقد استبعدتها بعد مراسلتى مع الدكتورة راتشنسكايا . كذلك استبعدت ألمانيا لأنى لا أعرف اللغة الألمانية. بقيت انجلترا وأمريكا ، وأستبعد الأخيرة لبعد المسافة . وكذلك أحبذ انجلترا لأنى سمعت أن التمريض فيها ممتاز .

قال أحدهم :

ـــ كلام سليم جداً .. وهل ترشح طبيباً بالذات ؟

قلت :

ـــ إما واطسن جونس .. أو أوزموند كلارك .

فتداولوا فيما بينهم ، وقال أحدهم :

ـــ نحن نفضل أوزموند كلارك ، لأن واطسن جونس شاخ الآن ولم يعد فى نفس مستواه السابق .

ثم وعدونى بالاتصال فوراً بأوزموند كلارك لترتيب اللازم..

* * *

بعد أيام قليلة فوجئت بالأستاذ عبد العزيز هندى مدير العلاقات العامة بوزارة الثقافة، يتصل بى ويقول :

— إستعد .. السفر بعد باكر .. لأن الطبيب الإنجليزى أرسل إلينا برقية يحدد فيها موعداً للقائكما مساء ١٦ إبريل فى لندن.

قلت بدهشة :

— ولكن الوقت ضيق جداً . . ولم نستخرج جواز السفر أو تأشيرة الخروج .. أو ...

فقاطعنى ضاحكاً :

— لا تحمل أى هم .. كل هذا سينتهى فى أربع وعشرين ساعة. وعليك فقط أن تجهز حقيبة سفرك.

بعد هذه المكالمة قام موظفو وزارة الثقافة بحركة نشاط هائلة، حطموا فيها الروتين المعروف . وقبل انقضاء يوم واحد، كان فى يدى جواز السفر وتذكرة الطائرة بالدرجة الأولى، على إحدى طائرات « إير إنديا » .

محتويات الحقيبة :

كنت قد أعددت حقيبتى المتواضعة . فملأت ربعها ببعض الملابس الداخلية والقمصان و « البلوفر » الكحلى الهدية . أما باقى الحقيبة فملأته ببعض الهدايا التى أعددتها لأكسب بها قلوب الإنجليز . وكانت فى جملتها لا تزيد عن خمسة جنيهات ، لكنها

اختيرت بعناية بحيث تساوى لديهم عشرات الجنيهات .

كانت الهدايا عبارة عن حلى فضية من خان الخليلى لا تزيد القطعة منها عن خمسة عشر قرشاً ، رغم روعتها الفنية وقيمتها الشعبية . وبعض التماثيل الفرعونية من النحاس والخزف ، وبعض زجاجات العطور الشرقية التى لايزيد سعر الواحدة منها فى الجملة عن إثنى عشر قرشاً ، وبعض علب السجائر المصرية التى يهيم بها الإنجليز ، كما عرفت من تحرياتى . ثم مجموعة كبيرة من الصور الملونة التى تبين حضارة مصر الفرعونية .. ومصر الحديثة. وأخيراً أخذت بعض علب الفول المدمس المحفوظ . ولعلها الشىء الوحيد الذى ندمت على حمله معى ..

أما الكتب فلم آخذ منها إلا القليل ، لأنى كنت أنوى أن أركز قراءاتى على اللغة الإنجليزية سواء فى كتب الأدب أو المجلات والجرائد . كذلك دسست فى الحقيبة كمية من الورق الفلوسكاب الذى اعتدت أن أكتب عليه كل مؤلفاتى ، ثم بعض دفاتر الورق « البلوك نوت » لكتابة الرسائل .

ليلة السفر:

بالرغم من أن السفر كان مباغتاً ، مما ضيّع علىّ فرصة إقامة الحفل الذى وعد به نجوم السينما . فقد كان بيتى مزدحماً فى تلك الليلة وكأنى فى حفلة زفاف صاخبة .. بلا عروس .

لم يزرنى فى تلك الليلة من نجوم الفن غير فريد الأطرش. وصباح ومحمد أحمد المصرى «أبو لمعة» ، وفؤاد راتب « بيجو » وفرحات عمر « الدكتور شديد » وعمر الحريرى ، والراقصة ثريا سالم . ومن نجوم الإذاعة المرحوم المأمون أبو شوشة وسامية صادق .

وقام الصديقان محمد المصرى وفؤاد راتب ، بمجهود رائع لتخفيف حدة التوتر التى كانت تسيطر على جو الأسرة . لقرب لحظة الوداع . وضحكت فى تلك الليلة كما لم أضحك من قبل .

وامتلأت حجرتى بالزملاء الصحفيين من دار الهلال والأهرام والأخبار ، لكنهم لم يتمكنوا من الحديث معى وسط الزحام ، واكتفوا بوصف مايحدث حولهم. والتقاط الصور لى والمودعين ولمحتويات حقيبتى .

وفى وسط الحشد ، أسعدتنى زيارة بعض الطالبات الصغيرات كمندوبات عن مدرسة مصر القديمة الثانوية للبنات ، وطلبن توقيعى على «الأوتوجرافات» . كما زارنى فى صباح نفس اليوم حوالى عشرة أطفال من إحدى مدارس مصر الجديدة ، جاءوا مع بعض مدرسيهم ليتمنوا لى رحلة سعيدة ، وقدموا لى هدية لطيفة تدل على منتهى التوفيق فى الإختيار . وهى عبارة عن قلم شيفرز ، وبعض فرش الرسم . وكان بين تلاميذ هذه المدرسة إبنا الرئيس جمال عبد الناصر .

وفوجئت يوماً بصحفية من أخبار اليوم ومعها مصور صحفى، وسجلا الزيارة. وعلمت فيما بعد أن الصحفية النشيطة وإسمها فايقه ميلاد، قد عرفت الخبر من إبنتها التلميذة فى نفس المدرسة.

السرير يتحرك:

لم أنم فى تلك الليلة سوى ساعتين متقطعتين، وصحوت فى الرابعة صباحاً حتى أستعد لعربة الإسعاف التى اتفقنا معها لتنقلنى إلى المطار. ألحت والدتى ونعمات على أن آكل شيئاً فرفضت. وابتلعت بعض أقراص «الأنتروفيفورم» القابضة. فقد كنت أخشى أن تدهمنى الحاجة إلى إفراغ أمعائى فى الطائرة.. وهى مسألة خطيرة جداً ليس لها حل. وكان مجرد التفكير فيها يثير الرجفة والاضطراب فى أمعائى.

وفى الساعة الخامسة، وصلت عربة الإسعاف. كانت نقالتها قد حملتنى مرتين أو ثلاثاً قبل ذلك اليوم. ولكن المشهد فى تلك اللحظات كان فى منتهى العنف والقسوة. كانت النقالة تشق طريقها وسط المحتشدين فى دارى بين السرير وباب العربة. وفوجئت بهم يجهشون بالبكاء، والمناديل البيضاء على الصفين ترتجف فى أيديهم. وفى منتصف الطريق قبل باب الشقة إرتفع النحيب والنشيج، فانقبض قلبي واختنقت الابتسامة العريضة التى كنت أحرص على رسمها فوق وجهى. وسمعت صوت والدتى من خلفى، وهى تقول

لرجال الإسعاف بصوت باك ملهوف :

– على مهلكم يا جماعة .. خلوا بالكم منه ..

وعندما خرجت النقالة إلى الشارع ، أدهشنى أن رأيت – ووجهى إلى أعلى – كثيراً من الجيران يطلون من النوافذ والشرفات فى تلك الساعة المبكرة من الصباح. وعندما ألقوا بى داخل السيارة وأغلقوا أبوابها تنفست الصعداء .

لم تستغرق هذه الجنازة سوى لحظات قصيرة ، كانت ثقيلة على أعصابى . لكنها كانت عن أى حال تجربة فريدة ، فقد رأيت وسمعت صورة كاملة لما ستكون عليه جنازتى عندما أتلقى دعوة السماء ، وحيث أكون حينذاك فى حال لا يسمح بالسمع أو الرؤية أو التعليق .

بعد ثمانية عشر عاماً بدأ سريرى يتحرك ، وأخذت أتطلع إلى الطريق من طاقة صغيرة فى سقف السيارة . وأنا راقد بداخلها على ظهرى ، أرقب قمم الأشجار ومصابيح الشارع العالية . كان معى فى السيارة الأخت نعمات والأخ أحمد بهجت بصفته مندوباً عن جريدة الأهرام . وطلب أحمد بهجت من السائق أن يتمهل فى السير ، حتى يتيح لى رؤية معالم القاهرة الجديدة بأبنيتها الشامخة وشوارعها العريضة وميادينها الفسيحة التى تزينها النافورات وتماثيل الفراعنة .

كنت مذهولا كأننى لست فى القاهرة التى عرفتها

قبل أن أدخـل سجن المرض . مع أنى لم أغادرها منذ أن ولدت فيها ! .

وصلنا إلى المطار . كنت أسمع الضجيج من حولى لـكنى لا أرى شيئاً من مكانى . ومن وقت لآخر كان يفتح باب عربة الإسعاف ويطل منه رأس باسم يتمنى لى رحلة طيبة . كانت بعض الوجوه لا أعرفها من قبل ، لـكنى أحسست بأنهم ليسوا غرباء . وكان زميلى القبانى فى مكان ما من المطار بين أهله ومحبيه الذين جاءوا لتوديعه . واقترب بعضهم من السيارة لتحيتى ، لـكنى لم أكن قد رأيت القبانى حتى هذه الساعة .

فى الطائرة :

لم أكن ركبت طائرة فى حياتى ، أو رأيتها على الأرض ، أو سمعت ضجيج محركاتها عن قرب . إنها تجربة جديدة مثيرة . وكان أشد ما يزعجنى هو لحظة إنفصال الطائرة عن الأرض . تلك اللحظة الرهيبة التى تنقطع فيها صلتى بالأرض الثابتة المطمئنة ؛ ويتعلق مصيرى بين أصابع الحظ . ولما كان بينى وبين الحظ سوء تفاهم قديم ، فقد كنت أخشى مداعباته السخيفة التى طالما أتحفنى بها أثناء سجنى الطويل .

كنت أول من دخل الطائرة ، محمولا على نقالة الإسعاف ، ووضعونى فوق سرير معلق فى جدار الطائرة قرب السقف . وكان أشبه بالرف الذى توضع عليه الحقائب وأمتعة المسافرين فى القطارات .

ومن مكانى المرتفع هذا ، رحت أرقب المسافرين وهم يصعدون إلى أماكنهم واحداً بعد الآخر فى صمت وهدوء .

طرأ فى ذهنى خاطر عجيب . أليس من المحتمل أن يصبح هؤلاء ضحايا لنحسى ؟! وأحسست بشىء ضئيل من تأنيب الضمير ، سرعان ما تبخر عندما أقنعت نفسى بأن النحس قد تخلى عنى يوم أعلن رئيس الجمهورية قراره المنصف الذى غير مجرى حياتى . وصرع النحس المزمن بضربة قاضية .

إنتابنى إحساس بالرهبة والقلق . . أكان ذلك لفراق أهلى وأصدقائى؟ أم لركوب الطائرة ! أم المصير الغامض الذى أقبل عليه مقيد الأطراف . . فى بلد غريب لا أعرف فيه أحداً ؟

قد يكون لهذه الأسباب مجتمعة ، يزيد عليه السبب الفسيولوجى الذى تناولت لأجله أقراص الأنتروفيفورم القابضة . .

أقفلت أبواب الطائرة ، وبدأت محركاتها تزمجر على الأرض . مازال أمامنا بعض الوقت حتى تأخذ المحركات سرعتها ، وتبدأ فى الصعود كان ضجيجها عالياً مزعجاً ، وراحت تنتفض بشدة كنسر كبير بلله المطر .

مرت دقائق رهيبة . . والطائرة لم تتحرك بعد ، وإن كانت رعاشاتها قد بدأت تستكين ، واستمرت الضجة عالية . لا شك أنها ستخفت عندما نحلق فى الجو . واسترحت لهذا الخاطر . . وبدأت أطرب لضوضاء المحركات فهى بشير السلام ، ودليل اتصالنا بالأرض .

قطع عقرب الدقائق حوالى ربع ساعة، والطائرة راسخة لا تتحرك. وقلبي ثابت مطمئن.. ولمحت بطرف عيني - خلال النافذة - أرض المطار ثابتة. كنت أعرف من معلوماتى التى جمعتها ممن سافروا قبلى، أن المضيفة توزع قبيل الصعود قطعاً من اللادن « اللبان » أو النعناع، حتى لا تتأثر طبلة الأذن بالضغط الجوى المتغير. لكن المضيفة لم تعطنى شيئاً.. وهذا ضمان آخر...

ثم بدأت أقلق...

ماهذا التأخير..؟ يبدو أنهم اكتشفوا عطلاً فى آخر لحظة، ولن نطير قبل أن يصلحوه. ثم سمعت قعقعة فى مكبر الصوت المثبت أمامى فى سقف الطائرة. إذن فقد حانت الساعة.. إنه ولاشك قائد الطائرة يرحب بالمسافرين، ويعلن خط السير. إن المعلومات التى ذكروها لى لم تخطىء.

لم يتكلم قائد الطائرة.. لكنها كانت المضيفة الهندية تتكلم بالإنجليزية، وتعلن فى صوت رقيق أننا تركنا الإسكندرية وراءنا. ونحن الآن نحلق على ارتفاع كذا ميل فوق البحر الأبيض المتوسط!

يانهار أبيض!! وبحركة آلية مرعوبة أمسكت بالحشية الإسفنجية التى أرقد فوقها، وأحسست بقلبي يغوص فى البحر..

لوحت عينى إلى طاقة النافذة المطلة على أرض المطار، فرأيت الأرض مازالت ثابتة! . ثم تنبهت أخيراً إلى أن النافذة تطل على جناح الطائرة الضخم!.

ولكن .. لماذا أخاف . ؟ وقد اجتزنا فعلا اللحظات الحرجة التي كنت أخشاها ؟ وها هي الطائرة تشق السماء راسخة متزنة . منذ ما يقرب من ساعة .

هدأت نفسي، وتراخت أعصابي ، حتى غلبني النعاس . . فنمت.

لم أشعر بدوار أو غثيان أو صداع .. لكن قدمي كانت تؤلمني للوضع غير المريح الذي أرقدوني فيه ، حيث ربطوني بالأحزمة العريضة كأنهم كانوا يخشون أن أغافلهم وأهاجم المسافرين !

كنت أنتهز فرصة مرور المضيفة أو المضيف ، فأنادي عليه من شرفتي العالية ، ليغير من وضع الوسادة تحت ساقي ، فيهدأ الألم لفترة أستغلها في النوم المتقطع . . ثم أفيق مرة أخرى لأتسلى بقراءة كتاب خفيف كان يحكي حياة مجموعة من الأدباء والشعراء ، وساعدتني فقراته غير المتصلة على القراءة المللولة المتسكعة .

كانوا قد عرضوا علىّ الإفطار في عربة الإسعاف ، لكني رفضت لأن شهيتي ذابت في حالة القلق والإنفعال . وأجلت وجبة الإفطار حتى تهدأ أعصابي في الطائرة . لكن الساعة أشرفت على العاشرة في الطائرة ولم يقدموا الى شيئاً من الطعام . واستحييت أن أطلب شيئاً من المضيفة لأني لم ألمح طعاماً يوزع . لكني تشجعت بعد أن أقنعتني تقلصات معدتي الخاوية بأن أطلب شيئا آكله . خاصة وأنا أعلم أن ثمن تذكرة الطائرة يتضمن الأكل .

طقطقت بأصابعي للمضيفة الهندية الحسناء في أثناء مرورها

من تحت شرفتى . فرفعت إلىّ وجهاً مبتسماً ، تتوسطه عينان كحيلتان تقولان فى وضوح « أنا فى خدمتك » . فقلت متشجعاً :

— أين الأكل ياآنسة ؟ . . أنا لم أتناول إفطارى بعد .

قالت بدهشة :

— كيف . ؟ كان الإفطار فى المطار قبل تحرك الطائرة .

فتلعثمت خجلا ، وقد تصورتها تقول مامعناه : « الله يحنن عليك » لـكنها عادت تقول فى رقة وأدب :

— هل تطلب أى مشروب ؟

قلت متغاضباً :

— كلا . . متشكر .

فعادت تقول باسمة :

— هل أحضر لك بعض البسكويت والمكسرات . ؟

أجبت بلهفة الجائع :

— نعم . . من فضلك . .

وبعد لحظات عادت إلىّ بطبق من البلاستيك به « بسكويت » مملح هش لذيذ ، ومعه كيس به نوع من المكسرات ، تشبه الجنبرى المقشر ، أما لونها وطعمها فأقرب ما يكون إلى الفول السودانى ، لكنه أكثر دسامة .. يبدو أنه فول هندى ! فالتهمت محتويات الطبق بشراهة ، ثم طلبت العصير الذى عرضته فى البداية . فجاءت لى بكوب كبير فيه سائل له صفرة البرتقال لكن طعمه يختلف . لم أتردد أمام

المشروب المجهول، وألقيت به فى جوفى .

كنت أتوقع منذ بداية الرحلة أنى سأتعرض لأشياء غريبة ومنها الأطعمة والمشروبات، وعزمت على تجربة كل شىء يصادفنى.. ولو لمرة واحدة.. حتى أستمتع بالتجربة الجديدة على أوسع مدى.

بعد ساعتين حان موعد الغداء.. الذى جاء يتهادى على اليد السمراء الرقيقة فى طبق طويل من البلاستيك ، ومعه فوطة ، وكيس من السوليفان يحوى سكينة وملعقة وشوكة ، كان الطبق عبارة عن لوحة زيتية رائعة .. وقد رصت فيه المأكولات بتنسيق بديع غير مألوف .. بالنسبة لى على الأقل . لأن والدتى من أنصار الكم ... لا الكيف !

كان الطبق كله مفروشاً بورق الخس ، رُصّت فوقه حلقات الخبز التى لا يزيد قطرها عن خمسة سنتيمترات . على إحداها طبقة من الزبد ، تعلوها قطعة من « الجامبون » مربعة الشكل .. ثم قطعة أخرى فوقها على شكل نجمة . وفوق النجمة شىء ملون لعله نوع من الصلصة . والقرص الآخر من الخبز عليه طبقة من اللحم المحفوظ، وفوقه قرص من بيضة مسلوقة، وفوق البيضة زهرة من المايونيز تبرز منها ورقة مقدونس صغيرة . وفى وسط الطبق سمكة من نوع السالمون ، مرسومة بزخارف من مواد ملونة لا أعرفها . .

رحت أتأمل الطبق الجميل وكأنه باقة من الزهور ، يعز علىّ

أن أهدمه .. لكن غريزة حب البقاء غلبت على النزعة الفنية ، فنقلت الزهور إلى معدتى الصارخة أمام الإغراء . لكن نسبة أقراص الخبز إلى اللحوم كانت ضئيلة ، فطلبت مزيداً من الخبز. وإذ بها تأتينى برغيف كبير « فينو » قطره ثمانية سنتيمترات ، مقسوم إلى نصفين ومدهون بالزبد. ترددت أمام هذا الدسم الذى يهدد استحكامات الأدوية القابضة المضادة لثورة الأمعاء . لكن ترددى لم يدم طويلا بعد أن تأقلمت فى جو الطائرة، وقد أصبحت فوق سماء أوربا . وضاع الرغيف فى غياهب بطنى محاولا أن يسد الفراغ الذى حرصت عليه بامتناعى عن الأكل فى اليوم السابق .

ثم لمحت شيئاً مستديراً يشبه قطعة « الجاتوه » المزخرفة . فاشمأزت نفسى من وضع الحلوى بجانب اللحم والسمك. وطعنت قطعة « الجاتوه » بالشوكة ، فإذا بها وحدات من الجنبرى منسقة على شكل فصوص اليوسفى ، وعليها أنواع من الصلصة الملونة . ولم أندم هذه المرة على هدم رصة الجنبرى ، لأنه من أكلاتى المفضلة..كما أنه خفيف على المعدة. وأخيراً أخذت أتسكع بالشوكة بين أنقاض الطبق البلاستيك ، فأتناول من هنا زيتونة لامعة . . ومن هناك قطعة من الكوسة المسلوقة...

وإذ بالمضيفة تنادينى من أسفل :

— هل تريد شيئاً من اللحوم ؟ أقصد الدجاج ؟

قلت متردداً :

— لا مانع . . .

لم تكن معدتى فى الواقع هى التى ألقت بالموافقة على لسانى ، لكنى أردت أن أختبر الدجاج الهندى ! .. وهل هو محمر ومكتف ومحشو بالفريك كالذى تعده أمى ؟ .. أم أنه شىء آخر .

بعد أن خطت المضيفة خطوتين نحو مؤخر الطائرة ، عادت تسألنى :

— هل تحب أن أقطعها لك؟

— نعم .

لقد أدركت بخبرتها أن وضعى الخاص لايحتمل خوض معركة بالسكين مع لحم متماسك . وبعد قليل .. والقليل هنا يعنى نصف دقيقة .. جاءتنى المضيفة بنصف كتكوت مفصص ، وعليه شىء عجيب أرجح أنه كان حساء مركزاً من الخضروات . وعلى جانب الطبق خمس حبات من البطاطس المسلوق فى مرق الدجاج . وكان البخار يتصاعد من محتويات الطبق فيدغدغ أنفى . وخشيت أن أبدو نهماً فى نظر المضيفة الرقيقة ، فلم ألتهم الطبق كله .. وأعدت إليها البطاطس!.

وبعد قليل مر المضيف تحت الشرفة ، ومعه سلة بها بعض الفواكه ، وتطلع إلىّ مبتسماً . . فسألته :

— عندك موز ؟

قال :

— متأسف .. نفدت الـكمية .

وكأنه بائع متجول يقول « جبرنا » . ورفع نحوى السلة لأختار منها ما أريد ، فلم أشأ أن أقلب محتوياتها كالطفل غير المهذب الذى يحرج أمه أمام الضيوف حينما تغيب يده فى علبة الحلوى باحثاً عن أكبر قطعة من الشكولاته . ومددت يدى الخجلى فالتقطت أول شىء صادفنى على سطح السلة . وكان — بالصدفة ! — تفاحة رائعة ، رحت ألمس خدودها الوردية الناعمة فى حنان ولهفة ، ثم لم أتمالك نفسى أمام أغرائها فانهلت عليها بالسكين . ! ومرت بى المضيفة ، فلاحظت أن السكين مرتبكة بين يدى المقيدتين ، فعرضت علىّ تقطيعها .. أقصد التفاحة .

كانت ملامح المضيفة توحى بالثقة ، لذا ناولتها التفاحة وأنا مطمئن إلى أنها ستعود إلىّ بعد أن تتخلص من ثوبها الوردى .. أقصد التفاحة ! . وفعلا ، لم يخب ظنى فى المضيفة الحسناء ، فقد عادت بالتفاحة ، ومعها أصبع من الموز ، قدمته إلى قائلة :

— أخبرنى زميلى بأنك طلبت موزاً .. وقد وجدت لك أصبعاً .

تناولته شاكراً ، رغم أن شكله لم يعجبنى ، فقد كان لونه أخضر من الخارج .. لكنى فوجئت به شديد الحلاوة من الداخل .. يبدو أنه نوع هندى أيضاً . كان كل شىء فى الطائرة يتسم بالطابع الهندى .. ماعدا الحديث الذى كان بالإنجليزية .

كنا قد وصلنا إلى چنيف ، عندما سألتنى المضيفة .

ـــ هل تريد سجائر ..؟

قلت :

ـــ كلا .. أشكرك .

ـــ خمور ؟

ـــ كلا .. اشكرك .

ـــ حلوى .. شكولاته .. لادن .. ؟

وشعرت بارتياح بعدما بدأت أرفض عروضها ، لعلى بذلك أصحح فى رأسها الفكرة السيئة ، التى تركتها شراهتى السابقة . وفى الواقع أنى لست أكولاً بطبعى، لكن صيام اليوم السابق، وحب الاستطلاع ، وفن تنسيق الأطباق .. كل هذه العوامل جعلتنى أرتكب تلك الحماقة .

وعادت المضيفة تسألنى إذا ما كنت أريد شيئاً من القهوة ، فقلت محاولا استعراض عضلاتى فى أنواع القهوة :

ـــ قهوة عربية أم فرنسية أم تركية أم هندية ؟

أجابت والإبتسامة العذبة لا تفارق شفتيها :

ـــ بل قهوة سويسرية .

ـــ لا مانع .

وكانت القهوة السويسرية لذيذة جداً ،رغم أنها مخلوطة باللبن، وهو مالم أعتده .

ثم وصلت الطائرة إلى « دوسلدورف » بالمانيا ، ونزل منها

الركاب كما فعلوا فى جنيف ، بينما ظللت معلقاً على الرف ، لا أكاد أرى إلا مساحة ضيقة من أرض المطار ، وسمائه التى انعقد فيها الضباب ، مما يوحى ببرودة الجو فى الخارج ، لكنى كنت أنعم بالدفء فى باطن الطائرة المكيفة الهواء .

أخيراً حلقت الطائرة فوق مطار لندن ، وسمعت المضيفة تبشر المسافرين بسلامة الوصول . ولكن مرت دقائق طويلة ولم أشعر بالهزة العنيفة التى تنتج عن ملامسة عجلات الطائرة لأرض المطار . وكاد عقرب الدقائق أن يقطع دورة كاملة قبل أن تستقر مرة أخيرة على سطح الكرة الأرضية . وعلمت أن الجو كان سيئاً والرؤية متعذرة ، مما جعل الطيار عاجزاً عن رؤية أرض المطار . وكان من المفروض أن تستغرق الرحلة تسع ساعات، لكن الطائرة قطعتها فى إثنتى عشرة ساعة .

نزل الركاب جميعاً ، وبقيت وحدى بالطائرة . وكانت شركة الطيران قد أخطرت مكتبها فى لندن ليحجز لنا سيارة إسعاف نظير أجر إضافى على ثمن التذكرة . ظللت أنتظر رجال الإسعاف ، فإذا بى أرى ممرضة إنجليزية فى ردائها الأبيض ، تقف أمامى ، فظننت أنها جاءت لترافق زميلى القبانى الذى كان يحتل كرسياً عادياً لا أراه من مكانى . ثم جاء من خلفها رجلان يحملان محفة من القماش السميك ، فحملانى عليها تحت إشراف الممرضة .

كان المطار هادئاً ، كأنه صحراء لا يحدها النظر، حيث الضباب

الخفيف يزيد المكان كآبة ووحشة ، وأحسست برذاذ خفيف يلمس وجهى . ولم تقع عينى على أى كائن حى سوى الممرضة ورجلى الإسعاف ، اللذين سارا بى بضع خطوات ، حتى باب عربة الإسعاف الكبيرة ، وأرقدونى فوق سرير معلق على جانبها الأيمن ، ثم سمعت صوت القبانى يهتف فى مرحه المعهود :

— أهلا .. أهلا .. حمد الله على السلامة .

كان القبانى يحتل كرسياً فى الجانب الأيسر ، ولما كانت رقبتى معوجة فى وضع ثابت ناحية اليمين ، فلم أتبين ملامحه . لكنى أحسست بالراحة والطمأنينة عندما سمعت صوتاً عربياً يرحب بى فى ذلك المكان الموحش ، فصحت مهللا :

— أين أنت يارجل ؟ . لقد خشيت أن يأخذوك إلى مكان آخر فلا نلتقى .

وامتدت يمناه تصافح يدى اليسرى عبر الممر دون أن تلتقى نظراتنا .. ثم صعد موظف الجمرك . فاطلع على جوازى السفر وفتح الحقائب، وهو يسأل كلا منا إذا كان يحمل شيئاً من الممنوعات ، فلما أجبنا بالنفى ، إنسحب فى دقائق وهو يعتذر لتعطيلنا .

بدأت السيارة تتحرك ، وركب معنا أحد رجال الإسعاف ، فقلت للقبانى بالعربية :

— أين الممرضة ؟

— لقد ركبت بجوار السائق .

وعدت أقول :

— إذا كانت هذه الممرضة تعبر بصدق عن مستوى الجمال الإنجليزى .. فسوف أصاب بخيبة أمل .

— ربنا يستر ..

— وإلى أين نحن ذاهبون ؟

— إلى مستشفى لندن بالطبع . كما قيل لنا فى مصر .

— وهل قلت هذا لرجال الإسعاف ؟

— كلا .. يبدو أن لديهم التعليمات الكافية .

فقلت الرجل المرافق :

— هل ستذهب إلى مستشفى لندن ؟

قال ببساطة :

— كلا . . بل إلى « لندن كلينيك » .

— ولكن موعدنا مع الطبيب فى المستشفى .. وليس فى العيادة

— إن « لندن كلينيك » مستشفى كبير . . أما الآخر فهو مستشفى جامعى ولا يستقبل الأجانب .

— وهل تعرف الدكتور أوزموند كلارك .

— كلا

قلت للقبانى بالعربية :

— هذا الرجل سوف يضيعنا ولا شك . .

قال ضاحكاً :

— ولا يهمك .. مطرح ما ترسى دق لها .

وعلمت من الزميل القبانى أنه كان يعانى من الدوار، والغثيان فى أثناء الرحلة ، وأنه لم يستمتع بالأكل الهندى المعتبر . فرجحنا أن تكون تلك الوعكة بسبب تطلعه من نافذة الطائرة . أما أنا فكان نظرى محدوداً بسقف الطائرة وجزء من حوائطها ، لذلك لم يطرأ أى تغيير على أجهزتى الهضمية أو العصبية .

راحت السيارة تقطع الطريق الطويل بين المطار والمستشفى ، بينما الظلام يتكاثف حولنا بسرعة . وتطلعت إلى ساعتى فوجدتها تقترب من الثامنة مساء ، بعد أن قدمناها ساعتين عند وصولنا إلى المطار . وهى فرق التوقيت بين القاهرة ولندن .

كان النصف الأعلى من جوانب العربة كله من الزجاج ، مما أتاح لى رؤية شوارع لندن الواسعة المبتلة، ومنازلها ذات الطراز الكلاسيكى ، مع لمسات من الفن الحديث ، لكنى لم ألمح عمارات شاهقة . وكان رذاذ المطر يقرع النافذة العريضة ويغسل واجهات المبانى .

طلبت من رجل الإسعاف الإنجليزى أن يشرح لنا الأماكن الهامة التى نمر بها . فقام بمهمته خير قيام . ومررنا بحديقة هايدبارك الشهيرة التى كثيراً ما قرأت عنها فى الروايات . لكنى لم أتبين معالمها بوضوح ، فقد مررنا بها سريعاً .

فى لندن كلينك :

أخيراً وصلنا إلى حى « وست إند » ، وهو حى أرستقراطى ، حيث تقع مستشفى « لندن كلينيك » . وفى سرعة ونشاط نقلنى رجال الإسعاف إلى داخل المستشفى الفخم ، حيث وضعونى فوق « الترولّى » ، الذى دخل بأكمله فى مصعد من الخشب الفاخر اللامع . وفى الدور الخامس خرج « الترولّى » ، حيث استقبلتنى ثلاث ممرضات . وبعد لحظات كنت راقداً على سرير مريح فى حجرتى الخاصة . .

يا كرم الله ما هذه الفخامة والأبهة ؟ كنت أخشى أن يزجوا بى فى عنبر بمستشفى لندن الجامعى ، وأنا لا أطيق حياة العنابر الجماعية لأسباب شرحتها فيما قبل. ولكن رجال الإسعاف أصروا على إحضارنا إلى هذا المكان الفاخر ! ترى هل كان مجيئنا على سبيل الخطأ ؟

أحسست بشعور المفلس الذى يدخل خطأ أحد المطاعم الفاخرة . ثم يكتشف بعد أن يملأ بطنه بأنه قد تورط فى مبلغ كبير لا يحتويه جيبه الخاوى !! .

إننا حتى تلك اللحظة لم نقابل أحداً يعرفنا أو ينتظر وصولنا ، سواء فى المطار أو الإسعاف أو المستشفى . لكنهم جميعاً تصرفوا بمنتهى الدقة والسرعة ، وكأنهم مكلفون بخطة مرسومة . يبدو أنهم

ظنوا أننا من أمراء الكويت أو السعودية ، فورطونا فى هذا المستشفى الفخم .

كيف أتصرف ؟ ! .. وإذا جاءنى معاون المستشفى يطلب مبلغاً تحت الحساب . . من أين أدفع له .. ؟ وأين أجد الطبيب الذى تواعدنا على لقائه ؟ وأين القبانى حتى نتدبر معاً هذا الموقف الحرج ؟ .

سألت الممرضة :

— أين زميلى ؟

قالت :

— فى الحجرة المجاورة رقم ٥٢٧ .

— وما هو رقم حجرتى هذه ؟

— ٥٢٩ .

— هل تعرفين طبيبا اسمه أوزموند كلارك ؟

— طبعاً .. هل تريد الإتصال به ؟

— بسرعة .. من فضلك .. هل هو مقيم فى هذا المستشفى ؟ .

— كلا .. ولكن بيته قريب من هنا .

وبعد لحظات عادت تقول إنها اتصلت بالطبيب ، وهو فى طريقه إلينا ، فبدأت أعصابى تهدأ قليلا ، ورحت أتطلع حولى فى أنحاء الغرفة الواسعة ..

كان طولها خمسة أمتار وعرضها أربعة .. كلها مطلية بالزيت .. والأرضية من الباركيه الفاخر . السرير الذى أرقدونى عليه نظيف جداً ومريح .. إلى يمينى دولاب خشبى كبير ، وتحت يدى مباشرة « كومودينو » عليه تليفون خاص .. وأمامه منضدة صغيرة عليها « راديو » . وإلى يسارى « كومودينو » آخر فوقه مصباح متنقل « أباجورة » يلقى ضوءاً هادئاً خافتاً ، وفى جانب الحجرة كرسى كبير مكسو بلون الستائر ، وبجوار النافذة حوض يعلوه صنبور للماء البارد وآخر للساخن ، وعلى الحائط خلفى علق « ترمومتر » جوى ، وأمام السرير مباشرة « تسريحه » وفوقها مرآة كبيرة ، أرى نفسى فيها بسهولة فى وضعى الراقد . ومن السقف كانت تتدلى نجفة مضاءة .

إلتفت إلى باب الحجرة الأبيض فوجدت أن عرضه حوالى مترين . وقد حرصت الممرضتان اللتان بقيتا معى على إغلاقه . ولاحظت أنه خال من الفتحات الزجاجية مثل مستشفيات القاهرة ، فارتحت جداً لهذا الباب المحكم ، لأنى لا أتصور أن أتعرض لأعين الفضوليين ، وكأنى حيوان فى قفص ! .

أخذت أرقب الممرضتين الحسناوين ، وهما تتحركان فى سرعة ونشاط ، إحداهما تفرغ حقيبتى فى رفوف الدولاب ، وأدراج « التسريحة » الكبيرة . والأخرى تخلع عنى « البلوفر » الصوف ، ثم جاءت بمنشفتين نظيفتين . ملأت إحداهما بالصابون ومسحت لى

وجهى ويدىّ بحركات مدربة سريعة ، ثم جففتنى بالمنشفة الأخرى. ولم أشعر برغبة فى ارتداء « البلوفر » مرة أخرى ، فقد كانت الحجرة دافئة ، فسألت الممرضة :

— هل الجو هنا دافىء هكذا باستمرار ؟

قالت :

— طالما أنت فى هذه الحجرة فلن تشعر بالبرد ..

وأشارت بإصبعها إلى جهاز فى الحائط عبارة عن أنابيب متعرجة وقالت :

— هذا هو جهاز التدفئة المركزية .. وهو يعمل باستمرار أثناء الشتاء .

— وهل يوجد جهاز تبريد فى الصيف ؟

— كلا .. إن الصيف عندنا ليس حاراً إلى هذه الدرجة .

بدأت أحس بأعصابى تتراخى فى هذا المكان الهادىء تماماً ، ولاحظت أن الممرضات يتكلمن فى صوت خافت ، ويتحركن بخطوات رشيقة متلصصة ، وإذا دخلت زميلتهن الثالثة تنقر الباب بخفة ، ثم تحرص على إغلاقه خلفها بعد كل مرة تعبر فيها عتبته .

سألت إحدى الممرضتين :

— هل هذا الباب يظل مقفلا باستمرار ؟

— نعم . .

— وهل يقرع الداخل دائماً قبل أن يفتح الباب ؟

— نعم . . ضرورى .

— وهل ينتظر حتى أسمح له بالدخول . . ؟

— نعم .

— وإذا لم أسمح . . هل يظل بالخارج ؟

فتطلعت إلى فى دهشة من أسئلتى وقالت :

- إذا كنت لاتريد أن يدخل أحد ، فعليك أن تضغط على هذا الزر .

وأشارت إلى لوحة أزرار مثبتة بجوار يدى ، فى طرفها زر مكتوب أمامه « مشغول » والثانى ، مكتوب أمامه « التمرجية » أما الثالث فمخصص للممرضة . وقالت :

- عندما تضغط على الزر الأول يضاء مصباح أحمر خارج حجرتك ، فلا يجسر على دخولها أحد ماعدا « المستر » الرئيسة

— والممرضة . . ؟

— تدخل أيضاً عند استدعائها بالجرس المخصص لها .

إرتحت لهذا النظام الدقيق الذى يكفل لى الحرية ، ويحمينى من الهجمات المفاجئة . . خاصة عند مباشرة أسخف عملية تعكر صفو حياتى . . أقصد إفراغ أمعائى .

إنصرفت ممرضة القسم المجاورة ، التى تولت ترتيب محتويات الحقيبة فى الدولاب . وبقيت معى ممرضة القسم الذى نزلت به . والقسم مكون من ثلاث حجرات . سألتنى بعد أن انتهت من مهمة إنعاشى وإراحتى على السرير بالوسائد الطرية :

ــ هل تحب أن تأكل شيئاً ؟

كنت لا أزال متخماً من أكل الطائرة ، فقلت :

ــ كلا أشكرك .

ــ هل آتى لك بفنجان من الشاى ؟

ــ لا بأس .

ــ باللبن ؟

ــ نعم .

وبعد دقائق جاءنى الشاى باللبن ، ومعه وعاء به سكر ، فأخذت كفايتى . وكنت قد سمعت أن الإنجليز يشربون الشاى بدون سكر . فحمدت الله لأنهم لا يفرضون مزاجهم على الأجانب .

بقدر ما كنت مرتاحاً لفخامة المكان والخدمة الممتازة ، فقد كنت قلقاً لاحتمال طردنا من المستشفى عندما يكتشفون خطأ رجال الإسعاف . ولم يكن أمامى إلا أن أنتظر مجىء الدكتور أوزموند كلارك ، فإنه الشخص الوحيد الذى يمكننا الإتصال به فى هذا المكان حيث لا نعرف أحداً .

وفجأة دخل الحجرة رجل عجوز ، قصير القامة ، وجهه أحمر باسم ، تحده من أسفل لحية بيضاء رشيقة ، وتتوج رأسه هالة من البلاتين ، ودخل خلفه رجل فى الحلقة الخامسة ، فى غاية الأناقة والوسامة كأنه نجم سينمائى . صاح ذو اللحية البيضاء وهو يلوح فى مرح :

— هالو . . . أنا أوزموند كلارك . وهذا المستر شيرز .

شجعنى هذا اللقاء الحماسى على مقابلته متهللا . بعد أن هدم جدار الرهبة من أول لحظة . رآنى أكتب أول رسالة[1] إلى أهلى ، فمال نحو الورقة بحركة لطيفة وهو يقول :

— هل تكتب باللغة العربية ؟

— نعم .

— أنت كاتب مصرى . . أليس كذلك ؟

— هذا صحيح .

— هل تكتب وأنت نائم ؟

— نعم . . هكذا . .

وأمسكت بلوحتى الخشبية الرقيقة فى يدى اليسرى ، وأجريت عليها القلم بيدى اليمنى ، وبينت له كيف أكتب . ثم أجرى على

---

(١) كنت أسجل كل مايجرى حولى بالتفصيل فى رسائل مطولة أبعث بها إلى أهلى فى القاهرة . وكانوا هنا يحتفظون بها بعد إعطائها أرقاماً مسلسلة . ومن هذه المجموعة التى تجاوزت الخمسين رسالة أنقل معلومات هذا الفصل من الكتاب .

جسمى كشفاً سريعاً بمساعدة « المستر شيرز » ، الذى عرفت أنه طبيب جراح . وأن العرف جرت عند الإنجليز على أن يطلقوا على الطبيب الجراح لقب «مستر» ، أما الطبيب الباطنى فيسمونه «دكتور».

ثم سألنى الدكتور كلارك ، ولنسمه هكذا حتى لا يلتبس الأمر على من لم يألفوا تسمية الطبيب بلقب « مستر » :

— منذ متى أصابك المرض ؟

— منذ ثمانية عشر عاماً .

فتجسس عضلات ساقى وهو يهتف بإعجاب :

— مدهش !!

ولم أدر علام الدهشة من هذه العضـــلات الضامرة ، ثم عاد يقول :

— هل ظهرك به قروح ؟

قلت :

كلا . . لم يحدث هذا قط .

— مدهش . . !

— هل رئتاك بهما أية مضاعفات ؟

— كلا . .

وعاد يكرر ألفاظ الدهشة والإعجاب ، ثم راح يفسر لى كيف أن الرقدة الطويلة ، ولو كانت لبضعة شهور تسبب قروحاً فى الظهر نتيجة انضغاطه على السرير ، مما يمنع سريان الدم إلى الجلد وتغذيته ،

وبالتالى يتـآكل ويتقرح .

فشرحت له كيف أنى ابتكرت مع الوقت طريقة مريحة للنوم ، وهى أنى أنام على أربع وسائد طرية تشكل فيما بينها صليباً غائراً تغوص فيه عظام العمود الفقرى والحوض . وكيف أنى أسحب إحدى هذه الوسائد الأربع من وقت لآخر ، فأترك تحتها غائراً ، بينما يكون ظهرى مرتكزاً على الثلاث الأخرى . وبهذا أمنح لربع ظهرى فرصة للتهوية والراحة . . وهكذا دواليك مع بقية الظهر .

وعرفت أن الرئتين بالنسبة للراقد على ظهره فترة طويلة ، تتأثران بترسيب الإفرازات المخاطية فى الجزء الأسفل منهما ، مما يجعله مرتعاً خصباً لنمو الميكروبات ، فتحتقن وتتعرض للالتهاب الرئوى . لكن تمرينات التنفس العميق التى كنت أمارسها باستمرار كانت تساعد على تلافى هذه المضاعفات . هذا بجانب إصرارى على زيارة دورة المياه مرتين يومياً ، جالساً على الكرسى المتحرك ، مما يساعد على عدم ركود المواد المخاطية فى الرئتين . والعجيب أنى كنت أمارس هاتين العادتين . أى التنفس العميق والجلوس ، دون أن أدرك العلاقة بينها وبين الرئتين !

أما عضلات الساقين فكانت لاتزال تدب فيها الحيوية نسبياً . وكنت ـ ولا أزال ـ أستطيع قبضها بقوة . وذلك لأنى دؤوب على تحريك هذه العضلات فى تمرينات يومية حتى لا تضمر لعدم قيامها بوظيفتها الطبيعية . وكان معنى سلامة العضلات أنها ستكون قادرة

على تحريك الساقين بعد تركيب المفاصل الصناعية فيهما .

ثم سألني الدكتور كلارك وهو يربت على ركبتي باسماً :

ـ وماذا تتوقع مني ؟

قلت في حماس :

ـ كل أساتذة الطب المصريين أكدوا لي أنه لا أمل في علاجي إلا على يديك .

فانفجر ضاحكاً في سعادة ، وقال :

ـ وماذا تريد أنت ؟

قلت :

ـ أريد أن أخدم نفسي بنفسي ، وأنتقل من مكان إلى آخر بمساعدة عصا أتكىء عليها .

الواقع أن أملي كان أكبر من هذا بكثير ، لكني لم أشأ أن أصارحه بأطماعي حتى لا ييأس من قدرته على ارضائي . ثم هز رأسه وقال في ابتسامة مطمئنة :

ـ طيب . . طيب . . عليك أن تنام الآن وغداً سنرى ماذا يمكننا أن نفعل من أجلك .

ـ لكني لا أشعر برغبة في النوم .

ـ لماذا ؟ . . هل أنت معتاد على الحبوب المنومة ؟

ـ كلا . . إني أنام بعمق دائماً . ومع أني لم أنم منذ يومين إلا أنه ليست بي رغبة للنوم . .

قال بدهشة :

ـ لماذا ؟

ـ لأنى سعيد . . سعيد جداً . . فقد وضعت قدمى على أول طريق الشفاء . . فعاد يقهقه فى إرتياح، ثم التفت إلى زميله وقال:

ـ إن روحه المعنوية العالية سوف تساعدنا كثيراً فى رسم خطة علاجه .

وغادرانى وسط عاصفة من الضحك والأمل والتمنيات الطيبة. وما كادا يختفيان خلف الباب الأبيض الكبير حتى سألت الممرضة:

ـ هل تظنين أنى سأجرى العمليات الجراحية هنا . . أم فى مستشفى لندن ؟

قالت :

ـ أظن أن الدكتور كلارك يمارس جراحاته هنا .

فهمست لنفسى :

ـ وأنا قتيل هنا . .

ولم يستسلم جفناى للنعاس إلا بعد أن سحبتها الممرضة بقرصين من الحبوب المنومة . ولم يقلقنى سوى أصوات الرعد وومضات البرق ، التى كانت أقرب إلى الغارات الجوية العنيفة بهديرها ووميضها .

* * *

إستيقظت فى السابعة والنصف من صباح اليوم التالى . .

وأخذت أستكشف ماحولى . وبدأت بالضغط على زر الممرضة فدخلت على عجل ، وهى تلقى تحية الصباح ، وفتحت الستائر وهى تهتف فى تفاؤل : « الجو جميل اليوم » .

وقد عرفت فيما بعد أن الإنجليز يرددون هذا التعبير حتى ولو كان الجو مكفهراً ، أو شديد الحرارة . ثم سألتنى :

— هل تريد فنجاناً من الشاى ؟

قلت :

— نعم . . ولكن هل أستطيع أن أشربه فى كوب بدلا من الفنجان ؟

— بالطبع . . كما تريد .

وبعد الشاى سألتها :

— هل تسمحين بغسل وجهى ؟

قالت وهى تهرول إلى الخارج :

— طبعاً . . سوف تأخذ الآن حمامك كاملا . .

إنتهيت من شرب الشاى ، ومضى بعض الوقت ، ولم تحضر الممرضة . فلم أجد بأساً من استخدام حتى فى استدعائها . وضغطت الجرس .

انفتح الباب . . ودخلت ممرضة أخرى حسناء ، وألقت بتحية الصباح ، فسألتها عن ممرضتى التى وعدتنى بالحمام ، قالت :

— أنا الممرضة الخاصة بهذه الحجرة . . أما زميلتى الأخرى

فهى ممرضة الليل وقد انتهت نوبتها فى الثامنة صباحا .

— إذن ضاع الحمام . . لا بأس من أن أغسل وجهى على الأقل . .

— كلا . . فأنا المختصة بحمام الصباح . .

— لكى لا أستطيع أن أنتقل إلى الحمام .

— لا بأس . . سوف تستحم فى السرير وأنت مستريح .

الحمام فى السرير :

وأسرعت تحضر وعاء من البلاستيك من فوق الدولاب . وملأته بالماء الدافىء . وأحضرت فوطة مليئة برغاوى الصابون ، وأخرى جافة . وبأصابع مدربة راحت تفك أزرار قميصى ، ثم سحبت « بنطلون البيجاما » من قدمى . فأصبحت فى لحظة كما ولدتنى أمى ! ! وأسرعت أسحب إحدى فوطى الخاصة ، وسترت بها نفسى حياء . أما هى فكانت تتصرف فى جرأة المتعود . ولم يبد على ملامحها أى أثر للتردد أو الحياء .

أخذت تمر على جسمى بالفوطة المصبنة . فبدأت بوجهى ثم جففته . وبنفس الفوطة هبطت إلى صدرى ، ثم بنفس الفوطة استمرت فى زحفها إلى ساقى وقدمى ! ! . وكانت فى كل مرة تغمس الفوطة ثم تعصرها فى الوعاء .

ماهذا القرف ! !

لم أحتمل السكوت ، فقلت دون أن أكتم نفورى :

— هل تستعملين دائماً نفس الفوطة لجميع مناطق الجسم ؟

قالت بدهشة :

— وما الضرر فى هذا . . ها أنت ترى أنى أغسلها فى كل مرة.

— تغسلينها فى ماء قذر .

— وأين تريدنى أن أغسلها إذن ؟

— تحت ماء جار من الصنبور . .

تطلعت إلىّ بنظرة مستنكرة ، فلم أشأ أن أصدم بها من أول يوم ، وأعطيها فكرة سيئة عن المصريين ، فقلت متلطفاً :

— لقد سمعت أن التمريض فى بلدكم ممتاز . .

— شكراً . . وهل وجدته كذلك ؟

— بالطبع . . لكنى وجدت شيئاً آخر لم أكن أتوقعه .

— ما هو ؟

— الجمال الرائع . . لم أكن أتصور أن الإنجليزيات بمثل هذا الجمال .

— أنا لست إنجليزية . . أنا إيرلندية . .

قالتها على الفور وكأنها تنفى تهمة عن نفسها . وعدت أسألها :

— وما اسمك ؟

— مس كانتيويل . . جون كانتويل .

— تشرفنا يا مس كانتويل . .

ولما اطمأننت إلى هدوء أعصابها ، أخذت أقنعها بفكرة استعمال عدة فوط ملونة لمختلف مناطق الجسم ، حتى لا تختلط . فخصصنا اللون الأبيض لوجهى ، والأزرق لجسمى وساقىّ ، والأحمر للمنطقة الباقية .

وبدأت أدربها — فى مزيد من الذوق والأدب — على طريقة مسح وجهى بالفوطة ، فتبدأ بعينىّ ، ثم تقلب الفوطة وتمسح فمى ، ثم جبينى ووجنتى ، ثم أذنى ورقبتى . وكانت فى حركاتها الطائشة تلوث فمى بعرق أذنى ، وتلهب عينىّ بافرازات أنفى ، والأتربة العالقة ببشرتى !

الطعام الانجليزى :

جاءنى الفطور فى تمام التاسعة صباحاً . وكان عبارة عن بيضتين كبيرتين مقليتين فى الزبد . . ومربى . . وخبز محمص « توست » . وعصير برتقال .

كان هذا هو الفطور العادى ، قبل أن يعرضوا علىّ قائمة الطعام . وفى الساعة العاشرة دخلت حجرتى « السستر » المختصة بالمطبخ ، ومعها دفتر كبير ، وسألتنى عما أحب أن أتناوله فى الصباح . وراحت تحدد أنواع الطعام من قائمة فى يدها ، فوافقت على البيض المسلوق والمربى والزيتون الاسود وعصير البرتقال . فقالت :

ــ وما رأيك فى السجق ؟

ــ لا داعى .. لأنى أتجنب المقليات .

ــ والغذاء .. هل تحب اللحوم ؟

ــ طبعاً .

ــ سمك ؟

ــ كلا ..

ــ دجاج ؟

ــ نعم ..

ــ سلطة خضار ؟

ــ نعم .

ــ وفواكه ؟

ــ جداً ..

ثم انحنت فى احترام وانصرفت بعد أن سجلت رغباتى .

الاتصال بالمسئولين :

بعد الإفطار جاءنى الزميل القبانى على كرسيه المتحرك . وفى هذه اللحظة فقط استطعت أن أرى ملامحه الوسيمة الضاحكة لأول مرة . كان قلقه لا يقل عنى . وأخذنا نتدبر أمورنا .. كيف نتصرف ؟ وبمن نتصل ؟ ومن هو المسئول عنا فى لندن ؟ . لقد كانت العلاقات الدبلوماسية مقطوعة بين وطننا وانجلترا . وكان

المكتب الثقافى المبعوثين . . هو الجهة الوحيدة التى ترعى شئون المصريين ، من طلاب العلم . فهل يسرى اختصاصهم على المبعوثين من طلاب الشفاء ؟

لم نجد بأساً من الاتصال بمكتب البعثات ، فقد نجد فيه من يرشدنا إلى جهة الاختصاص التى ستدفع فواتير هذا المستشفى الفخم . ولما كنا لانعرف عنوانه أو رقم تليفونه ، فقد استدعينا سكرتيرة المستشفى ، وطلبنا منها أن تبحث لنا عن المكتب . وتوصلنا تليفونياً بالمسئولين فيه .

بعد ساعة دخل حجرتى رجل بشوش ، فى نهاية العقد الخامس من عمره ينطق وجهه بالنبل والإنسانية ، قدم نفسه إلينا بقوله :

— الدكتور عبد الحميد البطريق مدير مكتب البعثات فى لندن.

يا فرج الله !! أخيراً وصلت النجدة .

أسرعنا نسأله عن وضعنا . . والخطأ الذى ارتكبه رجال الإسعاف . فطمأننا ضاحكاً بأن هذا هو المكان الصحيح لنزولنا، وأن معظم المصريين يعالجون فيه. ثم قدم لنا شاباً جاء معه بقوله:

— الأستاذ محمد الحارونى الملحق الثقافى بمكتب البعثات . وسوف أعرفكما ببقية أعضاء المكتب فيما بعد . وكلنا فى خدمتكما فى أى وقت وأى طلب .

ووعد بأنه سيتصل بالدكتور كلارك ، وبإدارة المستشفى ، ويقوم بكل الإجراءات اللازمة لراحتنا وعلاجنا . وألح الأخ

الحارونى فى أن نطلب ما نحتاجه ، وأمام كرمه الصادق طلبت « أظرف جوابات » و« بلوك نوتات » خفيفة حتى تحتمل رسائلى أكبر عدد من الصفحات. كذلك طلبت بعض طوابع البريد مؤقتاً حتى أشترى كمية عن طريق المستشفى .

وعندما غادرانا ، كانا قد تركا لكل منا علبة كبيرة من الشكولاتة الفاخرة ، وباقة رائعة من زهور « التيوليب » ، وقدراً كبيراً من الحنان والطمأنينة والأمل ، وأرقام تليفوناتهم فى المكتب والمنزل .

المفاصل الصناعية :

زارنى الدكتور كلارك للمرة الثانية ، ومعه طبيب آخر ، قدمه لى على أنه الدكتور مايسون أستاذ أمراض الروماتيزم ، الذى سيتولى علاجى بالأدوية بجانب العمليات الجراحية . كان الدكتور مايسون أيضاً مرحاً باسماً خفيف الظل ، مما أدهشنى وبدد من ذهنى صورة البرود الإنجليزى المعروف . وإن كنت فيما بعد رأيت هذا البرود بوضوح فى طبقة الممرضات والممرضين . وفرق شاسع جداً بين الأطباء الثلاثة.. كلارك ومايسون وشيرز.. وبين بقية هيئة التمريض وموظفى المستشفى كما سيأتى فيما بعد .

شجعتنى بسمات كلارك ، وتواضعه الجميل ، على أن أتحدث معه فى دقائق العلاج المنتظر . ثم غلبتنى الجرأة فأخرجت له بعض

رسوم لاختراعات أعددتها فى مصر ، وهى تحوى أفكاراً جريئة لمفاصل معدنية صور لى خيالى أنها ممكنة التنفيذ . وهى أفكار نابعة من احتياجى الشخصى لتحريك مفاصل الركبتين والفخذين . وهى مبنية على دراسة دقيقة لعظام الساق والحوض ، إستقيتها من الكتب الطبية .

وقد عرضت هذه الأفكار على بعض الأطباء المصريين ، فكان أكثرهم تهذيباً يبتسم فى إشفاق . لأنها كانت فى الواقع أفكاراً جريئة فى هذا الميدان ، الذى لم يُعرف فيه سوى عملية تغليف رأس عظمة الفخذ بغطاء من المعدن ، أو بغشاء يؤخذ من جسم المريض نفسه . والعملية الأخرى كانت عبارة عن كسر عنق عظمة الفخذ وترك الساق سائبة لا يمكن الارتكاز عليها .

أما الفكرتان اللتان قدمتهما إلى الدكتور كلارك ، فكانت إحداهما عن مفصل محكم للفخذ يعيد الساق إلى قوتها الاولى بحيث يمكن الارتكاز عليها، لأنها تتحرك على كرة معدنية داخل غلاف معدنى ثابت فى الفراغ الحرقفى. أما الفكرة الثانية فكانت لمفصل صناعى له ذراعان يدخلان فى عظمتى الفخذ والساق .

عرضت الأفكار المرسومة على الدكتور كلارك وشرحتها له بلغة إنجليزية سليمة إستقيتها من دراستى للتشريح فى كتب الطب الإنجليزية . وراح الطبيب ينصت فى اهتمام ، ثم قال :

— هل كنت طالب طب قبل مرضك ؟

قلت :

— كلا .. ولكنى أهتم بدراسة مرضى ، وأجمع معلوماتى من كتب أخى الطبيب .

فهز رأسه فى حركة جادة ، وتناول منى الرسوم شاكراً ، ووعدنى بإبلاغى رأيه بعد دراستها .

وفى اليوم التالى زارنى الدكتور كلارك ومعه الدكتور شيرز.. الجراح الأنيق، وقدم لى كتيباً صغيراً مطبوعاً وقال :

— ستجد فى هذا الكتيب نفس المفصل الصناعى للركبة الذى قدمته لى بالأمس . ومخترعه هو الدكتور شيرز . وقد أدهشه أنك توصلت إلى هذه الفكرة رغم أنها غير معروفة فى العالم كله، لأنها مازالت تحت التجربة .

تصفحت الكتيب بسرعة ، بينما هو يشير إلى تفاصيل العملية المصورة بالألوان ، ثم إلى صور تفصيلية للمفصل المعدنى . الذى لم يكن يختلف عن فكرتى إلا فى نقطتين ليستا فى أصل الفكرة . فقد كان الذراعان الداخلان فى نخاع عظمتى الفخذ والساق .. مضلعين على شكل منشور ثلاثى اسطحه مقعرة قليلا إلى الداخل حتى يتكلس حولها العظم وتثبت فى مكانها ، بينما كانت هذه الأذرع أسطوانية فى فكرتى . أما الفارق الثانى فكان المقصود به تسهيل عملية زرع الذراعين فى داخل العظمتين . فلجأ الدكتور شيرز إلى جعل المفصل من قطعتين ، تزرع كل منهما على حدة ،

ثم يجمعهما مسمار «قلاووظ» . وكانت فكرتى تعتبر المفصل قطعة واحدة تتحرك ذراعاها حول محول ثابت .

وهتف الدكتور كلارك :

ـــ ها أنتذا ترى أن المفصلين لا يختلفان إلا فى تفاصيل غير جوهرية :

ثم قال الدكتور شيرز :

ـــ أنا سعيد لأنك فكرت فى هذا المفصل الصناعى ، لأن هذا يجعلك تؤمن بتنفيذ الفكرة . فهناك بعض المرضى لا يجازفون بتطبيق الأفكار الجديدة على أجسامهم .

قلت :

ـــ وهل تعتبر هذه العملية مجازفة تحتمل النجاح والفشل ؟

قال بصراحة تامة :

ـــ نعم .. فهى مازالت تحت التجربة كما ذكرت لك . وأنا أمارسها منذ أربع سنوات ، وقد طورتها كثيراً أثناء هذه الفترة وفقاً لما كان يصادفنى من عقبات وأخطاء .

وأكمل الدكتور كلارك قائلا :

ـــ كذلك يتوقف نجاح العملية على عدة عوامل تتعلق بالمريض نفسه. مثل قوة عضلاته، ودرجة صلابة عظامه ، وروحه المعنوية التى تجعله يجتاز فترة التدريب التى تلى إجراء العملية ..

وقبل أن أصارحه بموافقتى على المجازفة ، قال باسماً :

ــ نحن لا نريد رأيك الآن .. فما زلنا نفكر ، وسنقدم تقريراً مكتوباً إلى الدكتور البطريق . وعليك أن تدرس معه التقرير بعناية قبل أن تدلى برأيك .. وثق أننا على استعداد لتقديم خبرتنا التى قد تساعدك على تحسين وضعك الحالى الذى وصل إلى الرقاد التام . وأعتقد أن أية حركة نوفرها لك مهما كانت ضئيلة ، لاشك ستجعلك أحسن حالا من هذا الوضع الثابت تماماً.

عدت أسأله وقد ارتحت لصراحته :

ــ وما رأيك فى مفصل الفخذ الذى قدمت لك فكرته ؟

قال :

ــ بصراحة هذه فكرة جديدة تماماً تحتاج إلى دراسة طويلة وتجربة .. وإذا لم تمانع فسأحتفظ بهذا الرسم الذى قد تخرج منه يوماً فكرة مفصل صناعى للفخذ .

ثم أردف ضاحكاً :

ــ وأعدك بأن أسميه مفصل الجيار .. كما نسمى مفصل الركبة هذا بمفصل شيرز .. الذى سبقك إلى الفكرة ..

ثم سألته عن زميلى القبانى ، وهل لديه أمل فى مساعدته .

فمط شفتيه قائلا :

ــ لاأعتقد أننا نستطيع أن نقدم إليه أى تحسين فى وضعه الحالى ، فقد درست حالته ، ووجدت أنه يستطيع أن يتحرك

وحده على كرسيه ، ويستطيع أن يخدم نفسه ، ويقود سيارته ، ويؤدى عمله بنجاح فى بلده .. أليس كذلك ؟

— نعم .. إنه أكثر نجاحاً من الأصحاء .

— ولهذا قررنا ألا نجازف بعمليات جراحية قد تجعله يقف منتصب القامة ، ويسير خطوتين بطيئتين ، لكنه لن يستطيع أن يجلس مرتاحاً كما يفعل الآن . وعلى العموم فالأمر متروك له . .

وكان الرد البديهى بعد هذا الشرح أن يقنع الزميل القبانى من الغنيمة بالإياب . بعد لخوض كثيرة إستمرت عدة أسابيع قبل أن يقطعوا برأى حاسم فى مصيره .

تقرير الأطباء :

بعد أيام قدم الدكتور أوزموند كلارك تقريره إلى الدكتور البطريق ، جاء فيه بالنص :

« هذا الرجل الذى عمره ٣٢ عاماً ، يعتبر نموذجاً لحالة عنيفة جداً من الإلتهاب المفصلى المزمن . التى أدت إلى الإلتصاق التام فى عموده الفقرى ، ومفاصل الفخذين ، والركبتين ، والكعبين ، ومعظم مفاصل القدمين ، والكتفين ، والتصاق جزءى فى المرفقين . أما أصابع قدميه ويديه والرسغين فهى فقط المفاصل التى لم تتأثر بالمرض . وقد أصيب بعجز بالغ فى سن مبكرة ، بدرجة تزيد جداً على حالة القبانى .

وقد نجح فى أن يحتفظ بعضلاته فى حالة طيبة بشكل ملحوظ، وهو متلهف على أن نبذل بعض الجهود ، لنمنحه شيئاً من الحركة فى مفاصل ركبتيه وفخذيه ، ورغم أن حالته لايرجى منها الشفاء التام ، فإنى أشعر بصراحة ، أننا قد نستطيع أن نمده بحركة كافية لتسمح له بالسير خطوات قليلة بواسطة عكازين ، وتجعله يستعمل الكرسى المتحرك بمزيد من الراحة .

إننا فى الوقت الحاضر نعمل على تقوية عضلاته بالعلاج الطبيعى لنجعل جلده فى حالة طيبة ، فقد كان شديد الضمور . وسوف يشمل برنامج العلاج أربع عمليات جراحية على الأقل ، وربما عدة عمليات لشد الساقين . وهذا سوف يستغرق وقتاً طويلا. وتستطيع أن تطمئن إلى أن الدكتور ر . م . مايسون زميلى إخصائى الروماتيزم ، وأنا ، وفريقنا المتعاون فى هذا الحقل ، سوف نبذل كل ما فى وسعنا لمساعدة هذين الرجلين الظريفين جداً».

وواضح بالطبع أن المقصود بالجملة الأخيرة هما.. زميلى القبانى وأنا ، وقد كان تقرير القبانى يسبق تقريرى فى نفس الورقة .

هكذا كانت الروح المرحة والصراحة والمجاملة لاتفارق الأطباء الإنجليز حتى فى تقاريرهم الرسمية .

ورغم أن هذا التقرير لم يجىء محققاً لآمالى ، فقد كان يضمن لى الحد الادنى لأملى .. وهو أن أخدم نفسى .. ولو بصعوبة. لهذا

لم أتردد فى الموافقة ، عندما أعطانى الدكتور الطريق التقرير السرى السالف الذكر .. تاركاً لى مطلق الحرية فى الاختيار .

العلاج الطبيعى :

سبق أن بينت ما هية العلاج الطبيعى الذى كنت أعالج به فى القاهرة . . تدليك ، وتمرينات رياضية . وقد تحدثت عن الأخصائى الجاهل الذى حاول أن يكسر عظامى بالقوة وهو يقابل صرخاتى بعبارته الرزينة : « خليها على الله .. وقل يا باسط .. »

لكن طريقة العلاج الطبيعى فى لندن كانت تختلف تماماً عن طريقة الأخ عبد الباسط هذا ! إن الأخصائى هناك يتلقى برنامجاً دراسياً طويلا يكفل له الخبرة الكافية لممارسة عمله .

كان هذا فى سنة ١٩٥٩ ، أما الآن فلدينا أخصائيون فى العلاج الطبيعى من خريجى المعهد العالى للتربية الرياضية ، الذين درسوا هذا العلم على المستوى الجامعى .

كان « المستر هاو » الذى عالجنى فى لندن .. شاباً تخطى الخمسين من عمره ! شاباً فى حيويته ونشاطه وقوته . وهو انجليزى أصيل ، وليس إيرلندياً أو اسكتلندياً أو من ويلز مثل الغالبية العظمى من طاقم التمريض .

كان رقيقاً مهذباً يقضى معى ساعة كاملة فى حركة دائبة ، تلهث

لها أنفاس الشباب . كان مبتسماً دائماً، يعمل فى دأب وضمير يقظ . ينفعل بحرارة وحماس وهو يشجعنى على آداء الحركة المؤلمة ، فلا يسعنى إلا أن أندمج فى التمرينات العنيفة . ثم ترتاح عضلاتى تحت تدليك يديه المدربتين مستخدماً مسحوق التلك، أو زيت الزيتون لتغذية الجلد الضعيف .

كنت فى بداية العلاج أحسد زميل القبانى ، الذى كان من نصيبه فى عملية التدليك أخصائية حسناء . لكن الوضع اختلف عندما جربت لمسات تلك الأخصائية أثناء أجازة مستر هاو ، فحمدت الله على الأيدى الخشنة الماهرة ، خاصة وأنى لم أكن محروماً من الأيادى الناعمة فى ممرضتى مس كانتويل .

ومن وسائل تقوية العضلات ، ذلك الجهاز الكهربائى « الجلفانيك » الذى كان يخرج منه قطبان مكهربان ، يصلهما بقطعة قماش مبللة ملفوفة حول فخذى ، وعندما يصل الدائرة الكهربية ، أشعر بصدمة شديدة تنقبض لها عضلاتى بقوة ، ثم يعزل الدائرة، فترتخى العضلات . وبتكرار العملية تظل العضلات بين انقباض وارتخاء ، حتى أشعر بإجهاد لذيذ وكأنى مشيت مسافة طويلة .

جولة بالسرير:

فوجئت ذات مساء ، برجل يرتدى معطفاً أبيض يدخل حجرتى ، وخلفه الممرضة ، التى قالت لى أنى مطلوب فى قسم

الأشعة لعمل عدة صور لمفاصلي . فسألتها عن « الترولل » الذى سينقلنى إلى هنـــاك ، لكنها أشارت إلى الرجل ذى المعطف الأبيض وقالت :

— المسترجون البواب سيقودك إلى هناك .

وقبل أن أسألها عن وسيلة الإنتقال . رأيت البواب ، يدفع سريرى بأكمله برفق . فيتحرك فى هدوء على عجل من المطاط . وفتحت له الممرضة الباب العريض ، فاجتازه السرير بسهولة . وراح ينساب بين طرقات المستشفى التى اصطفت الورود على جانبيها كأنى أتنزه فى حديقة فيحاء . لكنى عرفت فيما بعد أن تلك الزهور لا تكون موجودة أثناء النهار ، فهى تخص المرضى ، وتظل فى حجراتهم إلى أن تغرب الشمس ، فتخرج الممرضات زهور كل حجرة أمام بابها ، حتى لا يؤذى المرضى ثانى أوكسيد الكربون الذى يخرجه النبات أثناء الليل . . كما هو معروف . وفى الصباح تعاد الزهور إلى أصحابها .

كان سريرى الكبير يتحرك بسهولة كأنه كرسى متحرك ، يدخل المصعد ويرتفع إلى الدور الثامن ، ويقطع الممرات الطويلة فى سرعة وهدوء حتى وصلت إلى قسم الأشعة . حيث أخذت لمفاصلى الصور المطلوبة فى مختلف الأوضاع ، حتى أن المفصل الواحد كانت تلتقط له عدة صور من مختلف الزوايا . وكانت أخصائية الأشعة طبيبة متوسطة العمر ، عاملتنى بمنتهى الرقة والصبر حتى أنجزت

مهمتها . وعدت فوق سريرى إلى حجرتى دون أن أشعر بأى إرهاق أو تعب .

التمريض الانجليزى :

فى اليوم التالى عرفت من الزميل القبانى أن هذه الطبيبة عاملته فى نبل وإنسانية ، حتى أنها ركعت أمامه لتساعده على ارتداء حذائه. ورحنا نقارن فى أسى بين هذه العاملة المتواضعة ، وبين بعض الأوضاع المخجلة التى صادفناها فى المستشفيات المصرية المجانية .

كان هذا فى الأيام الأولى . لكنى اكتشفت فيما بعد النقائص والعيوب فى التمريض الانجليزى ، قد يكون سببها الغباء ، أو جمود العاطفة ، أو الغرور ، أو القذارة الفطرية .

ولكى أكون منصفاً للواقع ، أحب أن أقرر بصراحة أن هناك فرقاً شاسعاً بين الإنجليزى الأصيل ، وبين أبناء وبنات أيرلندا واسكتلندا وويلز . وقد يبدو للوهلة الأولى أنهم جميعاً أبناء الجزر البريطانية ، لكنى لمست كغيرى ، أن هناك فروقاً ملحوظة بين هؤلاء جميعاً .. حتى فى اللغة .. ولا أقول اللهجة فقط .

وإذا كانت الحكومات الإنجليزية لها ميول استعمارية بغيضة ، فإن الشعب الانجليزى فى بلده مشهود له ببعض الصفات الممتازة ، فى مقدمتها النظام فى أروع معانيه ، وأداء الواجب فى أسمى صوره

عن طواعية ودون رقيب ، واحترام كل منهم للكبير والصغير على السواء .

كانت أصغر ممرضة تخاطب أكبر « بروفسور » وهي جالسة دون أى تكلف ، بينما هو يوجه إليها تعليماته فى أدب وتواضع، دون أن يشعر بأى حرج لكبريائه ومكانته . ولا يطلب منها شيئاً إلا مسبوقاً بكلمة « أرجوك » ولا تلبي له طلباً إلا ويتبعه بكلمة شكر رقيقة .

كنت أظن أن الانجليز قوم متعجرفون ، فأضمرت فى نفسى أن أتصدى لتعاليهم وأحطم غرورهم ، وأقارعهم الحجة بالحجة حتى أقنعهم بأننا شعب أرقى منهم ، وأن أعرق حضارة عرفها التاريخ نبتت على ضفاف النيل منذ خمسة آلاف سنة ، بينما كان الإنجليز ما زالوا يعيشون فى كهوف جزيرتهم الصخرية الجرداء .

لكن تحفزى لصدهم ما لبث أن تلاشى أمام مقابلاتهم الودية المهذبة . خاصة من الأطباء ورئيسة الممرضات « سستر رايس » و « المستر هاو » أخصائى التدليك ، و« المستر بيتر » الممرض . والعجيب أنى اكتشفت فيما بعد أن هؤلاء فقط هم الإنجليز الأصليون . أما الباقون من الممرضات والتمورجيات فمعظمهن مستوردات من أستراليا وجنوب أفريقيا وفرنسا وهولندا وجامايكا وغيرها .

أذكر أن الدكتور مايسون كان يزورنى يوماً أثناء وجود

أحد الإخوة العرب فى حجرتى . وكان الأخ العربى ثائراً فى حديثه السياسى الذى تناول الإنجليز بالتجريح القاسى . فلم يقابله الدكتور مايسون إلا بابتسامة متسامحة . وبعد انصراف الأخ العربى حاولت أن أعتذر للدكتور مايسون عن هجوم صاحبنا ، فقال مبتسماً :

— لا عليك . . يبدو أنه عصبى قليلا .

رغم أن المس كانتويل ممرضة القسم لم تتغير طوال فترة إقامتى فى المستشفى ، إلا أنه توافد على خدمتى بعد العمليات الجراحية أكثر من عشرة ممرضين وممرضات خصوصيين ، يلازموننى طوال الأربع والعشرين ساعة فى نوبات متتالية . وكانوا من جنسيات مختلفة أتاحت لى دراسة شخصياتهم عن كثب .

كانت المس كانتويل أيرلندية طيبة القلب ، لكنها تتمتع بقسط كبير من الغباء والغرور التقليدى فى هذه الطبقة . مما جعلنى أحتك بها أكثر من مرة خاصة فى بداية اقامتى بالمستشفى .

الواقع أن قيودى القاسية تجعل خدمتى أمراً عسيراً على المبتدىء ، خاصة إذا لم يكن متمتعاً بنصيب كبير من الإنسانية . ولا أريد أن أظلم المس كانتويل فأقارنها بالأخت نعمات التى تلبى طلباتى بمجرد الإشارة والتلميح . لكنى كذلك لا أظلم كانتويل إذا وصفتها بالغباء والغرور .

طلبت منها بعد وصولى لندن بأيام أن تغسل لى شعر رأسى . فقالت فى غير مبالاة :

— أطلب هذا من الحلاق . فانه ليس من واجبى .

دهشت من إجابتها ولم أصدقها . وقلت مهدداً :

— هل أسأل الرئيسة إذا ما كان هذا من اختصاصك أم لا؟

فتراجعت على الفور وقالت فى ضيق :

— وهو كذلك . . سأغسل لك شعرك . . ولكن بعد الظهر حيث يهدأ العمل قليلا . .

لم أمانع أمام عذرها المعقول . وفى الموعد المحدد ذكرتها بوعدها ، فأقبلت تؤدى مهمتها فى « لهوجة » وإهمال . كان عليها أن تدير جسمى بعرض السرير حتى يبرز رأسى من الطرف الآخر ، فتتمكن من غسل شعرى بسهولة فوق آنية كبيرة . وبما أن أصابعى لا تصل إلى مستوى شعرى فقد أسلمت لها رأسى مطمئنا.

وإذ بى أفاجأ بماء مغلى ينصب فوق جلد رأسى ، فصرخت من الألم وطالبتها بتبريد المياه الساخنة . فأسرعت إلى الحوض وعادت بعد لحظة لتسكب على رأسى ماء مثلجاً ، فصرخت مرة ثانية. وأخيراً عادت فى المرة الثالثة بماء دافىء . . لكن ليت الأمر انتهى عند هذا الحد .

كنت مصاباً بقشر فى فروة الرأس ، مما يجعلنى أميل إلى حكها باستمرار ، وبما أن يدى لا تصل إلى شعرى كما ذكرت ، فقد كنت أتحمل مضايقة القشر حتى يحين موعد غسل رأسى ، وأحكها جيداً بأصابع نعمات ، التى أوجهها حسب حاجتى . . فوق . . تحت . .

شمال . . يمين . . وهكذا . وعندما بدأت هذه الاسطوانة التلقائية مع الممرضة كانتويل ، إذ بها تتوقف عن الحركة وتهتف فى غضب :

— الممرضة هنا تعرف عملها جيداً .. ولا تحب أن تتلق أوامر من المرضى .

كظمت غيظى ، وحاولت أن أفهمها فى هدوء أنى أنا الذى أشعر بالحكة التى تضايقنى بسبب القشر . فأغلقت أذنيها فى عناد غبى ؛ وأصرت على أن تتصرف كما تشاء ودون توجيه .

لم أتمالك نفسى ، فصرخت فيها ثائراً :

— بل أنت هنا لخدمتى .

واستعملت دون قصد كلمة « Serve » وهى المعنى الحرفى لكلمة « يخدم » لكنها تركت رأسى يغمرها الصابون ، ووقفت تلقى على محاضرة فى أدب الحديث ، فقالت :

— ليس من حقك أن تقول . . . « أخدمك » .. فأنا لست خادمة . .

— وماذا أقول إذن ؟

— تقول : انت هنا للعناية بى . . « look after me » .

وكان يجلس معى الأخ القبانى ، الذى كان يشاهد المعركة محايداً ، لكنه لم يستطع أن يكبت غيظه بعد هذه المحاضرة ، فانفجر فيها منتقداً برودها وعنادها وتزمتها فى تطبيق آداب اللغة مع الأجانب ، ثم قال :

ـ ألا يكفى أننا نتفاهم معكم بلغتكم بينما أنتم لا تعرفون غير الإنجليزية ؟

وقبل أن تنجلى المعركة ، زارنى أحد الأطباء المصريين الذين كانوا يزورون لندن فى ذلك الوقت ، وهو الدكتورسعدالدرس أستاذ أمراض السرطان بجامعة القاهرة ، وما كاد يعلم بتفاصيل ماحدث ، حتى أعطاها درساً قاسياً فى كيفية العناية بالمريض ، ثم ذهب يشكوها إلى الرئيسة التى أنبتها بشدة .

بعد قليل جاءت الممرضة تتمسح فى حجرتى محاولة استرضائى ، فتقدمت من الدولاب حيث كنت أحتفظ بعلب الشكولاتة ، التى تناولنى إياها من وقت لآخر . وقالت وهى تشير إلى العلبة مبتسمة

ـ هل تمانع فى أن آخذ قطعة من الشكولاتة ؟

قلت دون أن ألتفت نحوها :

ـ خذى ماتشائين .

وكعادتها من وقت لآخر ، أسرعت تلتهم قطعة الحلوى وهى تتلفت نحو الباب خوفاً من أن تفاجئها الرئيسة . ثم اقتربت من سريرى ، وكنت منهمكاً فى الكتابة ، وسألتنى :

ـ أما زلت غاضباً منى . . ؟

ـ . . . .

ـ أنا آسفة . . لم أقصد إيلامك .

ـ حصل خير . .

ـ ماذا تكتب . . ؟ رسالة ؟

ــ نعم .

ــ لمن ؟

ــ لأهلى وممرضتى الخاصة فى مصر . .

ــ وماذا تقول لهم ؟

ــ أقول لهم أنى حزين على الأيام التى أقضيها هنا . . وأكرر الشكر لممرضتى المصرية على اهتمامها ورعايتها لى إحدى عشرة سنة ، خاصة بعدما لمست التمريض الإنجليزى على حقيقته .

قالت بانزعاج :

ــ لا لا . . لا يصح أن تكتب هذا . . هل كانت ترعاك أحسن منى ؟

ــ أوه . . بمراحل . . على الأقل كانت تنفذ طلباتى ، ولا تسلخ جلدى بالماء الساخن تارة ثم تعود فتغرقها بالماء المثلج .

قالت وهى تربت على ذراعى :

ــ أوه . . أكرر أسفى . . يجب أن تنسى هذه الحكاية . . أرجوك .

ثم انحنت ، وطبعت على جبينى قبلة بريئة خاطفة . . ثم قالت :

ــ ألا تبتسم الآن ؟

ولم يسعنى إلا أن أبتسم . وفى الواقع أن هذه الممرضة بالذات لم تكن شريرة ، ولكن غباءها كان يصطدم أحياناً بكرامتى عندما أحتاج إلى خدمة بسيطة فتؤديها باستهتار أو تتلكأ فى قضائها . وأشد ما كان يضايقنى وينكأ جراحى : أن أضغط على الجرس

فلا تجيئنى الممرضة قبل ربع ساعة أو أكثر . ويزداد إحساسى بالهوان إذا كانت حاجتى الملحة تتعلق بأمعائى .

ولعل احتياجى لخدمة الغير فى كل صغيرة وكبيرة هو الذى أشعرنى بذلك التقصير والإهمال . ولعل تدليل نعمات لى فى مصر جعلنى أجسم أخطاء الممرضات الإنجليزيات .

ومن نوادر الغباء ، قصة ذلك الممرض الإنجليزى الذى كان يشرف على خدمتى فى الفترة الأخيرة . وكان مؤهلاً كغيره ممن يمارسون هذه المهنة ، التى أمضى فيها حوالى خمسة عشر عاما .. وكان منوطاً به أن يحقننى بنوع خاص من الدواء معبأ فى زجاجة كبيرة ، عليه أن يسحب منها كل مرة قدراً معيناً بالإبرة . وهذا النوع من الزجاجات معروف للجميع مثل زجاجات « البنسلين » . وعلى الشخص فى بداية استعمال الزجاجة أن ينزع جزءاً مستديراً من غطائها المعدنى بطرف ظفره . لذلك دهشت عندما رأيت الممرض منهمكا فى معالجة الزجاجة بنصل مطواة كبيرة . وكلما سألته عما يفعل ، أمهلنى حتى يعالج غطاء الزجاجة ... وأخيراً أطلق صيحة منتصرة بعد أن أنهى مهمته . لكنى صعقت عندما رأيته قد نزع الغلاف المعدنى المحكم كله .. مع أن الأمر لا يحتاج إلى كل هذا العناء ، بل إن نزع الغطاء كله يعرض الزجاجة للتلوث .

أليس هذا مثالا صارخاً للغباء ؟

أما القذارة فكانت تتجلى فى عملية تنظيف الفوط بطريقة

تثير التقزز . ومن عادة الإنجليز أن يسدوا بالوعة حوض الغسيل بالسدادة المعدنية . ثم يملأونه بالماء ويغسلون فيه الفوط وأيديهم الملوثة ، وقد يغسلون فيه وجوههم ، ويمضمضون أفواههم !! لهذا كنت أحرص على أن أكون حذراً دائماً لتصرفاتهم المقرفة .

وفكرة الحوض هذه صورة مصغرة «للبانيو» الذى ينزلون فى مائه الراكد بقذارتهم ، ولا يستعملون الماء الجارى . فإذا عرفنا أن دورات المياه فى أفخر البيوت والمستشفيات ليست بها صنابير للمياه ، أدركنا إلى أى مدى تتلوث مياه « البانيو » التى توزع القذارة على باقى أجسامهم بالعدل والقسطاس .

وقد سمعت من المصريين فى لندن أنهم لا يدخلون دورات المياه إلا ومعهم زجاجة كوكا كولا يستعملونها بدلا من الماء . وإذا عرفنا أن الإنجليز يحتفظون بشعر أجسامهم كاملا ، أمكننا أن نتخيل صورة بشعة لمياه « البانيو » الراكدة ! .

كانت الممرضة تبدو من بعيد نظيفة ناصعة ، فإذا ما اقتربت منى وطوقتنى بذراعها لتمسح ظهرى بالكحول ، أضطر إلى كتم أنفاسى حتى لا يغمى علىَّ من رائحة إبطيها ! !

أما ما كان يثير غثيانى حقاً ، فهو استهتار الممرضة وهى تقشر التفاحة أو الخوخة ، دون أن تغسل يديها من آثار المبولة . . أو القصرية ! ! ساعتها كنت أكره التفـــاح والخوخ وفاكهة الأرض كلها .

لاحظت يوماً أن أظافر الممرض طويلة متسخة بشكل يثير التقزز ، خاصة وهو يناولني الطعام ويقطع لى الفاكهة بيديه الكريمتين . طلبت منه برفق أن يقص أظافره . فوعدني بذلك لكنه لم يبر بوعده . وكان هذا الممرض مكلفاً بملازمتى طول الوقت ، فسألته ذات يوم :

— قل لى يامستر سميث ..

— نعم ..

— هل أنت مستعد لتلبية أى طلب أحتاجه منك ؟

قال بحماس :

— طبعاً .. هذا واجبى ..

— حسناً .. هل تسمح بأن تناولنى المقص الصغير الذى بحقيبتى ؟

فقام فوراً وأحضر المقص وهو يبتسم فى رضا وارتياح .

عدت أسأله :

— إن المهمة التى أحتاجها منك لاتحتاج إلى أكثر من عشر دقائق فهل تمنحنى إياها ؟

— طبعاً .. بكل ترحيب.. هل تريد أن أقص لك أظافرك ؟

— كلا . بل أريدك أن تقص أظافر يديك أنت .

فارتبك فى خجل ، وقال :

— الواقع أنى لا أحسن تقليم أظافرى بالمقص .

- وبماذا تقصها إذن ؟

- بالموس

فأعطيته إحدى شفرات الحلاقة ، ورحت أراقبه وهو يقشر أظافره فتتناثر إلى شظايا رفيعة كأنه يبرى قلماً . وبالطبع كان منظرها مشوهاً خشناً ، لكنها صارت نظيفة على أى حال .

فلقونى الانجليز:

من الإنصاف أن أعترف بأن الإنجليز قوم مهذبون يحترم كل منهم الآخر ، وينتظر أن يعامله بالمثل .. و .. وهناك كلمتان لايمل الإنجليز من ترديدهما وسماعهما :

أرجوك ... ومتشكر

لا أحد ينكر أن الأدب شيء مطلوب، والذوق أمر واجب ولكن إذا زاد الشيء عن حده . . . يفلق .

إذا سعل أحدهم يقول لمن حوله « آسف ». وإذا خرج من المصعد فيجب أن يقول للعامل : «متشكر» . تتناول الممرضة منى « المبولة » وتقول : «أشكرك» وكأنى أقدم لها كأساً من الويسكى!

وويل لى إذا نسيت المعاملة بالمثل ، فقد يدفعنى الألم المفاجىء أحياناً إلى أن أصيح : « حاسبى على رجلى »

فتتوقف الممرضة التى كادت تخلع ساقى ، وتقول بكل برود:

— قل . . من فضلك !

وإنقاذاً لساقى من الألم، أضغط على أسنانى من الغيظ وأقول :

ـــ من فضلك ..

وإذا دفعنى العناد والغضب إلى إغفال واجب الشكر بعد هذه « العلقة » ، وقفت تلقى علىّ محاضرة فى آداب الحديث . وإنقاذاً لأعصابى أشكرها مرتين .. واحدة على كسر ساقى ، وأخرى على المحاضرة السخيفة .

ممرضة أخرى سألتنى ذات يوم ، وكان أمامى على المنضدة كوب من اللبن وآخر من الماء :

ـــ هل تحب أن أناولك الماء أم اللبن ؟

قلت :

ـــ الماء ..

فتوقفت يدها فى منتصف الطريق ، وقالت فى برود :

ـــ يجب أن تقول : الماء من فضلك ..

كنت لحظتها أكاد أنفجر من الألم النفسى والجسدى ، فلم أحتمل هذا التزمت ، وقلت معترضاً :

ـــ أنا لم أطلب منك شيئاً .. وإنما أجبت على سؤالك .

ـــ لكنى سأقدم لك خدمة ...

ـــ هذه ليست خدمة .. بل واجب . ثم أنك بدأت بالعرض دون أن أطلب منك ماء أو لبناً ...

وعادت تجادل فى صفاقة :

— ولو .. يجب أن توافق على العرض بطريقة مهذبة .

ولم أطق صبراً ، فصرخت فيها يائساً :

— كفى .. لاأريد شيئاً .. أتركينى وحدى .. أرجوك ..

فخرجت .. ولو لم أقل « أرجوك » .. لما فعلت !.

هذه أمثلة من التدقيق الممل السخيف ، ولكنها طريقتهم التى يتعاملون بها . ولما كنت غير مكلف بتعليم أبناء التيمز البساطة والتسامح ، فقد بدأت أتعلم كيف أردد كلمات الشكر والرجاء .. حتى صارت عادة ملازمة لى .. هناك .

أذكر أنى كنت أكتب ذات مرة ، وانطلقت يدى بسرعة وأنا ذاهل عما حولى . وفجأة انكسر سن القلم الرصاص، فصحت بلا وعى : « آسف » ورحت أتلفت حولى فى الغرفة الفارغة وأنا أضحك من الأدب المفاجىء الذى اجتاحنى .!

ويقول الدكتور عبده عزام الأستاذ المصرى المعار لجامعة مانشستر فى هذا المجال :

— إذا سألك « الجرسون » مثلا عن طلب ، فلا يجوز أن تقول لا .. أو نعم فقط .. بل يجب أن تقول مبتسماً .. « لا .. متشكر » أو « نعم .. أرجوك .. » .

شىء يقلق ..!

جمود العاطفة :

ومن أشنع عيوب الإنجليز . . برود العاطفة . ويتجسم هذا العيب إذا اتصفت به ممرضة . . المفروض فيها أن تمنح الحنان قبل الدواء .

حقاً إن الممرضين الإنجليز لا يهملون واجبهم ، ولا يتأخرون دقيقة عن موعد العمل . لكنهم كذلك لا يتأخرون دقيقة عن موعد الانصراف ، أو موعد تناول الشاى فى العاشرة صباحاً . . والرابعة بعد الظهر .

أذكر يوما أن كان الألم يمزق ساقى بعد العملية . ولا يهدأ إلا بحقنة مخدرة . وفى ذلك اليوم ظللت أرقب عقرب الساعة حتى يحين موعد الحقنة المخدرة بعد ما وصل الألم إلى قمته . ولم يكن من الممكن تعاطيها قبل موعدها مهما حدث. وأخيراً نبهت الممرضة إلى أن موعد الحقنة سيحين بعد خمس دقائق . ورجوتها أن تعدها قبل انصرافها لتتناول الشاى ، لأنى لا أطيق انتظار عودتها تحت سياط الألم الرهيب .

فتطلعت إلى ساعتها فى برود ، وقالت :

ـ متأسفة . . لقد حان موعد تناول الشاى فعلا . . وعليك أن تنتظر عودتى .. أنا الآن فى وقت راحتى .

وغادت الحجرة فى هدوء، بينما كدت أبكى من الألم والقهر.

* * *

كثيراً ما تناقشت مع الزميل القبانى حول التمريض الانجليزى، ولا أقول الأطباء.. فهؤلاء لم نختلف فى الحكم عليهم. وكان القبانى محظوظاً بممرضته النشيطة «مس بيربريدج» وهى إنجليزية صميمة تؤدى عملها فى ذكاء وأمانة ودقة، كذلك كان الزميل القبانى متأثراً بالروح الإنسانية الرائعة التى جعلت طبيبة الأشعة تركع أمامه لتلبسه الحذاء..

ومع الأيام اصطدم القبانى مع إحدى الممرضات، التى تعالت على مساعدته فى صنع فنجان من القهوة. ثم صدمه تصرف سخيف من ممرضته الإنجليزية «مس بيربريدج» جعله يؤمن معى بأن البرود وجمود العاطفة صفات أصيلة فى نفوس الانجليز..

وفى هذا يقول الزميل القبانى فى صفحة ١٩١ من كتابه «خمسين يوماً فى لندن».

«ولكى أكون أميناً مع نفسى ومع القراء، أقول أننى قبل مغادرتى للمستشفى، لاحظت حقيقة لعلها ترجح رأى صديق الزميل صبحى. لاحظت أن الممرضات، حتى ممرضتى الخاصة التى كنت أعتبرها أنموذجاً للكفاءة والبراعة، لا يهتممن بأمر أى مريض إذا حانت ساعة أو لحظة إنصرافها من العمل، وكانت الواحدة منهن فى وقت العمل تسرع وتعرض علىّ مساعدتها إذا

رأتنى أمضى فى الدهليز دافعاً مقعدى المتحرك بقدمى . فكنت أشكرها وأعتذر عن قبول مساعدتها . أو أتركها تساعدنى إذا كنت متعبا .

أما ممرضتى الخاصة المس بيربريدج فكانت تصر على دفع مقعدى بنفسها إذا التقت بى ماضياً فى الدهليز .

إلى هنا والأمر طبيعى ، ولكننى لاحظت أكثر من مرة أن الواحدة منهن حتى المس بيربريدج ، كانت تنظر إلىّ وكأنها لا تعرفنى ، أو كأنما لم ترنى من قبل ، وأنا أمضى بمقعدى المتحرك رغم ما قد يكون بادياً علىّ من تعب ، وذلك حينما تكون هى فى طريقها إلى الإنصراف بعد فراغها من العمل مرتدية سترتها الحمراء » .

إلى هنا تنتهى كلمات الزميل القبانى .

ومن المؤكد أن برود المشاعر الإنسانية صفة راسخة .. تجرى فى دماء الإنجليز ، ولم تكن تصرفاتهم متعمدة ضدنا .

الروابط البشرية :

شيء ما فى مجتمعنا الشرقى يصبغه بروح التآلف والتآخى والتعاطف ، بصورة لا تلمسها إطلاقاً فى المجتمع الإنجليزى الإنفصالى ، الذى يفتقر إلى الترابط العائلى .

فالشاب أو الفتاة ما يكاد يعتمد كل منهم على نفسه مادياً ، حتى ينفصل عن عائلته ، ويعيش بمفرده . وإذا كان الاعتماد على النفس

صفة هامة لبناء الشخصية ، فإنه يتخذ عند الإنجليز مظهراً خطيراً ، يجعل حياتهم جافة قلقة . فهم يتصرفون كآلات متحركة معدومة العواطف ، تدأب على استخلاص حقها فى الحياة . . فى أنانية وبرود .

حدثنى شاب مصرى كان يدرس هناك فى إحدى الجامعات ، ويقيم فى « بانسيون » لدى سيدة عجوز . حدثنى هذا الشاب عن الحياة الإنفصالية بين نزلاء « البانسيون » وكيف أنهم لا يتبادلون حتى مجرد التحية . وحكى لى بمرارة كيف أنه شعر ذات ليلة بمغص حاد ، فلم يتطوع أحد باستدعاء الطبيب أو بإعداد قدح من الشاى ، أو حتى اكتفى بالمواساة والمشاركة الوجدانية .

ومن الظواهر المألوفة أن تنفصل فتاة غير متزوجة عن أسرتها فى حياة منعزلة . . رغم إقامتها فى نفس المدينة ، وإذا لم تسمح ظروفها الحتمية بالانفصال الكلى ، فلا أقل من أن تتكفل بنفسها مادياً . . وإن إتحد المسكن . ومعظم الآباء والأمهات ينفضون أيديهم من أعباء أبنائهم فى سن مبكرة .

ويرد الأبناء الأنانية مضاعفة فى كهولة الوالدين . فهم ليسوا مسئولين عن أحدهما أو كليهما فى شيخوخته . ومن المألوف ، بل الشائع جداً أن ترى شيوخاً مسنين فى وظائف الخدم بالمستشفيات أو الباعة بالمحال التجارية ، يواصلون كفاحهم المرير مع لقمة العيش حتى يمنحهم القبر الراحة الأبدية .

حلاق المستشفى كهل تخطى الستين . يجاهد فى السيطرة على

رعشات أصابعه، حتى يتحكم فى المقص والموسى فلا يفقد مورد رزقه.

سألته فى اشفاق :

— هل أنت متزوج ؟

قال فى أسى :

— لقد توفيت زوجتى منذ سنوات طويلة .

— وهل لك أبناء ؟

— ستة .

— ولماذا ترهق نفسك بالعمل . . ؟

هز رأسه فى أسف ، وراح يثرثر منفساً عن نفسه كبت الأيام. وعرفت أنهم يعملون جميعاً ، ويستقلون عنه فى حيواتهم الخاصة، ولا يفكر أحدهم فى التكفل بأبيه أو السكنى معه لخدمته ورعايته.

سألته متردداً :

— وماذا بعد أن . . . ؟

فأدرك هدفى ، وأراحنى من حرج السؤال ، بأن طوح رأسه فى استهتار وقال :

— فى ملاجىء العجزة متسع للجميع .

كنت أرى حولى ذلك الجمود العاطفى ، وأقارنه بأحاسيسنا الشرقية الجياشة . وتذكرت التفاف أهلى والمواطنين حولى قبل سفرى ، من أعرفه ومن لا أعرفه . . كلهم يعرض قلبه وخدماته فى سخاء وحب وكرم . . وحمدت الله أنى لم أنشأ فى إحدى هذه

الدوامات البشرية ، وإلا كان نصيبي ركناً منعـــزلا فى أحد المستشفيات أو الملاجىء .

اللغة . . واللهجة :

منذ طفولتى أحب اللغات الأجنبية . فقد كنت أسمع والدتى وأخواتى البنات يتكلمن الفرنسية بطلاقة ، فأغار منهن وأغتاظ ، لأنى لا أفهم موضوع الحديث . ومع الوقت استطعت أن التقط منهن بعض الكلمات ، وكذلك تمرنت أذنى على النطق الصحيح ، مما أفادنى فى تعلم الفرنسية فى المرحلة الثانوية .

أما اللغة الإنجليزية ، فقد ازداد شغفى بها عندما كنت أسمع أستاذ اللغة الإنجليزية محمود سامى حافظ ينطقها بطلاقة وبلهجة صحيحة .

وعندما بدأت قراءاتى الأجنبية، وجدت فى اللغة الإنجليزية جسراً سهلا أعبر منه إلى الثقافات والحضارات العالمية ، ليست حضارة الإنجليز فقط أو الأمريكان ، ولكن كل مايترجم إلى الإنجليزية من مختلف اللغات .

والواقع أن قراءاتى الخاصة لم تكن تتيح لى النطق السليم ، رغم كثرة ماقرأت وترجمت وبحثت بين صفحات المعــاجم والقواميس . لأنى لم أجد فى عالمى المغلق . . من أتحدث معه باللغة الانجليزية ، حتى أتدرب على استحضار الكلمة المناسبة بسرعة

التفكير . ورغم أن أخى يجيد الإنجليزية لأن دراسة الطب بهذه اللغة ، إلا أنه كان ينطقها مثلى باللهجة المصرية ، لأنه يخجل من محاولة النطق الصحيح حتى لا يتهم بالغرور «وعوجة» اللسان !

وقبل أن أسافر بشهور ، تعرفت ضمن أفواج الأصدقاء الجدد ، بأكثر من صديقة من خريجات المدارس الإنجليزية ، فكن يبهرننى بنطقها فى طلاقة ولهجة سليمة . وانتهزت الفرصة ودربت لسانى على الحديث محاولا تقليد اللهجة السليمة بقدر الإمكان . ورغم أنى كنت أخجل - مثل أخى - من «عوجة اللسان» إلا أنى لم أجد حرجاً بالطبع أثناء حديثى مع هؤلاء الصديقات من حيث اللهجة ، وإن كنت أتعلثم قليلا عندما لا تسعفنى الكلمات مما لا يليق بأديب يمارس الترجمة .

أما فى لندن فالأمر مختلف تماماً ، فالمفروض أنى غريب ، ولست مطالباً بمخاطبتهم بأسلوب شيكسبير . أما اللهجة فكنت أجد متعة كبرى حينما أقلدها بإتقان . ومن حسن الحظ أنى وجدتهم — ومعظمهم مثقفون — يتكلمون اللغة الفصحى ، وليست العامية الدارجة . لكنهم كانوا يضغون أواخر الكلمات مثل Morning التى لا ينطق فيها حرف «g» كذلك حرف «r» ينطق مخففاً جداً حتى لا تكاد تميزه الأذن . وحرف «o» ينطق مخففاً أيضاً بحيث تبدو أقرب إلى حرف «a» .. وهكذا ..

وتساءلت فى عجب : «لماذا فشلت المدارس المصرية فى تعليمنا

اللهجة الصحيحة ؟ ولماذا نجحت المدارس الأجنبية فى تلقين طلابها اللغة على أصولها بحيث ينطقونها كأربابها ؟ رغم أن الطلبة فى الحالتين مصريون » ؟

الواقع أن اللوم فى هذا يقع على عاتق المدرسين ، أو معظمهم ، وهذه الأغلبية تفسد جهود الأقلية . ومن واجب وزارة التربية أن تختبر مدرسى اللغات فى النطق قبل تعيينهم ، ولا يكفى أنهم تخرجوا من قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب . فقد سمعت بعضهم ينطقون الإنجليزية بلهجة مضحكة . . بل مخجلة !

كنت أطلب من المحيطين بى فى لندن أن يصححوا لى النطق حين أخطىء . خاصة مستر هاو أخصائى العلاج الطبيعى ، الذى كنت أنتهز الساعة التى يقضيها معى يومياً لأتحدث معه طول الوقت وأستشيره فيما استغلق علىّ فهمه . وكان المستر هاو على درجة عالية من الثقافة ، وأفدت منه كثيراً .

والواقع — بلا فخر أو مبالغة — أن اللسان العربى قادر على نطق أية لغة فى بساطة ويسر ، حتى بعض الحروف المتحركة فى اللغة الفرنسية ، التى تحتاج إلى ضم الشفاة بصورة خاصة مثل الـ « e » و « u » رغم أن هذين الحرفين ليس لهما نظير فى اللغة العربية .

ومن المضحك أن الإنجليز يعجزون تماماً عن نطق هذين الحرفين ، رغم أن الإنجليز والفرنسيين أبناء عمومة ، ولغتاهما مأخوذتان عن أصل واحد .

ومن الحروف العربية التى يعجز الإنجليز عن نطقها الـ « ح ، خ ، ع ، غ » . وكان مستر هاو يقوم بمحاولات مضحكة « لنطقها فيعجز تماماً . والعجيب أن حرف الـ « خ » ينطق فى هولندا وألمانيا وأسبانيا ، وهى بلاد قريبة جداً من انجلترا وفرنسا . .

كان « لندن كلينيك » أقرب إلى الفندق العالمى ، منه إلى المستشفى . وكان يجمع أجناساً عديدة من شعوب الأرض ، كنت أقابلهم فى حديقة السطح « الروف جاردن » عندما أخرج إليها فوق سريرى ، وهناك كنا نقطع الساعات الطويلة المملة فى أحاديث شتى .

خطرت لى فكرة طريفة . وهى أن أتعلم شيئاً من لغاتهم . لكن الوقت لم يكن يتسع لتعلم هذه اللغات ، فقررت أن أختار جملة واحدة على الأقل ، وأتقنها بعدة لغات . فكنت كلما عثرت على شخص ينتمى إلى جنسية غريبة ، أسأله من معنى هذه الجملة . . مع بعض التعبيرات الشائعة . .

ومن نزلاء « لندن كلينيك » استطعت أن أنطق ثلاث عشرة لغة هى : الإيطالية ، الأسبانية ، الإيرلندية ، الألمانية ، الهولندية ، الروسية ، اليونانية ، الصينية ، الإيرانية ، الأوردية « باكستان » ، التركية ، الأرمنية ، اليوجوسلافية .

هذا بجانب العربية والإنجليزية والفرنسية والنوبية . . وكنت أعرفها من قبل .

بقى أن تعرف — ياأخى القارىء — أن هذه الجملة هى « أنا أحبك » .

* * *

وكان من مصادرى الرئيسية فى اللغة الإنجليزية هناك ، شاب عربى يدعى ابراهيم أباظة . وهو فلسطينى ، كان يقيم فى لندن منذ ثمانى سنوات ، ويعمل مستشاراً قضائياً بإحدى الشركات . وهو مثال للعربى المتفتح المتحمس الثائر ، غزير الإطلاع ، يتقن الإنجليزية كما يتقن العربية وآدابها ، وله بحوث فى كلتيهما .

وقد كان لتعرفى بالأخ ابراهيم هذا قصة طريفة . لقد بادرنا بالزيارة — القبانى وأنا — بعد وصولنا بيومين . وفوجئنا به يقدم نفسه إلينا على أنه أخ فلسطينى . ولاحظت أن ملامحه ليست عربية فهو أبيض البشرة ، رقيق الشفاة ، معقوف الأنف ، شعره ناعم فاحم . وتبدو عيناه الضيقتان من خلف نظارته لتكملا الشكل التقليدى لليهودى الصميم .

كنا حساسين للغرباء ، فقد زارنا قبله صحفى إنجليزى ، حاول تصويرنا ، واستدرجنا فى الحديث ظاناً أننا من الضباط المصريين . فرفضنا أن نتحدث إليه بعد أن عرفنا أنه من جريدة معادية لسياستنا التحررية .

ولما فاجأنا الأخ إبراهيم أباظة بالزيارة ، عاملناه بحذر ، خاصة بعدما راح يغدق علينا الهدايا والزهور ، ويتطوع لخدمتنا ، ولم

نأمن إليه إلا بعدما رآه الدكتور البطريق عندى ، وأكد لنا أنه من أنشط الشباب المتحمس للقومية العربية .

قومية عربية :

كانت القومية العربية تحتل جزءاً كبيراً من هذا المستشفى الكبير الذى يشبه برج بابل . وكانت معظم البلاد العربية ممثلة فى المستشفى بواحد أو أكثر من مرضاها ، ولم يكن عسيراً أن نحس بأى وافد عربى جديد ، فنسارع بالاتصال به وندعوه إلى غرفتى إذا كان يستطيع الحركة ، أو أتصل به تليفونياً فى حجرته وأرحب بمقدمه .

وكان الحلاق ، ومستر هاو يطلبان منى أعلمهما بعض الألفاظ العربية التى تلزمهما فى آداء مهمتهما ، إذ كان بعض المرضى العرب يعجزون تماماً عن التفاهم بأية لغة أجنبية .

ومن هؤلاء رجل من اليمن ، كان يعمل جلاداً لدى الإمام المخلوع . ولم تتح لى فرصة لمقابلته ، فقد كان مرضه يستدعى رقادة فى السرير بعد عملية كبيرة فى الكلى . وذات يوم جاءنى المستر هاو مرتبكاً ، ورجانى أن أتصل بحجرة ذلك المريض اليمنى ، وأتفاهم معه بخصوص بعض النقط التى تتعلق بعلاجه . لأن المستر هاو لم يفهم منه شيئاً .

سارعت أتصل بحجرته ، فرد على صوت أجش ، قرأته السلام بالعربية الفصحى ، فرد السلام فى لهجة سريعة ممضوغة . حاولت

أن أقدم له نفسي بأني أخ عربي مكلف بتبليغه رسالة من أخصائي العلاج الطبيعي . لكنه لم يفهم حديثي رغم أني تعمدت أن أتكلم بالفصحى . فأعدت حديثي باللهجة الشامية .. فلم يفهم . فأعدت الحديث باللهجة السودانية، لعل الجوار الجغرافي قرب بين اللهجتين، فلم يفهم شيئاً . ارتبكت أمام المستر هاو ، الذي فهم من لهجتي وملامح وجهي أني لن أفيده بشيء ، فأعفاني من المهمة . وأنهيت المكالمة التليفونية بعد عذاب دون أن أفهم منه غير كلمتين .. « سلام سيدي » .

لعل جدار الجهل والتخلف هو الذي عاقني عن التفاهم مع هذا الأخ العربي . أما المثقفون العرب ، وما أكثرهم في لندن ، فكنت أتفاهم معهم بمنتهى السهولة ، وبلهجاتهم المحلية .. سواء كان عراقياً ، أو سورياً، أو سودانياً، أو ليبياً .

وأذكر أني سمعت ذات مساء بعض الشبان يرددون أغنية لفريد الأطرش ، فأسرعت أطلب الممرضة ، ورجوتها أن تنادي لي هؤلاء الذين يغنون في ردهة المستشفى .

إن المغترب يتلهف على كلمة تلتقطها أذنه بلغة بلاده .

بعد لحظات دخل حجرتي ثلاثة شبان مرحين ، فاستقبلتهم مرحباً ، فإذا بهم يتحدثون بالإنجليزية . .قلت ضاحكاً :

ــ أنا عربي مثلكم ..

فأجاب أحدهم بلغة أخرى لم أفهمها . ! وبعد أن تفاهمنا

بالإنجليزية عرفت أنهم إيرانيون . ولما سألتهم كيف يغنون باللغة العربية رغم جهلهم بها . قالوا إنهم يرددون اللحن كما هو دون أن يفهموه . وعرفت أنهم يحبون أغانى وصوت فناننا العربى الأصيل فريد الأطرش .

ثم عرفت فيما بعد من المريض الإيرانى الذى كانوا فى زيارته ، أن اللغة الإيرانية تكتب بحروف عربية ، وهى تتضمن بعض كلمات عربية لفظاً ومعنى . وكان يردد دائماً « الله كريم » وهى ألفاظ إيرانية تعنى نفس معناها العربى .

* * *

كانت حجرتى دائماً مليئة بالزهور ، مما يربك الممرضات ، ويضطرهن إلى استعارة بعض الزهريات «الفازات» من الحجرات المجاورة . وكنت أحياناً أصطدم مع الممرضة إذا أهملت فى رعاية الورود ، فقد كنت أحرص على أن تظل يانعة نضرة .. لا تذبل أبداً . إنها نبضات صادقة من قلوب عربية شقيقة ، جاءت لتؤنس وحشتى بمجرد أن وطئت أقدامها أرض لندن .

واكتشفت أن الدكتور عبد الحميد البطريق قد علق ورقة فى النادى المصرى يدعو فيها العرب إلى زيارتنا .. القبانى وأنا . فتدفقت علينا وفود الطلبة والصحفيين وبعثات الأطباء والضباط والفنانين وغيرهم .

وكلما انفتح باب غرفتى وأطل منه وجه أسمر ، أجدنى أهتف

فى حماس : « أهلا .. أهلا .. » رغم أنى لا أعرف الزائر من قبل.. ولا تلبث القلوب أن تتعانق فى أخوة أصيلة عميقة الجذور ضمتها فى حنان أرض الوطن العربى .

لاشىء يقرب قلوب الأخوة ويجمعها على الود والحنان قدر المحنة والاغتراب، وما أكثر المحن التى مرت بالعرب ، ومع ذلك مازلنا نسمع ونرى رؤوساً تقاوم فكرة التكتل والقومية العربية !!

الأب الحنون:

عندما أراد الله أن يخلقه .. أحضر مقادير متساوية من الرقة والشهامة والضمير والذكاء ، وأخرج منها جميعا الدكتور عبد الحميد البطريق .. مدير المكتب الثقافى للجمهورية العربية المتحدة فى لندن حينذاك ، وكان قبل هذا المنصب وبعده أستاذاً للتاريخ فى جامعة عين شمس .

كان الدكتور البطريق هو أكبر شخصية عربية مسئولة فى لندن بعد إلغاء السفارة هناك ، وبعد قطع العلاقات الدبلوماسية مع انجلترا .

كان مثال الوالد الحنون لكل الطلبة المبعوثين لتحصيل العلم فى بلاد الإنجليز ، يحل مشاكلهم ، ويلبى احتياجاتهم . . أحياناً من جيبه الخاص . . حتى تصلهم الإمدادات . ويجمع صفوف الطلبة

العرب فى مجتمع صغير تتجلى فيه القومية العربية بكل ميزاتها ومميزاتها .

فإذا افترضنا أن من واجبه رعاية الطلبة المبعوثين بحكم وظيفته ، فإن الدهشة تأسر قلوبنا لما لمسناه من اهتمامه ورعايته لنا ، وهو غير مسئول عنا رسمياً . ومن المدهش أنه كان يزورنى يومياً أو يسأل عنى تليفونياً على الأقل إذا عاقته عن زيارتى أعباؤه الكثيرة .

كان يقوم بكل التزامات العلاج والاتصالات بالأطباء وإدارة المستشفى ، وخبراء أجهزة المعوقين جسدياً . ويشترى لى مايلزمنى ويحل العقد التى تعترضنى فى هذا البلد الغريب .

كان يخجلنى بكرمه الزائد ، لكن عزائى فى إرهاقه أنه إنسان يمارس إنسانيته .. بلا رقيب يخشاه . ويحس بقمة سعادته عندما يوزع حنانه على الجميع .. إنه نموذج مشرف للرجل المسئول الذى يرعى الله وضميره ، ويشرّف بحق وطنه ومواطنيه .

ولا أنسى زياراته العائلية لنا مع السيدة الفاضلة قرينته ، وهى مثال نادر لسيدة المجتمع الدبلوماسية المثقفة .. أنيقة فى احتشام .. سمحة .. وزينة . ألحت كثيراً فى أن نطلب — القبانى وأنا — أية أكلة عربية .. بامية .. محشى .. ملوخية ، من صنع يديها . فاعتذرنا

شا كرين، والحت .. فطلبت التأجيل حتى نتشوق إلى التقلية والصلصة والمحشى العربى .

واضطر الزميل القبانى أن يجاريني فى تمعني رغم شغفه بهذه الأصناف الدسمة ، واكتفى بقبول أدوات القهوة العربية من كنكة وفناجين . وكانت السيدة حرمه « أم حنان » قد زودته بعلبة كبيرة من البن المطحون الفاخر ، الذى كنت أقاوم إغراء رائحته بصعوبة ، حتى أتفادى حموضة المعدة التى بدأت ترتاح على الأكل الإنجليزى المسلوق .

ولمحت الزميل القبانى يحدجنى بغيظ ، لأنى ضيعت عليه الأكل الدسم الشهى ، فقلت مشاكساً :

ـــ الحقيقةأن الأخ حسين مشتاق للمش منذأن تركناالقاهرة .

فضحك الدكتور البطريق . ووعده بكمية من المش الأفرنجى فى اليوم التالى . أما أكلة البامية ومحشى ورق العنب فلم يعفنا منه كرم السيدة الفاضلة حرم الدكتور البطريق .

كم أنا مدين لهذه العائلة الكريمة بكل ما فى أعماقى من وفاء وحب وتقدير . وأتمنى أن نرى عديداً من هذه النماذج الإنسانية الرفيعة فى بلدى .. ترفعه فى الداخل .. وتشرفه فى الخارج .

وإذا كنت قـــد أنصفت الحقيقة بكلمة وفاء لعائلة الدكتور عبد الحميد البطريق،فلا أحب أن أغفل أفضال أخوة نبلاء..وقفوا بجانبى فى أحلك أيام الغربة والألم ، فكانت إنسانيتهم وكرمهم

بلسماً شافياً لجروحي، وعاملاً رئيسياً في الحد من قسوة تلك المرارة التي أضعفت مقاومتي للآلام النفسية والبدنية . ولولا وقوفهم بجانبي في تلك الفترة العصيبة ، لانهارت معنوياتي أمام اليأس القاتل والآلام المروعة ..

هؤلاء الأخوة الكرام هم الأخ محمد الحاروني والأخ عبد الله البشير .. الملحقان الثقافيان للجمهورية العربية المتحدة بمكتب البعثات في لندن . والأخ الفلسطيني إبراهيم أباظة، وغيرهم كثيرون ممن لا يحصرهم القلم ، وإن وسعهم قلبي النابض بالشكر والعرفان لكل من مدّ لي يداً كريمة في محنتي .

الصحف المصرية :

بعد وصولنا إلى لندن بأيام ، وصلتنا الصحف المصرية التي صدرت في اليوم التالي لسفرنا . وأسعدنا الاحتفال الكبير الذي ودعتنا به الصحافة المصرية ، فقد أفردت كل من الأهرام والأخبار صفحة كاملة تصف — بالصورة والكلمة — يوم رحيلنا . وآلمني أن رأيت صورة التقطها مصور يقظ ، ظهرت فيها أختاي في نافذة شقتي في لحظة خروجي إلى عربة الإسعاف . وكانتا تبكيان في انفعال شديد متأثرتين بلحظة الفراق . وزاد من بشاعة الصورة أنهما كانتا ترتديان ثياباً سوداء حداداً على والدي الذي لم يكن مرّ على وفاته سوى بضعة شهور قليلة .

وصورة أخرى فريدة لسلم الطائرة ؛ وعليه حشد من المودعين يحملون النقالة . وأنا فوقها ألوح بذراعى مودعاً أهلى ووطنى .
وكان عنوان المقال :
« صبحى الجيار يقول : بعد ١٨ سنة فى السرير سأمشى حتى أسقط من التعب » .
كان الأمل العريض ، لا يدع للشك أية ثغرة ينفذ منها إلى يقينى .

* * *

الواقع أن الصحافة المصرية لم تتخل عنا ، حتى بعد رحيلنا .
فكانت تنشر أخبارنا أولاً بأول ، وتتابع خطوات العلاج التى كانت تستقيها من مندوبها ، ومن رسائلنا الشخصية .
قبل سفرى طلب منى الأخ كمال الملاخ أن أوافيه برسائل مفصلة يطمئن بها قلوب الجماهير التى التفت حولنا ، وكذلك اتفقت مع مجلة آخر ساعة على أن أمدها بسلسلة من المقالات بعنوان « خواطرى فى لندن » .
نشرت الأهرام أول رسالة منى بتاريخ ٢٦ أبريل ١٩٥٩ . . وتكلمت فيها عن العمليات والجو والطعام . . وأخبار الفنان عبد الحليم حافظ الذى كان يستعد لإجراء عملية جراحية . وأجريت مقارنة سريعة بين أسعار لندن الباهظة بالنسبة لخير بلدنا . ثم تكلمت

عن « شاربى » الذى جار عليه الحلاق الغشيم بالآلة الكهربائية ، فشوه منظره . مما اضطرنى إلى إزالته .

وإذا بالأخ كمال الملاخ ينشر صورتى بالشارب الأنيق ، ويكتب تحتها : « الجبار . . والشنب الذى ضاع » .

وكان هذا الخبر موضع تندر الكثيرين ، خاصة وقد أشاع الزميل القبانى أنى حلقت شاربى بناء على طلب الممرضة الحسناء !

ومازال الأخ حسين حتى الآن ، وبعد فوات سنوات طويلة على هذا الحادث ، ينتهز فرصة اجتماعنا فى ندوة مرحة مع الأصدقاء ، نتذاكر فيها أيام لندن بحلوها ومرها ، فينطلق بإشاعته الخبيثة ضاحكا :

— تصوروا يا جماعة . . البنت الممرضة مسحت شنب الجبار !

ثم يتصنع الدفاع عن موقفى فيقول جاداً :

— الحقيقة يا جماعة هو معذور . . البنت كانت حلوة جداً !

* * *

ثم توالت رسائلى إلى الأهرام . ولم تكن فقط تحكى أخبارى الشخصية ، بل تناولت فيها المشكلات العامة ، والأخبار الهامة التى كنت أستقيها من الزائرين الكثيرين . . ومن الانجليز أنفسهم .

أذكر أنى تكلمت فى إحدى الرسائل التى نشرت بتاريخ ٢٨ مايو عام ١٩٥٩ عن فيلم تونسى كان يعرض فى سينما « أكاديمى » بلندن باسم « جحا » وكانت إدارة السينما تدعى أنه أول فيلم عن العالم

العربى . وكان الفيلم هزيلا وبدائياً ، ويمثل العرب فى صورة غير مشرفة ، فيظهر الحكيم جحا فى صورة ولد عبيط أقرع !! والعجيب أن ممثل دور جحا كان الممثل المصرى عمر الشريف . وكان هذا الفيلم هو بداية ظهوره فى الأفلام العالمية .

خواطرى فى لندن :

أما مقالات «خواطرى فى لندن» فقد أفردت لها «آخر ساعة» مساحات كبيرة مزودة بالصور . ولم أقتصر فيها أيضاً على أخبارى الخاصة ، بل تكلمت عن بنات التيمز ، وعن الشخصيات المرموقة التى قابلتها هناك . وعن الطعام الإنجليزى وبعض الحوادث والمفارقات الطريفة . إلى غير ذلك من المواد الخفيفة .

واسمح لى يا أخى القارىء أن أنقل إليك بعض هذه الفقرات على سبيل التسلية ، فضلا عن أنها لا تخلو من معلومات .

فى عدد ٢٧ مايو ١٩٥٩ من «آخر ساعة» كتبت بعنوان :

بنات التيمز :

جئت إلى لندن وفى ذهنى فكرة واضحة عن المرأة الإنجليزية بوجه عام .. الضب البارز ، والأسنان الصفراء نتيجة الإفراط

فى التدخين .. الشعر الغزير يملأ الأذرع والسيقان .. خشونة المظهر والملبس .. الغطرسة .. الخ ..

لكن الحقيقة تختلف — كما رأيتها — عن كل هذا أو بعضه ، ويمكننى أن ألخصها فى هذه النقط بمنتهى الحياد .. بعد أن رأيت عشرات منهن بين ممرضة وحكيمة ومريضة وتمورجية وزائرة ، ودعنا من كواكب التليفزيون فهن فوق مستوى الشبهات .

● لم أر أى أثر للصب البارز حتى الآن .. أما صفرة الأسنان فموجودة بنسبة واضحة ، لأن كل الإنجليزيات والإيرلنديات والاسكتلنديات مدمنات على التدخين .. ولكن بلا إفراط .. لا عن تعقل ولكن لضيق ذات اليـــد . والنتيجة المؤسفة بالنسبة لى شخصياً هى نفاد كمية السجاير المصرية التى أحضرتها معى .. رغم أنى لا أدخن .

● الإنجليزيات يفخرن بتربية شعر السيقان والأذرع .. !! وخصوصاً الشوارب الصفراء ، التى تشوه جمالهن . ومن المفارقات المضحكة أن ٩٥ فى المائة من الرجال يحلقون شواربهم وجميع النساء والبنات يحتفظن بالشوارب !

● نسبة الجمال مرتفعة حقاً .. لا تقل عن سبعة من عشرة ولا يزيد عن تسعة من عشرة . عيون زرقاء صافية . بشرة ملساء ناصعة . شعور ذهبية على الجبين تهفهف وترجع تطير على رأى الأخ

عبد الحليم حافظ[1] . كل هذا مع تناسق فى الملامح الدقيقة . ولكن الشفاه من النوع الرقيق ، وليست مكتنزة شهية كموضة هذا العصر .

● أما القوام فهو فارع ملفوف . لم أر « كرشاً » على الإطلاق . والطول الذى يتخطى ١٧٠ سم شىء مألوف جداً . لكن .. لا صدور ناهدة ، ولا أرداف تميز الأنثى عن الذكر . والسيقان ممتلئة رغم النحافة والطول .

● طباع الفتاة الإنجليزية هادئة .. معتزة بنفسها إلى أبعد حد . أصغر ممرضة لا ترهب أكبر طبيب ، وتتصرف أمامه بمنتهى الهدوء والبساطة . كل إنسان هناك له شخصيته وكيانه مهما انخفضت درجته الاجتماعية .

● خفة الدم موجودة فى البعض . ولكنها لا تصل إلى مستوى الجاذبية الصاعقة التى تتمتع بها البنت العربية .

● يبدو أن الحرب الأخيرة جعلت منهن آلات تتحرك بلا عاطفة حتى مع الصديق المختار تتصرف بطريقة عملية . إذا وعدها بالزواج منحته كل شىء . وإلا فليس عندها وقت تضيعه هباء . وكل فتاة أو مطلقة لا تنكر أن لها صديقا يسمونه بالإنجليزية «Boy Friend» بل تفخر بهذا .. تخرج معه وترقص ، وتذهب إلى السينما .. وإلى كل مكان . لكنه لا يصرف عليها

(١) كانت هذه الأغنية جديدة وشائعة فى ذلك الوقت .

بنسا واحداً، ولا يدعوها إلى فنجان شاى ، وإلا سقط من نظرها .. وبان ضعفه أمامها .

ملحوظة : عرفت هذه النظرية بعد أن وزعت جزءاً كبيراً من الخواتم الفرعونية والسجاير العربية .. والعطور الشرقية وقطع الشكولاتة الفاخرة . ولكنى أوقفت هذا العبط الحاتمى .

وهذه فقرة أخرى من المقال بعنوان :

فكرة عن الأسعار :

فى جلسة عربية جمعت بين مطربنا المحبوب عبد الحليم حافظ وبعض الطلبة العرب الذين يدرسون فى لندن وأنا .. أخذنا نناقش الأسعار فى لندن ، ونقارن بينها وبين الأسعار فى مصر . فقال الأخ عبد الحليم معلقاً :

— يا سلام على الجنيه المصرى .. ياحبيبى عليه .. دانت تخرج من مصر الجديدة، وتركب المترو إنت وصاحبك .. وتتعشوا فى مطعم محترم .. وتروحوا السينما وترجعوا آخر الليل .. تلاقى فى جيبك ١٣٠ قرش !

والأسعار هنا تختلف تماماً عنها فى القاهرة .. ففى الملابس الصوفية والآلات تهبط إلى حد مثير يجعلك تهرش جيوبك باحثاً عن الجنيهات الإسترلينية ، وسرعان ما تسحب يدك فى خيبة أمل بعد أن تكتشف أنها عملة صعبة .

خذ مثلاً . . جهاز التسجيل المحترم الذى يسمعك شريطاً فى ثلاث ساعات على الوجهين ، ثمنه ٧٥ جنيها . وهناك أجهزة تسجيل صغيرة للغلابة قد يهبط ثمنها إلى عشرين جنيها فقط . أما أجهزة الراديو فتباع بحوالى نصف ثمنها فى ج.ع.م.

وإذا لفحك برد لندن ، ونفذ إلى جلدك كالإبر ، فعليك بمحل « سيلفردج » أو « هارولدز » . فتشترى « البلوفر » من الصوف الإنجليزى الفاخر بورقتين من فئة الجنيه الإسترلينى .

ولكنك لا تشترى جهاز تسجيل كل شهر أو كل سنة ، وكذلك الملابس ، فإن الصوف الإنجليزى له فضيلة لا تنكر ، وهو أنه يخدمك سنوات طويلة .

المهم فى الاستهلاك اليومى الدائم ، كالأكل والسكن والحلاقة والسينما والجرائد والسجائر والغسيل والمكوى . . الخ . وهذه نماذج بسيطة منها :

الطالب أو الموظف العادى يأكل ثلاث وجبات فى المطعم بجنيه يومياً . ويجب أن يقتصر فى الإفطار على « الساندوتش » إذا أراد أن يظفر فى الغذاء بقطعة مشبعة من اللحم . والمطاعم لا تسرق زبائنها ، فإن الخضروات والفواكه معظمها مستورد .

خس السلطة الواحدة منه بشلن . . مع الفارق بينها وبين أختها السمينة التى تباع فى القاهرة بتعريفة . ورطل العنب — ولا أقول

الأقة — ثمنه أربع شلنات . أما البيض فهو معقول بالنسبة لحجمه الكبير وتساوى الواحدة حوالى ١٥ مليما .

وإذا هفك المزاج . وأحببت أن تحبس بسيجارة ، فالعلبة البحارى بعشرين قرشاً . . بدون علبة كبريت لأن هذه البدعة من مخلفات الكرم العربى .

وتدخل إلى صالون الحلاق ليجرى المكنة الكهربائية على ذقنك فى ثوان ، ويلدع حوالى ثلاثة عشر قرشاً غير البقشيش الذى لا يقل عن شلن وإلا ودعك « المستر » بكل احتقار .

الله يمسيك بالخير ياأسطى عبد الغنى . . إنه يوضب العريس ليلة دخلته باتنين شلن . . أقصد عشرة قروش .

أما الجريدة اليومية فثمنها من قرش صاغ إلى قرشين تقريباً . والمجلة العادية فى مثل حجم « الجيل » ثمنها حوالى ستة قروش ، والكتاب القصصى الصغير بحوالى ١٢ قرشاً .

أما السينما فالتذكرة فيها تبدأ من شلنين إلى خمسة شلنات ، وقد تصل إلى ٥٥ شلناً فى العرض الأول بدور الدرجة الأولى . ونظام عرض الأفلام يبدأ من الواحدة ظهراً إلى الحادية عشرة مساء عرضاً مستمراً لفيلمين بالتناوب ، ولا توجد دور سينما مكشوفة إطلاقاً ، لأن جو لندن ممطر فى أى وقت .

وترجع خالى الوفاض إلى حجرتك المتواضعة البسيطة فى أثاثها فتجد مديرة البيت تطالبك بست جنيهات فى الأسبوع . . بدون

أكل أو غسيل أو مكوى . . لأن هذا له فاتورة أخرى . .
« البيجاما » بـ ١٢ قرشاً ، والفانلة ٤ قروش ، والمنديل بقرش
واحد تقريباً . . وهذه ليست أسعار الشراء . . لكنها للغسيل
والمكوى .

* * *

وهذا مقال آخر من حلقات « خواطرى فى لندن » المنشور
بآخر ساعة فى ٩ سبتمبر ١٩٥٩ ، أختار منه هذه الفقرات :

بين الطعمية والكرنب :

لا تصدقوا الشائعات عن الطعام الإنجليزى . . إنه فعلا ليس
له طعم ولا رائحة ، ولكنه طعام صحى . . خفيف على المعدة ،
ولا يسمح بتراكم كتل الدهن تحت الجلد . ولا يضخم كرشك
أمامك كالكرة الأرضية . حتى يحجب عنك ساقيك فى القطب
الجنوبى .

كذلك القهوة فى قوام الشاى المصرى ، والشاى فى لون
الينسون ، وتشربه باللبن فكأنك تشرب لبناً مغشوشاً بالماء .
والسكر نادراً ما يستعمل فى القهوة أو الشاى .

وقد وطّدت نفسى على أن أتذوق كل جديد حتى أستمتع
بالتجربة ، ثم أستبعد ما لا أستسيغ .

وفى الأسبوع الأول استبعدت الخضار المطبوخ . . وكلمة

مطبوخ فيها تجاوز كبير عن الحقيقة ، فهو مسلوق فى الماء الزلال!
وأترك لخيالك أن يتصور ورق الكرنب المسلوق . . أو كومة
الجزر المفرى بعد سلقه . . أو القرنبيط المسبك فى الماء المغلى!
أما البطاطس، فهو مقبول ومعقول ، وكذلك البسلة . أما اللحم
فيطبخونه بطرق متعددة، لأن الانجليز من أكلة اللحوم.. ولا أعنى
لحوم البشر . . كما يتبادر لأذهان الخبثاء .

وقفت السيدة المختصة بالتغذية تلقى علىّ قائمة بأنواع اللحوم :

— حمل مشوى . . فراخ باردة .. فراخ محمرة ساخنة . .
ستيك .. هام . . لسان . . سكالوب . . بيكون . .

قلت لنفسى فلأستبعد الأنواع المعروفة مؤقتاً ، وأطلب
المجهول حتى أعرفه . وطلبت « لحم ستيك » ، وكان لذيذاً يشبه
« كباب الحلة » عندنا ، ولكنه مقطع إلى شرائح رقيقة . وذات مرة
طلبت « اللسان » فكان مقلباً . . لأنه مفروم ومعبأ فى علب !
والفراخ الباردة أحسن من الساخنة لأن الأخيرة عائمة فى الشوربة
وتفوح منها الزفارة .

أما الحمل المشوى فقد شحذت له أسنانى على أساس أنه كباب
مثلا . لكنه كان شيئاً آخر . . كان لذيذاً حقاً . . لكنه شىء غير
الكباب .

أما الـ « هام » و « البيكون » فقد استبعدتهما نهائياً لأنهما
لحم خنزير دسم .

واهم طبق هو سلطة الخضار . . ورقتان من الخس.. ونصف ثمرة طماطم . . ولفتة حمراء على شكل وردة . . نبات يشبه الحلبة الخضراء . . وكان الله يحب المحسنين . لا زيت .. ولا خل .. ولا ليمون . . ولا ملح . . ولا طعم .

والحلو . . فاكهة أو سلطة فواكه . أو بودنج باللبن والأرز .. أو أى عجينة ليس لها طعم . وركزت نشاطى على الفاكهة الطازجة وتنحصر فى التفاح والكمثرى والموز والخوخ ، وكلها من أصناف ممتازة . أما المانجة فقد أضربت عن أكلها هذا الموسم لأنها غالية جداً إذا وجدت .

وهنا صنفان من «الكريمة» لهما نفس اللون الأصفر الفاتح.. إحداهما اسمه «كريمة السلطة» ولها طعم المستردة ، وتضاف إلى سلطة الخضار . والأخرى «كريمة الفاكهة» وتضاف إلى سلطة الفواكه . وجاءت ممرضتى لتعطينى طبق الحلو ، وأمسكت الكريمة لتضيفها إليه ، فإذا بها تتراجع قائلة : «أوه ! .. هذه كريمة السلطة.. أين إذن الكريمة المسكرة ؟ .

وبشىء من البحث اتضح أن الممرضة الأخرى أضافتها إلى قطع اللحم المحمرة . واتضح أنى شربت المقلب.. أو أكلته . . لا . . لا تسىء الظن بى . . ألم أقل لك أن أكل الانجليز ليس له طعم ولا رائحة ؟

* * *

وبمناسبة الأكل . . فقد افتتح النادى الثقافى للجمهورية العربية

المتحدة هنا مطعماً شرقياً يتولى إدارته شاب سودانى يعمل مدرباً لفريق « الأرسنال » فى كرة القدم . وقد زودنا منه الصديق المصرى ممدوح عبد الفتاح بوجبة كاملة من الطعمية وسلطة الطحينة والخيار المخلل .. والبقلاوة والكنافة .

كان زميلى حسين هو الذى اشتهى هذه الأصناف .. ولكنه ما كاد يراها حتى صاح : اخص عليك يا ممدوح !

وذهل ممدوح .. لكن اتضح أن القبانى صائم استعداداً لعملية البواسير . وكانت مأساة . ولم يهدأ القبانى حتى اقترحنا عليه حفظها فى الثلاجة .. وقد كان .

إنتهت الفقرات التى نقلتها حرفياً من الصحف والمجلات دون تعديل الألفاظ العامية التى يقتضيها الأسلوب الصحفى لمثل هذه الموضوعات الخفيفة . كذلك يراعى فى فقرة الأسعار أنها كانت فى سنة ١٩٥٩ .

***

زارنى فى لندن كثير من الصحفيين المصريين ، منهم الصحفى الكبير فكرى أباظة ، ومحمد رفعت مندوباً عن المصور ، وسعيد سنبل ، وزغلول السيد عن دار أخبار اليوم . والمرحومة فتحية بهيج عن آخر ساعة .

وقد تفضلوا مشكورين فكتبوا عنى فى صحفهم ..

أما « المصور » فنشر فى العدد الصادر فى ٢٦ يونية ١٩٥٩

صورة كبيرة بعرض الصفحة ، يظهر فيها الممرض وهو يحرك ساقى الملفوفة فى الضمادات الطرية بعد فك الجبس . وكتب تحتها :

« معجزة للجيار : الممرض يحرك ساق المريض ، ويلويها . ولكن المريض لا يتألم ، بل إنه مسرور وسعيد . ولم يكن يحلم فى يوم من الأيام بأنه سيحرك ساقه اليسرى . إنه صبحى الجيار الأديب الذى قضى ١٨ عاماً على ظهره وأمر الرئيس جمال عبد الناصر بعلاجه على نفقة الدولة فى لندن .. هكذا رأته عدستنا عندما زرناه فى الأسبوع الماضى بمستشفى لندن كلينيك. وطلب من مندوبنا أن يحمل إلى أهله ومواطنيه بشرى نجاح أول عملية له » .

والواقع أن هذا التعليق كان يتضمن كذبة بيضاء. فقد اتفقت مع الأخ محمد رفعت على أن يخفى عن القراء، ومنهم أهلى وأصدقائى أن أقل حركة فى ساقى اليسرى تسبب لى آلاماً لا تطاق . . وذلك حتى لا يزعجهم ويقلق بالهم . واضطررت لهذا أن أرسم إبتسامة مفتعلة على فمى أثناء التصوير حتى تؤكد الكذبة البيضاء .

* * *

وزارنى الدكتور البطريق يوماً ومعه زغلول السيد مراسل الأخبار فى لندن . الذى اصطحب معه مصوراً انجليزياً. وكان الأخ القبانى فى حجرتى حينذاك ، فالتقط لنا المصور عدة مناظر تذكارية. وفى ٦ مايو سنة ١٩٥٩ نشرت جريدة الأخبار اثنتين من هذه

الصور . وعلقت على صورتى بكلمات أعتز بها ، إذ قالت على لسان مندوبها :

« صبحى الجيار الأديب الذى سافر إلى بريطانيا للعلاج على نفقةالدولة ، قدم لطبيبه البروفسور أوزموند كلارك رسماً يوضح طريقة علاجه كما يتصورها . قال الطبيب لزغلول السيد مراسل الأخبار فى لندن : « إن هذا الشاب أكثر من عبقرى ! إن هذه الطريقةلم تكن معروفة من قبل . لقد نشرت لأول مرة فى كتاب ظهر هذا الأسبوع ! . سيجرى الطبيب لصبحى أربع عمليات .. أولاها غداً ».

ثم اختتم التعليق بقوله. «صورةصبحى مختلفة عنصورهالسابقة بسبب الشذب ! » .

* * *

وفى الأيام الأولى زارتنا فى المستشفى الصحفيةالمصريةاللامعة المرحومة فتحية بهيج ، والتقطت لنا بعض الصور . وعندما عادت إلى أرض الوطن كتبت مقالا فى عدد آخر ساعة الصادر يوم ١٣ مايو ١٩٥٩ ، قالت فيه :

« فى لوحه صغيرة بالنادى المصرى بلندن وضع إعلان بسيط يقول . وصل إلى لندن الأديبان صبحى الجيار وحسين القبانى للعلاج ، فعلى من يرغب فى زيارتهما من الزملاء العرب أن يتوجه إلى مستشفى لندن كلينيك غرفة رقم ٥٢٧ ، ٥٢٩ .

كنت قد قرأت عنهما كثيراً فى أكثر من صحيفة ومجلة . وقرأت لهما كثيراً مما كتباه من قصص أدبية أو مقالات . ولكن شيئاً واحداً لم أتصوره بعد كل ماقرأت . . الروح المعنوية العالية التى تمثلت بكامل معانيها فى هذين الشخصين . وأكثر من هذا الشعور بالتضحية الذى يبدأ يحسه الواحد منهما تجاه الآخر . فقد أصبح كل واحد منهما يحس أنه مكمل لزميله ، وأن ما يشعر به من نقص يكفى أن يعوض فى هذا الزميل . شعور أذهل الأطباء فى لندن والممرضات .

يعيشان فى حجرتين منفصلتين ، أولاهما رقم ٥٢٧ ، يدفع فيها خمسون جنيها كل أسبوع لأن هناك حماماً ملحقاً بها . ويقيم بها الأديب حسين القبانى . والثانية رقم ٥٢٩ ، بدون حمام ، يدفع فيها أربعون جنيها كل أسبوع . ومع أن الحجرتين منفصلتان بممر طويل ، إلا أنه قلما تجد أحدهما بعيداً عن الآخر . فالقبانى دائماً على كرسيه المتحرك إما فى طريقه إلى حجرة الجيار لقضاء النهار ، أو فى طريقه إلى حجرته لينام ، لأن الجيار لا يفارق السرير أبداً .

ذهبت لزيارتهما مع الدكتور عبد الحميد البطريق المستشار الثقافى فى لندن ، والذى يحرص على زيارتهما كل صباح قبل أن يذهب إلى مكتبه .

وعلى سرير أبيض فى وسط حجرة كبيرة كان يرقد الأديب صبحى الجيار ، لا يظهر منه تحت الملاءات البيضاء إلا وجه كله حياة وكله أمل .

تكلم فى كل شىء .. عن الحب .. وعن الحياة.. وعن المرض..
وعن الأمل..وعن السعادة .. وعن المستقبل ..وعن الغناء والرقص
والموسيق . . . وعن المرأة . . دائماً ضاحك . . ودائماً واثق
مما يقول وأكثر ثقة فى المستقبل .

تمنيت أن تكون معلوماتى فى علم النفس أكثر مما هى عليه
لعلى أستطيع أن أصل إلى أعماق نفسه ، وإلى حقيقة تفكيره . .
لا أعرف هل هذه السعادة حقيقية ، أو هو يحاول أن يتظاهر بها .
هل هذا معقول ؟ شاب فى الثانية والثلاثين من عمره. قضى نصف
هذا العمر ، راقداً على فراشه لا يتحرك أبداً ، ومع ذلك يبدو
بهذه الروح . قال لى إنه لم ييأس يوماً طوال أيام مرضه . كان
يشعر دائماً أنه سيشفى، وأنه سيمشى كبقية الناس . سيحيا حياتهم ،
ويشعر الآن أن أمله قد أوشك أن يتحقق .

أطلعه الدكتور البطريق على صحيفة جاءت من القاهرة ، وفيها
ريبورتاج مصور عنه وعن زميله يوم سفرهما إلى لندن . وفيها
صور له ولأختيه وهما تبكيان . وأغرق فى الضحك وهو يعلق
على الصور :

— ياخبر زى بعضه . . دأنا زى ما أكون فى نعش واخواتى
بيشيعوا جنازتى .

ثم سرح قليلا وهو يقول بنفس اللهجة المرحـــة ، التى لم
تفارقه لحظة :

— معلهش.. علشان يبقى فيه فرق كبير وأنا راجع لهم ماشى على رجلىّ.

سألته :

— الدكتور قالك إيه ؟

— من يومين جانى المساعد بتاعه . . وبعـــدين وريته الرسومات اللى أنا راسمها للعملية بتاعتى .

— إنت درست الطب ؟

— لأ .. لكن قريت زى أى دكتور كل الكتب التى كتبت عن مرضى وخرجت منها بنظرية جديدة مبنية على أساس علمى سليم لدرجة أن الدكتور الانجليزى لما شافها قاللى ؟ ماقدرشى أقولك إن فيها حاجـــة غلط أبداً . . فسيبها إحنا ندرسها ونقولك رأينا .

— والعملية حاتكون عبارة عن إيه ؟

— حاتكون عبارة عن تركيب مفصل صناعى بدلا من المفصل الطبيعى المتعطل . . وبالمفصل الصناعى أقدر أتحرك وأروح وآجى ولو زى الأستاذ القبانى .

— يعنى محتاج لكام عملية . ؟

— والله الدكتور قعد يعد لغاية ستة قلت له العدد فى الليمون .

— حاتقعد قد إيه فى لندن تحت العلاج .؟

— منظور سنة وشوية .. لأن بين كل عملية والثانية حوالى شهرين .

— حبيت يا أستاذ صبحى قبل كده ؟

— أحب أقولك إن جسمى بس هو اللى معطل .. لكن قلبى مش معطل .. بيحس ويشعر زى كل الناس .

— ماكتبتش قصة عن هذا الحب ؟

— خفت أحسن تشير إلى صاحبتها فتنكشف .

— بتكتب إيه دلوقت ؟

— بارسم مش باكتب .

— بترسم إيه ؟

— بارسم كرسى للنجار بتاع المستشفى ، أقدر أقعد عليه ولو نص ساعة فى اليوم .

•

ودخل فى هذه اللحظة الطبيب المعالج بروفسور كلارك ، واختلى بالدكتور البطريق . لكى يقول له إن النظرية التى وضعها الجيار لنفسه سليمة ، ويمكن تنفيذها . ومن الغريب أنها مطابقة للبحث وضعه إخصائى إنجليزى عالمى ، وإن الأمل فى تطبيقها على الجيار كبير جداً .

وخرجنا من حجرة الأديبين ونحن نقول من صميم قلوبنا : « يا رب » .

أخبار سخيفة :

وبجانب مقالات الاطراء التى أفردتها لنا الصحف الكبرى ، كان بعض صغار الصحفيين يفتعلون أخباراً سخيفة لمجرد ملء الفراغ .. فى جيوبهم ، إذ أن كل خبر له ثمنه . .

كان يضايقنى أن أقرأ خبراً عن « الملوخية الجافة » التى طلبتها من والدتى فى رسالتى الأخيرة !! مع أن الملوخية ليست من أكلاتى المفضلة ، ولا أشتهيها فى بلدى . . فكيف أطلبها من لندن ؟

كذلك نشرت إحدى الجرائد اليومية عنواناً كبيراً بعرض ستة أعمدة تقول فيه « زجاجة كولونيا للجيار . . من القاهرة إلى لندن » . . ونشرت لى صورة كاريكاتورية أبدو فيها وأنا أحلم بزجاجة كولونيا !!

فهل هذا الخبر يستحق كل تلك الضجة ؟ . . لا شك أن كاتب المقال كان سليم النية ، لكنه أظهرنى أمام القراء بمظهر المدلل الذى لا تتسع لندن بأكملها لعطره المفضل !

لكن أشد ما آلمنى أن فوجئت بسيل من الرسائل من أصدقائى وصديقاتى فى مصر ، يشجعوننى على تحمل الألم ويرجوننى ألا أعود إلى الوطن قبل إتمام العمليات التى اقترحها الأطباء !!

ذهلت لتلك النصائح التى لا مبرر لها . ثم عرفت أن أحد

الصحفيين كتب خبراً مثيراً عن آلامى وبكائى ! .. وعن رغبتى فى العودة قبل إتمام العلاج ! .

وهكذا أظهرنى المحرر الهمام كطفل ضعيف يخاف من العلاج !! وبالتالى شوّه هالة البطولة التى توجتنى بها الصحف قبل سفرى إلى لندن . وفى الواقع أن هذا الخبر له أساس ضئيل من الصحة . فقد استقى المحرر أخباره من دردشة تليفونية مع والدتى ، وعرف منها أنى أعانى فترة عصيبة من الألم لفشل العملية الأولى ، وقد أعود قبل إتمام العلاج . ففهم خطأ أنى أنا الذى قررت إيقاف علاجى والهرب من الآلام !

سامحه الله .. هو وأمثاله من أنصار « الفبركة » الصحفية ..

الاستعداد للعملية :

خلال الأربعين يوماً الأولى كان الأطباء يعدوننى لتحمل العمليات الجراحية بالتدليك والكهرباء والحقن والأقراص . والطعام المغذى الذى يلبون فيه أية رغبة تخطر على بالى .. مثل المحكوم عليه بالإعدام . ولما أيقنوا أنى لائق طبياً ، قرروا إجراء أول عملية مساء ٢٩/ ٥ . وتفاءلت بالرقم .. فهو رقم حجرتى ٥٢٩ .

بدأ الاستعداد للعملية قبل إجرائها بأربع وعشرين ساعة حيث زارنى طبيب التخدير ، وفحص القلب والضغط والرئتين المحبوستين فى قفص متحجر . فوجد ضغطى مرتفعاً بسبب الإفراط فى التغذية

والمقويات . لكنه هز رأسه مبتسماً وقال وهو ينصرف :

— سنلتقي غداً في التياترو ...

والتياترو هذا هو الترجمة الحرفية لكلمة Theatre وهو الاسم الذي يطلقونه على حجرة العمليات .

وبعد قليل جاءت ممرضتي ومعها زميلة أخرى من « التياترو » . وكانتا تدفعان أمامها عربة صغيرة عليها زجاجات ملونة وأربطة . سألت في دهشة :

— أليست العملية غداً ؟

— نعم .. ولكننا سنعد ساقك ونطهرها .

بدأتا بوضع أقنعة معقمة على وجهيهما .. ثم خلعت إحداهما « بنطلون البيجاما » وراحت الأخرى تخلي المنطقة كلها من الشعر ، بموسى طويل كموسى الحلاق . ثم دهنت ساقي حتى أعلى الفخذ بسائل أحمر داكن ، ثم لفتها في أربطة معقمة .

وبعد ساعتين جاء طبيب آخر ، فرش على ساقي طبقة من البلاستيك حتى يضمن نظافة العملية .

ولما لم يسمحوا لي بارتداء « البنطلون » طلبت فوطة أستر بها نفسي من تحت الغطاء . كإجراء مؤقت لعدة أيام .. ولم أكن أظن ساعتها أني لن أرتدي البنطلون مرة أخرى طوال أشهر ثلاثة . ظللت خلالها مستتراً بورقة التوت . ولم أكن في الواقع محتاجاً لغيرها ، فإني في خلال تلك الفترة كنت محصوراً بين السرير والبطانية .

لم تنته الاستعدادات بعد . . فقد جاءت ممرضة من المعمل. أخذت عينة من دمى ، حتى تفحص فصيلته ، وتعد لى الدم اللازم لتعويض النزف أثناء العملية .

وقبل العملية بساعة واحدة ، جاءت ممرضتى ، وحقنتى بحقنة مخدرة قوية . ثم رأيتها تسدل الستائر السوداء ، فسألتها بدهشة :

— لماذا أظلمت الحجرة . . ألن أذهب إلى التياترو . . ؟

قالت بهدوء . . أقصد ببرود :

— حاول أن تنام الآن . . .

ثم تركتنى وخرجت . . وما لبث المخدر أن سرى فى جسدى فاستسلمت للنوم . . وقد علمت فيما بعد أن هذه الحقنة مهمتها تهدئة المريض نفسياً بجانب وظائفها الفسيولوجية الأخرى .

إستيقظت من النوم ، فأحسست بسريرى يتحرك ، ويخرج بى إلى الدهليز . . ومنه إلى المصعد . . كنت وقتها أحس بدوار ونعاس، لكنى متنبه لكل ما يجرى حولى . ولم يكن يضايقنى غير جفاف حلق ، حيث منعت فترة طويلة من الشرب بأمر الطبيب .

وعلى باب قسم الجراحة . رأيت الدكتور أوزموند كلارك ، والدكتور شيرز يستقبلان سريرى . كان دكتور كلارك عارى الصدر تماماً إلا من ميدعة « مريلة » بيضاء تتعلق فى رقبته برباط رفيع ، وتظهر منها ذراعاه وجزء كبير من صدره وظهره .

كان يقهقه كعادته ملوحاً بذراعه في حركة مشجعة .. وهتف :
ــ كيف حالك يا مستر جيار ؟
فصحت ملوحاً في أمل :
ــ رائع ...
دخل سريرى إلى حجرة صغيرة ملحقة بحجرة العمليات .
ثم تقدم مني طبيب التخدير ، وفي يده المحقن الذى غرس إبرته في وريدى وطلب مني أن أعد .. وما كدت أصل إلى رقم ثلاثة حتى غبت تماماً عن الوعى .. قبل أن أرى التياترو .. !

مرحلة العذاب :

أفقت من المخدر في الثامنة مساء .. على ألم فظيع في ساقي .. فحاولت أن أرفع جفني اللذين أثقلهما المخدر، لكنه لم يمنع إحساسي بالألم .. وسمعت صوتاً كالفحيح يهمس بحزم :
ــ هش .. أصمت ..
غاظتني اللهجة الآمرة ، فرفعت جفني بصعوبة ، لأرى وجهاً دميماً لممرضة عجوز لم أرها من قبل .. كانت الغبية تضغط أكتافي معتقدة أني سأحاول القيام برأسي .. ولو علمت أني مقيد من الداخل لما بذلت مجهوداً في تقييد كتفي !
حاولت أن أحرك يدى لألوح بها محتجاً ، فأحسست بها مربوطة إلى وسادة، ثم إنزلق بصرى فوق ذراعي فوجدت أنبوبة

مغروسة فى وريدى لتنقل إليه دماء تسرى من زجاجة كبيرة معلقة.

لم يكن الألم نابعاً من عظامى المقطوعة ، فقد شرح لى الطبيب قبل العملية كيف أنه سيقطع العصب المغذى لعظام الركبة المزالة ، بحيث لا أحس بأى ألم فى هذه المنطقة . . وقد صدق وعده . . أما الألم الذى شعرت به فكان نابعاً من العضلات التى ظلت مرتخية هامدة تسعة عشر عاماً ، وقد تمددت فجأة مع الساق المشدودة فى جبيرة الجبس بعد أن ظلت تشكل زاوية قائمة طوال تلك السنين .

رأحت العضلات تحتج بشدة . . فى تقلصات عنيفة لا إرادية ، تستمر لعدة دقائق . . ثم تهدأ . . لتبدأ من جديد بمزيد من القسوة وكأن ساقى فى عصارة قصب .

صحت فى الممرضة الدميمة :

— الألم فى ساقى غير محتمل . . إعطنى مخدراً . . أرجوك .

فقالت ببرود :

— لم يأمر الطبيب بشىء بعد . .

— وأين هو هذا الطبيب . أطلبيه بسرعة . . .

لكنها لم تتحرك ولم تنفعل ، وهمست فى حزم :

— هش . . لا تصرخ هكذا . . حتى لا تزعج باقى المرضى . .

لم أحاول أن أخفض من صوتى بالطبع ، بعد أن وجدته سلاحاً تحرك برودها . كذلك كانت التقلصات الفظيعة لا تتيح لى فرصة للتفاهم الهادىء .

كنت أعرف أن الممرضات الانجليزيات يطبقن الأوامر المكتوبة حرفياً وبمنتهى الدقة . ولا يحاولن التصرف في المواقف الإنسانية . . حتى قرص الإسبرين لم يكن مسموحاً به دون أمر من الطبيب . ومن المؤسف أن هذا المستشفى الضخم لم يكن به طبيب مقيم لمثل تلك الإسعافات السريعة . ولو أنه كان من الممكن الاتصال بالأطباء تليفونياً في بيوتهم القريبة من المستشفى . . كان هذا ممكناً نظرياً فقط . . لكنه لم يحدث إلا نادراً وعند الشدائد ، وقد حدثت معى مرة واحـــــدة فقط عندما أصبت ذات يوم بالاختناق نتيجة خطأ الطبيب ، الذى حقننى بجرعة مضاعفة من مادة مهدئة .

لم يفدنى الصراخ بالطبع إلا في التنفيس عن غضبى . وفى السادسة صباحاً حان موعد الحقنة المخدرة . . فهدأت آلامى واستسلمت للنوم .

استيقظت فى الثامنة صباحاً عندما دخل الدكتور كلارك حجرتى ليطمئن على العملية . . كان الألم محتملا ، ورأيت أصابع قدمى اليسرى بالعين المجردة لأول مرة بعد سنوات طويلة . . وكنت لا أراها إلا فى المرآة .

أحسست بفرحة عظيمة تملأ صدرى بالأمل . ونسيت آلام الليل وسخافة الممرضة الشمطاء . فهتفت مرحباً بالدكتور كلارك ، ومددت يدى أصافحه شاكراً على نجاح العملية . وعندما أمسكت

يده ضغطتها فى قبضتى بقوة .. فيها سعادة وامتنان .. فصاح مقهقهاً وهو يسحب يده من بين أصابعى :

ـــ أوه ... مدهش ...

وراح يفحص قدمى البارزة من الجبيرة ، ويتسمع النبض فيها ليطمئن على سلامة الشرايين بعد أن تمددت أيضاً .. مع شد الساق . لكنى لاحظت أن بعض أصابع قدمى مشلولة ، فطمأنى بشفائها مع الوقت عندما تنمو الأعصاب المقطوعة من جديد .. فتغذى المنطقة المشلولة . فسألته : كم سرعة نمو الإعصاب ؟

قال :

ـــ الأعصاب تنمو بسرعة بوصة فى الشهر تقريباً .

وبحسبة بسيطة إتضح لى أن الأعصاب المقطوعة عند الجرح فى الركبة .. لن تصل إلى أصابع القدم قبل شهور طويلة .. وقد كان . فقد استرددت إحساسى بأصابعى بعد سنوات .. لكنها لم تستعد حركتها الطبيعية .. على أى حال فإن حركتها لم تعد تفيدنى الآن .. لدرجة أنى نسيتها تماماً .

لم يحتمل قلبى تلك الفرحة الهائلة بعد أن أكد لى الطبيب نجاح العملية من جميع نواحيها . وأنهم سيرفعون الجبس بعد عشرة أيام .. وأبدأ بعدها فى تحريك ساقى لأول مرة بمفصل صناعى .

رفعت سماعة التليفون لأطلب الزميل القبانى .. وأزف إليه خبر نجاح العملية ، وكنت أعلم أنه مسافر فى نفس اليوم عائداً إلى

أرض الوطن ، لكنى وجدت الحرارة مقطوعة عن تليفونى حتى لا يزعجنى أحد .

بعد قليل مر الأخ القبانى بحجرتى ليودعنى قبل الرحيل ، وتمنى لى فى كلمات حانية صادقة أن يتحقق لى النجاح الذى فشل هو فى تحقيقه . وحملته رسالة مكتوبة إلى أهلى ، وأعطيته كل علب الشكولاتة والهدايا ليوصلها إلى أولاد أختى بعد أن ضننت بها على الممرضات الباردات !

كان أول من فكرت فيه هو الوالد الحنون الدكتور البطريق الذى لا شك أنه كان سيشاركنى فرحتى . فأسرعت أطلبه بالتليفون فى بيته . وكان يتأهب للحضور إلى المستشفى ليطمئن على نجاح العملية . وما كاد يسمع صوتى حتى صاح فى مزيج من الدهشة والفرح :

— هل أنت بخير ؟

— جداً . .

— لقد طمأننى الأطباء أمس بعد العملية على أنها تمت بنجاح وقد تطوع الدكتور سعد الدرس بحضور العملية وهو مرتاح للنتيجة . . مبروك .

قلت ممازحاً :

— إنهم يعملون الركبة الثانية اليوم حتى أمشى بسرعة .

فأجاب ضاحكاً :

— يارجل .. أصبر على رزقك ...

وضحكت . . من أعمق أعماقى . . ولم أكن أدرى أن هذه آخر ضحكاتى فى لندن!!

كانت الآلام المبرحة لا تنقطع ، ولا يرحمنى من هذا الجحيم إلا حقنة « الباثادين » وهو مخدر كالسحر . ما يكاد ينفذ فى فخذى حتى يقتل الألم فى خمس دقائق . ويسبح رأسى فى خدر لذيذ ، ولا يسعنى إلا أن أنام بعد الإرهاق العنيف .

أصبحت أتلهف على إبرة « الباثادين » كل أربع ساعات كمدمن الأفيون .. تتخللها فترات من الألم الرهيب . . والممرضة لا ترحم ، ولا تصغى إلى توسلاتى ، وإنما تستجيب لعقارب الساعة كأوامر الطبيب .

وفى نهاية الساعة الرابعة يصبح وجهى كقطعة من العذاب ينضح بالألم . ولا تلبث الإبرة الساحرة أن تعيد إليـــه ملامحه الطبيعية فى دقائق معدودة .

ولعلى لا أبالغ إذا قلت أنى أصبحت أتلذذ من وخز الإبرة التى تحمل فى أعقابها الراحة والخدر اللذيذ .

* * *

بعد عشرة أيام رفعوا الجبس فى حجرة العمليات تحت مخدر كامل . وأفقت منه لأجد ساقى ملفوفة فى أربطة عادية . ورأيت

الطبيب يحركها لأول مرة .. ولكن فى نطاق محدود.. ومصحوب بألم شديد .

طلب منى أن أحاول ثنيها بنفسى، فقبضت عضلاتى .. وتحرك كعبى فوق السرير بضعة سنتيمترات . توقف تحت ضغط الألم . وكان على الممرضة أن تساعدنى فى تحريكها ببطء من وقت لآخر لكنها كانت مشغولة بواجباتها الأخرى ، فإذا جاءتنى كل بضع ساعات ، أسرعت تحرك ساقى فى حركات متسرعة رعناء حتى تفرغ من واجبها الثقيل ..

ممرضات خصوصيات :

وأحياناً كانت تنسانى حتى فى موعد الحقنة المخدرة مهما ضغطت الجرس ، وأكاد أتمزق غيظاً ، ويقتلنى القهر وأنا حبيس فى حجرتى المغلقة .. بل مقيد فى سريرى يعتصرنى الألم المبرح الذى لا يطاق . فلا أملك إلا الأنين والإبتهال إلى الله أن يرفع عنى تلك المحنة القاسية .

وفى إحدى الأزمات الحادة . كنت أتضرع إلى الله أن يقبض روحى حتى يضع حداً لذلك الكابوس المستمر . وإذا بباب حجرتى يفتح فجأة ، وأهل منه وجه الدكتور البطريق على غير انتظار ، فقد كان الوقت ظهراً والممرضة قد انصرفت إلى فسحة غدائها وان تعود قبل ساعتين... كل دقيقة منهما دهر بأكمله...

فاجأنى الدكتور البطريق أثناء أنينى .. ولم أستطع أن أرد على تحيته .. فأقبل نحوى ملهوفاً وهو يسألنى عما ألم بى ... عزّت علىّ نفسى ، وغلبنى التأثر .. فرحت أضغط أسنانى بشدة حتى لا يفلت منى البكاء .

انزعج الدكتور البطريق الذى لم يعتد منى إلا الجَلَد والإبتسام . وبعد عناء استطاع أن يستخلص من كلماتى المرتعشة سبب إنهيارى . فأسرع غاضباً إلى الرئيسة ، وشكا إليها إهمال الممرضة . وطلب منها تعيين ممرضتين خاصتين تعملان على رعايتى بالتناوب ليلا ونهاراً .

كان هذا النظام معمولا به فى مستشفى « لندن كلينيك » . فإذا استدعت حالة المريض أن تقوم على خدمته ممرضة خاصة بناء على طلبه ، تتصل المستشفى بإحدى المؤسسات الطبية ، فترسل لها الممرضة المطلوبة نظير جنيهين فى اليوم .. الذى يبدأ من الثامنة صباحاً إلى الثامنة مساء . وإذا أراد المريض ممرضة أخرى أثناء الليل يدفع جنيهين آخرين ، وتأتى الممرضة الثانية ، فتتسلم النوبة من زميلتها فى الثامنة مساء ، وتسلمها فى الثامنة صباحاً .

هؤلاء الممرضات لا يرتدين زى المستشفى ، ولسن موظفات بها . وإنما ترتدى الواحدة منهن معطفاً أبيض فوق ردائها العادى . وهن مؤهلات مثل ممرضات المستشفى .. وهناك رجال أيضاً ممرضون بنفس الأجر والمؤهل .. كما أن استخدام هؤلاء الممرضات الخصوصيات لا يعفى ممرضة المستشفى من واجبها فى خدمة المريض .

ضمد الدكتور البطريق جراح نفسى . فازداد احتمالى لآلامى الجسدية .. التى كان مفروضاً أن تتضاءل مع الأيام ، فإذا بها لاتهدأ ولا تنكسر حدتها ، فقد كانت التمرينات الإجبارية لتحريك المفصل الجديد تشعل الألم الرهيب فى ساق . وكان المستر « هاو » يضطر إلى تنفيذ أوامر الطبيب بتوسيع مجال الحركة يوماً بعد يوم .

المصائب تتوالى :

من الثابت علمياً أن العوامل النفسية كالقلق والاكتئاب والانفعال الحزين .. تسبب أمراضاً عضوية .. وتزيد من وطأتها . وبما أنى كنت أتمتع سلفاً بعدد لا بأس به من هذه الأمراض .. وهى ضغط الدم وقرحة المعدة والروماتيزم .. فقد بدأت تنتعش وتثور فى تلك الفترة الكئيبة القاسية .

كان أولها ضغط الدم ، الذى بدأت بشائره قبل العملية نتيجة التغذية والعلاجات المقوية ، ثم زادته الحالة النفسية سوءاً .

وهاج الأخطبوط المستكين فى مفاصلى الكبرى ، وبدأ يزحف لأول مرة على مفاصل أصابعى ، فالتهبت وتورمت ، ولاحظت لأول مرة أن أظافرى تتكون تحتها مادة جيرية هشة . ثم تسقط وحدها . وعرفت من الطبيب أن هذه إحدى أعراض المرض الأساسى فى أطواره الشديدة . واعوجت أصابعى .. ، مع

آلام شديدة عجزت معها عن حمل القلم .. وانقطعت أسبوعين عن الكتابة إلى أهلى بعد أن كنت أكتب لهم عشرات الصفحات مسجلا فيها تفاصيل ما يجرى حولى .

انزعجت أشد الانزعاج . . وكنت أتطلع إلى أصابعى المتورمة الملتهبة فى يأس قاتل . . وأعاتب السماء التى سلبتنى السلاح الوحيد الذى تبقى لى لأكافح به قسوة الحياة . وتبدى لى المستقبل مظلماً بشعاً ، خاصة بعد أن مضى شهران ، ولم يحقق المفصل الصناعى أى نجاح . حتى شك الجراح فى الأمر . وقرر أن يصور المفصل بالأشعة ليطمئن على وضعه الصحيح داخل عظمتى الفخذ والساق .

مفاجأة فى صورة الأشعة :

ظللت أنتظر نتيجة صور الأشعة كآخر أمل يبشر بالنجاح . وفى اليوم التالى .. دخل الدكتور شيرز حجرتى وعلى وجهه مسحة من الكآبة وخيبة الأمل . وحاول أن يغتصب ابتسامة وهو يقول :

— عندى لك خبران . . أحدهما سار والآخر مؤسف . . فأيهما أسوقه إليك أولا . . ؟

إنقبض قلبى وأحسست ، كمن يتوقع إحالة أوراقه إلى المفتى ، وقلت فى ضحكة شاحبة :

— هات الخبر السار أولا فلعله يخفف من وقع الآخر . .

قال :

— لقد عرفنا سبب آلامك الشديدة طوال الشهرين الماضيين ، وعرفنا لماذا لم تتحرك ساقك كما كان متوقعاً لها . . . وبالتالى سوف نحاول تصحيح الخطأ . .

إرتاحت نفسى لهذا الخبر ، لكن توقعى للخبر السيء حد من اندفاعى فى التفاؤل ، فقلت متصنعاً الشجاعة :

— وماعساه أن يكون الخبر السيء ؟

فأخرج لى صورة الأشعة ، وقال وهو يعرضها أمام عينى :

— لقد انفلتت إحدى ذراعى المفصل الصناعى من مكانها داخل عظمة الساق . . وأصبح المفصل بالتالى عديم الفائدة . . وهو جسم صلب يضغط على الأعضاء الرخوة المجاورة له عند تمرينات الحركة الإجبارية . . وهذا هو سبب الألم . .

ثم ابتسم كمن اكتشف أمريكا ، فلم يجد صدى لفرحته على وجهى الحزين ، وقلت وأنا أتأمل صورة الأشعة التى تجسم فيها فشل التجربة التى دامت شهرين قاسيين :

— وما سبب خروج المفصل من مكانه ؟

— هناك احتمالان . . إما أن يكون العظم ضعيفاً لتعطله عن أداء وظيفته طوال تسعة عشر عاماً ، فلم يحتمل المفصل المعدنى وإما أن يكون أخصائى العلاج الطبيعى قد أفرط فى ثنى الركبة مما أخرج ذراع المفصل من مكانها . .

قلت :

— أعتقد أن الاحتمال الثانى ضعيف . لأن الركبة لم تصل فى انثنائها إلى زاوية قائمة .. التى هى أقل مكان ممكن لوضع الجلوس.

مط شفتيه وقال :

— يجوز ..

عدت أقول :

— أليس هناك احتمال ثالث فى أن هذه الذراع من المفصل لم تدخل أصلا فى عظمة الساق ؟

قال مرتبكاً وهو يرفع ابهامه فى الهواء :

— كلا .. كلا .. لقد ضغطتها بإبهامى هذا أمام الدكتور كلارك .

— وما هو الحل الآن ..؟

قال متألماً :

— آسف جداً أن أصارحك بإنه يجب إجراء عملية أخرى فنعيد فتح الركبة .. ونختبر العظمة .. فإما أن تكون متينة فنعيد المفصل المعدنى إلى الوضع الصحيح .. وإما أن تكون ضعيفة ولا يرجى أن تحتمل المفصل المعدنى ، فننزعه و نعيد لصق عظمة الساق بعظمة الفخذ .

— وهل هذا ممكن ؟

— ممكن .. خاصة وأن عظامك تتميز بنشاط زائد فى خاصية الالتصاق .

— وهل ستعود ساقى كما كانت تماماً .. ؟

ـ نعم .. لكنها ستقصر عن الأخرى قليلا ...

ـ معنى هذا أنى لن أستطيع أن أعتمد عليها .. عندما أنتقل من السرير إلى الكرسى المتحرك مستنداً إلى العكازين ؟ .. ولن أستطيع أن أتكىء عليها إذا جلست على طرف السرير .. ؟

ـ نعم للأسف ...

ولما رأى خطوط الأسى ترتسم على وجهى ، قال متألماً :

ـ أنا آسف لهذه النتيجة .. ولكن هذه ليست غلطتى .. وليست عيباً فى المفصل نفسه .. إن عظامك الضعيفة هى السبب. بدليل أننا أجرينا نفس العملية فى نفس اليوم لزميلك المصرى الكابتن ممدوح . وها أنت تراه الآن يحـــرك ساقه ويأتى إلى حجرتك ماشياً .

كدت أقول له إنه المسئول رغم دفاعه هذا . . لأنه كطبيب كان يجب أن يعرف حالة عظامى قبل أن يغامر بإجراء العملية . وتذكرت مناقشة لى مع طبيب مصرى كان فى زيارة للندن حينذاك ، وهو الدكتور سعد عمر كبير الجراحين بالمستشفى العسكرى بمصر. تذكرت كيف كان غير مقتنع بالعملية بعد هذه الفترة الطويلة من تيبس مفاصلى وتعطلها . لكنى فى نشوة الأمل لم أكن أصغى لأى تشكك قد يمنعنى عن التجربة التى كانت بمثابة الأمل الأخير الذى عشت أترقبه سنين طويلة .

كدت ألوم الدكتور شيرز ، وأواجهه برأى الطبيب المصرى ،

لكن الكلمات وقفت فى حلقى أمام ملامحه الآسفة . ولهجته المهذبة .. وقدرت فيه الصراحة رغم مرارتها .

القرحة تنزف :

أنشب الألم أظافره فى معدتى ، فحرك أحزانها القديمة ، وراحت تنزف دموعها القانية بغزارة . وأخذت تقذف دماءها الداكنة من فتحتى الجهاز الهضمى .. عند منبعه ومصبه . وبالتالى تعطلت شهيتى للأكل تماماً ، نتيجة لإحساسى الدائم بالغثيان .

انزعج الأطباء لبوادر الهزال التى بدأت تظهر بوضوح على وجهى الشاحب ، الذى غارت وجنتاه بعد انتفاخ . وبعد أن كانت بطنى تشكل هضبة مرتفعة ، أخذت تنكمش على نفسها حتى صارت منخفضاً يمكن أن يستقر فيه الماء .. إذا وجد إليه سبيلا .

كان هذا الهزال الشديد يعنى تأخير العملية الثانية . فاستدعوا طبيباً كبيراً قدموه لى مسبوقاً بلقب « سير » ، ومتبوعاً بقلب طبيب « جلالة الملكة » . كدت لا أصدق تلك الهالة الضخمة التى أضفوها عليه . لكنى اقتنعت تماماً فيما بعد عندما عرفت أنه قدم « فاتورة » بأتعابه قدرها عشرين جنيها !! رغم أنه لم يمكث فى حجرتى سوى ربع ساعة فقط .

حمدت الله على أنه لم يوصى بعلاج جراحى للمعدة أيضاً . ولو

أن الأدوية والعقاقير لم تفد فى التئام القرحة تماماً ، إلا أنها أوقفت النزيف الحاد ، وأسكتت المغص بالمسكنات المؤقتة .

حلقة اليأس :

صمم القدر أن يحكم حلقة اليأس حول رقبتى ، ليخنق آخر شعاع الأمل أعيش عليه . فقد أهدانى الطبيب المعالج الدكتور مايسون ، كتاباً من تآليفه عن مختلف أنواع الروماتيزم . وهو الذى نوهت عنه من قبل ، والذى استشهدت به على أن داء التصاق المفاصل لا يصيب إلا الظرفاء !! .

لكن هذه الفقرة لم تسعدنى حينذاك ، فقد أفسدت فرحتى بقية الفقرات الميئسة . والتى جاء فى إحداها أن هذا الأخطبوط اللعين إذا طال نشاطه فى جسم الضحية ، فإنه قد يغزو عينيه .. ويصيب الحدقتين فيحجب الرؤية .. ويحبس ضحيته فى سجن مظلم بعد أن يقيده تماماً كما يفعل العنكبوت فى ذبابة مستكينة .

ثم جاءت العملية الثانية لتدق آخر مسمار فى نعش التجربة المشئومة ، فقد أجمع رأى الأطباء الذين فحصوا الركبة من الداخل ، على أن العظام لا تحتمل إعادة المفصل المعدنى النادر ، فانتزعوه من مكانه . وأغلقوا الجرح على أملى المفقود ، وأهدونى المفصل المعدنى لأحتفظ به كتذكار لأعظم خيبة أمل صادفتنى فى حياتى .

التقرير النهائى :

قدم الدكتور أوزموند كلارك للدكتور البطريق ، تقريره النهائى بصفته رئيس فريق الأطباء المتعاونين فى العلاج. جاء فيه :

« يجب أن أقرر الآن أننا اضطررنا أن نعدل عن البرنامج الطموح الذى كنا نأمل أن نتمكن من تحقيقه للسيد صبحى الجيار.

لقد وجدنا أنه ليس من الحكمة أن نستمر فى إجراء العمليات الجراحية للركبة الثانية ولمفصلى الفخذين ، بسبب الصعوبات التى صادفناها فى عملية التخدير ، وحالته الصحية العامة فى أثناء وبعد عملية التخدير العام . ولأنه اتضح أن عظامه كانت لينة للغاية بحيث لا تحتمل وضع المفصل المعدنى فى مكانه ثابتاً . وبعد المداولات الجادة المتأنية بيننا ، شعرنا جميعاً بأن أفضل حل هو إزالة المفصل المعدنى ، وإعادة تثبيت الركبة ، وقد أتممت هذا بنفسى فى يوم ١٩٥٩/٨/٥ . وعندما يتم التئام الركبة ، نأمل — الدكتور ما يسون وأنا — أن نهيء له كرسياً خاصاً ونزوده ببعض النصائح التى تجعل حياته أكثر احتمالا .

إنى فى غاية الأسف حقاً لأننا لم نتمكن من أن نعمل المزيد من أجل هذا المريض الذى كان فى منتهى الشجاعة والتعاون . والذى عمل كل ما فى وسعه لإنجاح العملية » .

هذه هى الترجمة الحرفية لتقرير الدكتور أوزموند كلارك .

الذى اتضح منه – كما عرفت فيما بعد – أن حياتى تعرضت للخطر فى أثناء عملية التخدير قبل إجراء الجراحة ، لأن قفصى الصدرى ثابت متيبس مما يجعل التنفس يتم بواسطة تمدد الرئتين عن طريق الفراغ البطنى . ويبدو أن هذا غير ميسور أثناء التخدير .

بداية النهاية :

إنهارت معنوياتى تماماً . وتحولت إلى إنسان آخر ما كنت أتصور أن أكونه يوماً ما ، وأكاد أنكره الآن وأنا أقرأ هذه السطور ، فى رسالة حزينة كتبتها إلى أهلى بعد أن فشل العلاج نهائياً ، وقرر الأطباء عودتى إلى بلدى بعد أن تلتئم الركبة ، أو على الأصح مكان الركبة .. بعد ستين يوما ..!!

تقول سطور الرسالة :

« .. يخيل لى أنى انتهيت كإنسان .. لقد أصبحت مخلوقاً آخر غير الذى تعرفونه .. مخلوق محطم لا أمل له فى الحياة . لقد اتضح لى أن الأمل هو الحياة نفسها .. حتى ولو كان أملا وهمياً .

كان موضوع سفرى وعلاجى فى الخارج أملا بعيد الاحتمال .. ومع ذلك كنت أعيش عليه .. متوقعاً أن أسير على قدمى يوماً ما . أما الآن .. وبعد أن تأكدت أنى سأقضى حياتى كلها على السرير .. مهدداً بازدياد المرض .. على أصابعى والفك والعينين .. إنهارت معنوياتى وزهدت الدنيا بأكملها .. التى لم يعد

فيها الآن شيء مادى يغرينى .. لا أشتهى الطعام رغم تنوعه هنا .. الفاكهة الفاخرة التى كنت أحبها تظل ملقاة أمامى حتى تعطب ، حتى أقوى غرائز الإنسان .. وعندى أنا بالذات .. هذه الحاسة ماتت فى جسدى الآن .. وعيونى تكاد تخذلها الدموع عندما أطالع رسائلكم الحانية وأفتقدكم .

لا تذكرونى بالرجولة والشجاعة ، فأى رجل يقبل أن يعيش حياته جثة ملقاة على السرير ؟ عاجز اليدين والساقين .. وربما النظر أيضاً ..

إنها رجولتى هى التى تأبى علىّ هذا الوضع المهين ! »

إنتهت كلمات الرسالة السوداء ..

* * *

وأنى لأدهش الآن كيف خط قلمى هذه العبارات المتشائمة . المفرطة فى اليأس والقنوط . لا شك أنها صورة صادقة لما كنت أعانيه فى تلك الأيام . لكنى فى غمرة المأساة نسيت شيئاً هاماً .. فوق اليأس .. وفوق العذاب .. وفوق تقدير الإنسان .. لقد نسيت عدالة السماء .. التى لا تظلم أحداً ..

أستغفرك يا رب .. لقد نسيتك فى محنتى .. لكنك لم تنسنى . لقد كنت سبحانك تدخر لى من ينبوع رحمتك ما لم أكن أحلم به.

الإستعداد للمستقبل :

بينما كانت السماء تدخر لى الخير العميم ، كانت عقولنا البشرية القاصرة تستعد لاستقبال أسوأ الظروف .

قال الدكتور كلارك بصراحته المعهودة :

– إسمع يامستر جيار . . إن لدينا مثلا انجليزياً يقول « علينا أن نعد العدة لأسوأ الظروف ، بينما نأمل فى الأحسن » وعلى هذا سوف نجهز لك بعض الأدوات والأجهزة التى تعينك على حياة أفضل . وسوف نأتى لك بخبير فى شئون المعوقين ليدرس حالتك، ويقرر ما يلزم لك .

بدأ الخبير يجلس معى كل بضعة أيام ليناقشنى فى الحركات الضرورية التى تعيقنى القيود المرضية عن آدائها . وكان يأتى لى فى كل مرة بأدوات ومعدات لأجرب استعمالها أمامه فإذا ماأدت الغرض المنشود . أنتقل إلى التفكير فى غيرها . وأمام عينيه المستقبل البعيد ، مفترضاً أن المرض سينتشر إلى مالا نهاية .

وأخيراً جاءنى بصندوق خشبى أنيق ، يحوى هذه الأدوات منسقة فى نظام بديع . . كان فى مقدمتها شوكة وملعقة كل منهما لها يد طويلة . وهذه الفكرة كنت قد حققتها فى مصر قبل سفرى. وكان فى الحقيبة أيضاً فرشاة أسنان ، وماكينة لحلاقة الذقن ، وفرشاة للذقن أيضاً . ومشطاً وفرشاة للشعر ، وأسفنجة للحمام وسماعة للتليفون . وكلها ذات أذرع طويلة .. حتى أستطيع استعمالها عندما يتوقف مفصل الكوع عن الحركة .

والعجيب أن هذا الصندوق لم أستخدم منه شيئاً حتى الآن . فإن أدواته ليست عملية على الإطلاق . وقد دفعتنى احتياجاتى

الحقيقية إلى ابتكار أدوات أخرى تيسر حركاتى الضرورية . فقد ركّبت ذراعاً أنيقة لسماعة التليفون العادية بحيث أصبحت قادراً على استعمالها ، كذلك ابتكرت مرآة صغيرة لها ذراع طويلة أرى فيها أى مكان خلفى أو بجوارى مما تعوقنى عنه رقبتى المتيبسة . أما فرشاة الأسنان فكانت مثبتة فى ذراع معدنية ، فابتكرت ذراعاً خشبية خفيفة يمكن تغيير الفرشاة بها كلما استهلكت الفرشاة.

كذلك صنعت بيدى عصيّا رشيقة لمختلف الأغراض. الطويلة ذات الطرف المعوج أحك بها مالا تصل إليه يدى من أجزاء جسمى .. والقصيرة مع المنديل أمسح بها وجهى وعينى .. وبإضافة عصا أخرى أستطيع أن أفرغ محتويات أنفى فى المنديل .

أما تمشيط شعرى وحلاقة ذقنى ، فلا تُجدى فيهما أية أداة .. لذلك تتولى الأخت نعمات هذه المهمة بمهارة فائقة .

كذلك صمم لى الخبير كرسياً متحركاً يسير بالكهرباء . ويمكن للجالس عليه أن يقوده بسهولة بواسطة ذراع بسيطة ، يتحكم فيها بأقل مجهود . . أو دون أى مجهود . وبحركات معينة سهلة يسير الكرسى إلى الأمام . . وإلى الخلف . ويدور يميناً ويساراً . . ويقف فى لحظة .

وقد أحضرت هذا الكرسى السحرى معى إلى القاهرة دون أن أجربه ، لأنى كنت مشدوداً فى الجبس لآخر لحظة . وبعد فك الجبس بشهور فى القاهرة ، لم أستطع الجلوس على الكرسى

الكهربائى . لأن جسدى اليابس لا يتشكل حسب خطوطه الهندسية ولم يستفد به غير أولاد أختى ، الذين كانوا يستمتعون بقيادته الميسرة ، ويتجولون به فى أنحاء البيت . وعندما تأكدت بعد عدة تجارب أنى لن أستفيد منه ، أهديته لأحد نزلاء مستشفى الأمراض المستعصية بحلوان .

كذلك صمم لى الخبير لوحة من الخشب الفخم تتحرك على قاعدة مدرجة . وهذه القاعدة ترسو على أربعة قوائم تستقر على على جانبى جسمى فوق السرير . وكان الهدف منها أن تيسر لى الكتابة والقراءة . لكنها لم تأت بالغرض منها . . إذ أن ذراعى لم تصلا إليها فى أى وضع . ولم ترحنى سوى اللوحات الخفيفة من خشب « الأبلكاج » . . والتى أكتب وأرسم عليها كل إنتاجى .

أما القراءة فأمرها سهل إذا كان الكتاب خفيفاً . . وإذا كان ثقيلا فلا أحتاج إلى أكثر من بضع حركات رياضية خفيفة كل عدة دقائق ، أطرد بها الإرهاق عن مفصلى المرفقين . وهو ما يحدث بالنسبة للوحة الكتابة . إذن فلم تكن هناك مشكلة — إلى الآن — بالنسبة للقراءة والكتابة . . فإنى بحمد الله أستطيع أن أمارسهما ساعات طويلة . . تتخللها دقائق قليلة من الراحة .

أما آخر جهاز أتيت به من لندن ، فكان السرير المتحرك ، ولم يكن هذا من ابتكار الخبير . لكنه كان نسخة طبق الأصل من

السرير الذى أمضيت عليه خمسة أشهر فى لندن . ويوجد منه فى معظم المستشفيات .

قاعدة هذا السرير عبارة عن ثلاث قطع متحركة ، فالظهر يرتفع وينخفض بسهولة بواسطة يد معدنية ، والجزء الأسفل من السرير ينخفض بالساقين بنفس الطريقة . وبهذا يتيح لى وضعاً أكثر راحة من الوضع الأفقى .

لكنى بعد عودتى إلى وطنى .. عادت معنوياتى تحلق عالياً . فلم تسمح لى كبريائى العنيدة بأن أقضى حياتى على سرير المرضى هذا . فانزوى السرير فى ركن من البيت بعيداً عن غرفتى . وفكرت فى إهدائه لإحدى المستشفيات الخيرية .

وفى سنة ١٩٦٢ نزفت معدتى للمرة الثالثة . وكان من ضمن توصيات الطبيب الحتمية ألا أظل فى الوضع الأفقى حتى لاتزداد حالة معدتى سوءاً ، ففكرت فى استخدام السرير المتحرك . ولكن بطريقة ترضى مشاعرى . فهدانى تفكيرى إلى حل لطيف .. قطعت قوائم السرير المتحرك وأزلت عجلاته حتى لا يبدو عالياً عن المألوف فى أسرة الأصحاء ، وأزلت الشباكين الحديديين منه . ثم أسقطته بداخل سريرى الخشبى ، بعد أن كيفه النجار بالتعديلات المناسبة ، بحيث لم يعد يظهر شىء من السرير الحديدى المتحرك.

وبهذا أصبحت الآن أتمتع بميزات السريرين .

التخطيط للمستقبل العملي :

كما كان ذهني مشغولا في تلك الفترة بالمستقبل المظلم ، وحرصي على أن أعد له الآلات المعوضة للقيود المتزايدة . كذلك كنت أفكر في عملي وكيف أنميه . وأطرق أبواباً جديدة للرزق ووضعت حلولاً عملية لكافة الاحتمالات . ومنها تعليم « نعمات » الكتابة على الآلة الكاتبة حتى إذا تعطلت يدى عن حمل القلم أستطيع أن أملي عليها إنتاجي .

لعل هذا التفكير يبدو عجيباً من إنسان يائس . ولكن هكذا أجد نفسي دائماً أخطط المستقبل ، ولا أعتمد على الحظ والصدفة . ولعل من عيوبي المتعبة أني دائماً أحمل هم المستقبل البعيد ، وأفكر فيما عساه أن يحدث بعد عشرين عاماً أو ثلاثين !! رغم أن الأيام علمتني أن المستقبل مليء بالمفاجآت التي تحطم كل التقديرات البشرية ، فإن صورة المستقبل التي رسمتها في صباي لم يتحقق منها شيء في شبابي . وما توقعته من مخاوف في بداية القيود ، أثبتت الأيام أنه مجرد أوهام . وها أنذا الآن أسخر مما تخيلته في فترة المحنة اليائسة .

ورغم تفاؤلي وطموحي الذي يصل إلى حد الخيال أحياناً ، فإني دائماً قلق على مستقبلي . . وأسعى جاهداً لتوفير الضمانات له ، مما يرهق أعصابي ويستنفد جزءاً من راحة بالي .

لعلني اكتسبت بعض هذا القلق بمعاشرتي الطويلة للوالد . ولكن

الأرجح أن القسط الأكبر منه أكسبتنى إياه ظروفى الخاصة . فإن أسلحتى فى الحياة محدودة . . لا شهادة جامعية تكفل لى وظيفة ثابتة . . ولا معاش يؤمن شيخوختى ، ولا نقابة ترعانى إذا عاقتنى القيود عن ممارسة عملى . ولا أبناء يتكفلون بى عندما أحتاج إلى سند فى الحياة .

هذا بجانب قيودى التى تعوقنى عن شغل وظيفة ثابتة ، لعدم قدرتى على الإنتقال إلى مقر عملى . ولم أجد حتى الآن (١٩٦٧) مؤسسة فى القطاع العام أو الخاص تقبل استخدامى بصفة ثابتة . . لسبب بسيط وهو أنى لا أستطيع أن أوقع فى دفتر الموظفين !!

بجانب هذا فإن أعبائى ثقيلة . . لأنى محتاج لجهود الآخرين فى عملى ، وفى حياتى الخاصة ، حتى أعوض ماكان يجب أن أقوم به بنفسى ، وهذه الجهود لها ثمن . هذا بجانب استنفاد جزء كبير من دخلى فى الأدوية الدائمة ، التى أحاول السيطرة بها على قائمة الأمراض المزمنة التى ابتليت بها .

فإذا أضفت إلى هذه المبررات أنى لا أتصور ولا أحتمل أن أقترض قرشاً ، أو أكون عالة على غيرى مهما كان ، فإن هذا وحده قد يفسر سبب قلقى وحرصى على تأمين مستقبلى .

إن الفرق بين تفكيرى القلق وبين تفكير والدى ، أنه — رحمه الله — كان يفكر فى تشاؤم وسلبية مستكينة . أما أنا

فأفكر دائماً فى إيجابية متفائلة ، قوامها تذليل العقبات المتوقعة وفتح مجالات الرزق .

كان إيمانى قوياً بأن الصحافة التى أفردت الصفحات الطويلة للكتابة عنى . . لن تضيق صفحاتها عن استيعاب إنتاجى . وأن المواطنين الذين تتبعوا أخبارى باهتمام . . سوف يهتمون بأن يقرأوا لى بعد أن قرأوا عنى الكثير . . وأن وزارة الثقافة التى صرفت بسخاء على علاجى ، سوف تكفل لى حق العمل فى مجتمعنا الاشتراكى الجديد .

لكن كل هذا كان متوقفاً على مدى نشاطى وكفاءتى، وقدرة إنتاجى على الصمود فى ميدان المنافسة الحرة . فإن هؤلاء جميعاً ان يقفوا بجانبى إن لم أكن أهلا لذلك .

بدأت نشاطى فعلا فى لندن . فكتبت أربع قصص ، كان يغلب عليها الجو القاتم . لكنها على أية حال تصور بعض جوانب النفس البشرية فى ظروف معينة .

هذا بخلاف مقالات « آخر ساعة » ، ورسائلى المطولة إلى أهلى والتى كانت بمثابة مذكرات مفصلة سجلت فيها تلك الفترة. والردود على رسائل الأصدقاء . واللوحات التى رسمتها بالقلم الرصاص . وأهديت بعضها إلى الأطباء الذين أعجبوا بها .

أما فى الترجمة فقد أهدى إلىَّ الأخ عبد الله البشير مجموعة من

الكتب القيّمة تضم مختارات من القصص الإنجليزية القصيرة . بدأت فى ترجمة بعضها ، استعداداً لنشره فى المجلات المصرية .

حقاً إنه محصول ضئيل بالنسبة لتلك الفترة الطويلة . لكن إذا حذفنا منها فترة تعطيل أصابعى عن الكتابة ، وفترات التخدير المتتابع بالحقن المسكنة ، لوجدنا أن الوقت الضائع ليس طويلا . وقد قضيته بين القراءة، والتليفزيون، والملل ، واستقبال الزائرين ، ولعب الشطرنج .

انتظار . . وملل :

بعد العملية الثانية . وضعوا ساقى فى الجبس حتى تلتئم . . ولم يبق أمامى غير الإنتظار الممل الطويل . . . يزيد من وحشته الحنين إلى الأهل والوطن ، ويزيد من قسوته أنه بلا أمل . . ولا هدف . مجرد فترة سجن مزدوج . . . سجن فى بلد غريب وسجن داخل الجبيرة الثقيلة التى تشدنى إلى السرير ليل نهار ولا تسمح لى بالدقائق التى كنت أريح ظهرى فيها على الكرسى المتحرك قبل تلك الرحلة المشئومة . فضلا عن أنها تضطرنى إلى إفراغ أمعائى فى وضع أفقى . . وهى العمليـــة المقيتة التى تشعرنى بكل المهانة لإنسانيتى وكبريائى .

كنت أعد الوقت بالساعات والدقائق ، فإذا ما اقتربت عقارب الساعة من التاسعة مساء ، أطلب من الممرضة قرصين

من « السوكانال » وهو منوم قوى . وذلك حتى أختصر بقية اليوم .. وأسقط يوماً آخر من أيام سجنى .

وكنت أثناء النهار أحاول أن أتغلب على الملل بقراءة المجلات الانجليزية .. والكتب القصصية ، ومنها مجلدين يحويان كل أعمال سومرست موم ، ومجلدات فى فن الكاريكاتير ، وكذلك الكتب المصرية التى اصطحبتها معى من القاهرة .. وبعض الكتب فى دراسة إتقان اللغة الإنجليزية التى أهدانى إياها الدكتور البطريق ، وكذلك الجرائد والمجلات المصرية التى كانت تصلنى بالبريد بانتظام عن طريق متعهد إنجليزى . وكانت هذه الجرائد والمجلات هى كل ما يربطنى بوطنى وأخباره ، لأن إذاعة القاهرة لم يكن يلتقطها الراديو المحلى الموجود فى حجرتى ، وقد حاولت جاهداً أن أشترى راديو ترانزستور يتناسب مع ميزانيتى ، فاتضح أنه لا يلتقط الإذاعات البعيدة . وجاءنى الأخ الفلسطينى إبراهيم أباظة بجهازه الكهربائى . لكنه كان معطوباً ويحتاج إلى مهارة وذكاء لضبط الموجة المطلوبة . ولما كانت المهارة والذكاء ليستا من صفات الانجليز ، فقد كانت الممرضة تفشل فى العثور على الصوت العربى الحبيب ، فاعدت الراديو لصاحبه .

التليفزيون :

كنت قد علمت قبل سفر الزميل القبانى أن الحجرة المجاورة

بها جهاز تليفزيون . وبعد البحث والتقصى إتضح أن هناك نظاما خاصاً لتأجير جهاز التليفزيون نظير جنيه ونصف أسبوعياً . وفكرنا أن نشترك - القبانى وأنا - فى استئجار أحد هذه الأجهزة التى لم نرها من قبل . لكنه سافر قبل تحقيق الفكرة .

ولما سمع الدكتور مايسون بمحاولتى هذه ، طلب من إدارة المستشفى أن تضع أحد أجهزة التليفزيون فى حجرتى . وفى دقائق أقبل عمال الكهرباء وثبتوا الجهاز أمامى . وعلمت أن المستشفى ذاته يتبع نظام التأجير لنزلائه .

كان الجهاز السحرى عبارة عن صندوق كبير من طراز قديم ، لكن صورته كانت واضحة تماماً . وقد قام بدور فعال فى التسرية عن نفسى الحزينة ، ولا أغالى إذا قلت إنه كان يلهينى أحياناً عن آلامى النفسية والجسدية . حتى أنى كتبت فقرة ضمن مقال « خواطرى فى لندن » بعنوان « مخدر جديد » قلت فيها :

« أخيراً .. وبعد تسعة عشر عاماً من الحرمان الطويل ، رأيت السينما .. من الأفلام التاريخية العريقة .. إلى رعاة البقر وميكى وماوس . ودخلت المسرح وشاهدت مسرحية تحكى تاريخ الثورة الفرنسية ، واقشعر جسمى وأنا أرى المقصلة تطيح برأس دانتون . واستمتعت برقص الباليه .. تؤديه أجسام طرية ناصعة . وأجسام أخرى سوداء ترقص فى جنون على نغمات الروك والتشاتشا .

وشاهدت مباريات فى كرة القدم والجولف والتنس .
واشمأزت نفسى من الصراع الوحشى حول ألقاب البطولة فى الملاكمة .

وطرت مع الصواريخ فى رحلات إلى عالم الفضاء ، وغصت مع العلماء إلى أعماق المحيطات . وعدت أتسلق مع المغامرين قمم الجبال . وعشت مع وحوش الغابة فى السيرك .

وفوق كل هـذا وذاك رأيت – لأول مرة — زعيمنا الحبيب جمال عبد الناصر يخطو أمامى بجسده العملاق وبسمته المشرقة ، وقامته التى لا تنحنى .

كل هذا لم يكن حلماً أو هذياناً .. وإنما رأيته على شاشة « التليفزيون » وأنا راقد فى لندن كلينيك ، وساقى مشدودة أمامى فى كتلة من الجبس .

لقد لجأ الطبيب إلى هذه الطريقة اللذيذة حتى يلهينى عن الآلام المبرحة الناتجة عن نشر عظامى .. إنها طريقة لتخدير الذهن وتوجيه انتباهى إلى شاشة التليفزيون ، لأن الاستعمال المستمر للعقاقير المخدرة يؤدى إلى الإدمان .

بشرى للمتألمين والمهمومين .. فبعد شهور يدخل المخدر الجديد إلى بيوتنا المصرية » .

وبعد هذا المقال بعام واحد كنت أشاهد الشاشة الساحرة فى بيتى بالقاهرة .

الشباب والجنس :

يذكرنى الحديث عن التليفزيون بندوة أسبوعية كانت تعرض فى التليفزيون الإنجليزى كل يوم أحد ، ويظهر فيها أحد رجال الدين يجلس بين مجموعة من الشباب فى وقار بياقته المنشاة الناصعة وبذلته العصرية الأنيقة . وتلتف حوله الفتيات والشبان فى أوضاع متداخلة مبتذلة .

وتبدأ المناقشة حول الجنس دائماً . . فهو موضوع الساعة . إن الصداقة فى انجلترا تتخذ طابعاً سهلا مرحاً لا تعقيد فيـــه ولا قيود ، وللفتاة مثل حرية الرجل ، بدون حدود ! لهذا يواجه رجل الدين مشاقاً جمة فى سبيل الحد من هذه الحريات الخطرة . . ولكن بلا جدوى .

أذهلتنى المناقشات الصريحة فى الندوات التليفزيونية ، عندما تنفرج شفتان أرعشتهما الرغبة والانفعال ، فتقول صاحبتهما الحسناء :

— . . وهل تظل الفتاة عذراء حتى سن الزواج ؟ !

ولا يصعق القسيس لهذه الجرأة ، فقد تعودها ، وإنما يبتسم فى وقار ، ويقول فى هدوء :

— طبعاً يا بنيتى . . خوفاً من إنجاب أطفال غير شرعيين !

وينفلت مراهق صفيق ليحل المشكلة بقوله :

— هناك طرق كثيرة لتفادى هذا الخطر . .

ويعود رجل الدين يدلى بمعلوماته الطبية فى تفنيد هذه الطرق وتخطئتها . وهنا تخرج إحداهن عن هدوئها ، فتهتف فى انفعال يخالطه العجب :

— وكيف إذن يختبر كل من الزوجين صاحبه جنسياً . . تفادياً لفشل الزواج من هذه الناحية ؟

ولا يعدم الرجل الحليم الهادىء وسيلة لإقناع هؤلاء الشياطين فيقول :

— . . مشاعر الرجل قبل الزواج تختلف عنها نفسياً بعد الزواج . . وما ينجح فيه أولا . . قد يفشل فى أدائه فيما بعد . . والعكس صحيح .

وتدور المناقشة على هذا المستوى من الحرية والتبجح . . وليتها كانت بين جدران مقفلة . . بل على مرأى ومسمع من الملايين ، ولو لم أرها بعينى رأسى ما صدقتها . . !

وقد أدت هذه الحرية المطلقة التى تطالب بها الفتيات إلى مشكلة لا يقع عبؤها إلا على رأس الفتيات بالذات . وهى أزمة الزواج التى لاحظتها بوضوح ، وناقشتها مع بعض الإنجليز من الشباب والشيوخ . وقد صادفت الكثيرات ممن تعدين الثلاثين ، وما زلن عوانس . . ولا أقول عذارى ! !

كان ضمن من ناقشتهم فى هذا الموضوع شاب فى الثامنة والثلاثين ،

إيراده يرتفع فوق الخمسين جنيها ، يعيش وحيداً ، لا يعول أحداً ، ويملك شقة فخمة فى لندن . لم يتزوج ولم يفكر فى الزواج . . سألته فى هذا فقال ببساطة :

— عندنا مثل إنجليزى يقول . «لماذا تقتنى بقرة مادام اللبن مجاناً . . ؟»

قلت لنفسى بعد أن هضمت المثل : له حق . . مادام الشباب يستطيع أن يحصل على لذة متجددة بلا مقابل . . ولا مسئولية ، فلماذا يقيد نفسه طائعاً مختاراً ؟

بين البرد والحر والرطوبة :

فى الأسابيع الأولى التى قضيتها فى لندن . كان الجو شتوياً لا ينقطع فيه الضباب والرعد والبرق والمطر . ولم أكن أحفل بهذه التقلبات الجوية مادمت مستمتعاً بالدفء تحت الأغطية ، وفى حجرة مكيفة بجهاز التدفئة المركزية .

وظننت أنى سأهرب من نار الصيف فى القاهرة فى ذلك العام ، فإن صيف لندن، كما سمعت، معتدل . ولكن من أجل أن تكتمل تعاستى — وأنا من أعدى أعداء الحر — تشاء الصدف أن تجتاز لندن صيفاً حاراً ذا رطوبة عالية ، تجعله خانقاً كئيباً . ورغم أن الترمومتر الجوى المعلق فى حجرتى كان يشير إلى ٢٥ درجة مئوية فقط، إلا أن الرطوبة كانت تجسم الإحساس بوطأة الحرارة .

وقد عجبت عندما قرأت فى تقرير رجال الأرصاد أن هذا الجو الحار لم يصادف إنجلترا منذ اثنتين وعشرين عاماً . . !

وأعجب من هذا أن الإنجليز كانوا فرحين جداً بهذا الجحيم ، ويخرجون بالملايين إلى الشاطىء فى أجازة نهاية الأسبوع حيث تصبح شوارع لندن قفراء خالية .

ولاحظت أن كل الممرضات والأطباء يعودون بعد الأجازة التى تستغرق يوماً واحداً أو اثنين ، وقد حرقت الشمس جلودهم وسلخت أنوفهم . . تلك الشمس التى أطلت عليهم بعد اثنتين وعشرين عاماً من الدلال . . وفيما بينها فالبرق والرعود والمطر أشياء عادية ومألوفة فى عز الصيف ، والثلج فى يونيه لا يدهشهم !

لهذا يتلهف الإنجليز على تلك الشعاعات الذهبية التى نزهد نحن فيها ، وتنتشر نساؤهم بالمايوهات على أسطح المنازل . وهناك أغنية مشهورة للفنان المعروف نويل كوارد تقول « إن الكلاب المجنونة والإنجليز هم فقط من يخرجون تحت شمس منتصف النهار »

وشهد شاهد من أهلها !

* * *

كان الجو الحار والملل يدفعانى إلى الخروج بسريرى إلى حديقة السطح « الروف جاردن » التى تقع فى الدور الخامس من المستشفى حيث يتناثر المرضى وضيوفهم . وهم خليط عجيب من مختلف الجنسيات . أقلهم عدداً الإنجليز أنفسهم ، حيث أنهم يجدون العلاج

المجانى فى مستشفيات التأمين الصحى ، فلا حاجة بهم إلى تكبد تلك التكاليف الباهظة فى « لندن كلينيك » .

كنت أحياناً أفضل أن أختلى بهمومى فى ركن منعزل ، وأسرح بأفكارى السود . . بعيداً . . عبر البحار . . هناك . . حيث الوطن والأهل والأصدقاء . ويتعلق بصرى بالسماء فى ضراعة . . فتصطدم عيناى برقع السحاب الداكنة ، تحبو — كحياتى الرتيبة — فى بطء شديد . وبعض شعاعات من الشمس الباهتة تتسلل خلال ثغرات السحاب المتحرك فلا تلبث أن تطبق عليها السحب وتخنقها .

وأهبط ببصرى فوق أسطح بيوت لندن المنحدرة ، فأجدها سوداء داكنة من كثرة ماتراكم فوقها من هباب المداخن ، حتى الحمام الذى يحط فوق الأسطح كان لونه أسود . .

كان الجو يبدو كئيباً يبعث على السأم ، والهواء ثقيلا كأنه يخنق أنفاسى . . وأحاول أن أدفع الملل بالقراءة ، فلا أستطيع تركيز أفكارى المشتتة . فأطوى الجريدة أو الكتاب وأتنهد فى حسرة . وتدغدغ عينى سحابة من التأثر لاتلبث الريح أن تجففها .

وأبدأ فى مراقبة المرضى المتناثرين فوق السطح الفسيح .. هذا فوق سريره المتنقل ، وذاك على مقعد متحرك ، وآخر فى « روب دى شامبر » وقد تمدد فوق مقعد طويل من القماش . . وحسناء تتبختر فى قميص نومها ، وأخرى تستقبل أشعة الشمس شبه عارية. البعض يثرثرون . . وآخرون صامتون شاردون .

كان رواد السطح لا يتغيرون كثيراً ، فمعظمهم يعانون من أمراض مستعصية تستلزم العلاج الطويل . ومع كثرة التقاء الوجوه ينشأ بيننا نوع من الألفة والتعاطف . وقد لا نتبادل الحديث ونكتفى بكلمة : « هالو . . . » .

وكان من المألوف أن يتجمع العرب بسهولة حول أحد النزلاء . يكفى أن تنطلق كلمة عربية بصوت مسموع تنجذب نحوها كل الناطقين بالضاد من المتناثرين على السطح .

نفور . . وقرف :

من الظواهر العجيبة التى أحسست بها فى لندن ، أن عواطفى الجياشة وغرائزى الملتهبة قد تعطلت تماماً حيال هؤلاء الإنجليزيات رغم صفاتهن الشكلية الجميلة . ولا أعتقد أن لحالتى النفسية دخلا فى هذا النفور . فقد كانت معنوياتى فى القمة خلال الأربعين يوماً الأولى . ومع ذلك كانت أجمل ممرضات المستشفى « مس كانتويل » تعرينى تماماً أثناء الحمام اليومى ، وتحتضننى وهى تمسح ظهرى بالكحول ، فلا تحرك ساكناً فى نفسى ، أو تثير أية رغبة غريزية كامنة . وأنا الذى كنت فى القاهرة تثيرنى يد بضة تصافحنى ، وأنفعل لخصلة شعر تتأرجح على جبين أملس . وأنتفض نشوة أمام القوام المتناسق الرشيق .

هل كنت أنفر من أجسامهن الجميلة الخالية من الروح ، أم من

القذارة التي ذكرتها في غير هذا المكان ؟ أم لعله كان شعوراً متبادلا من عدم الاستلطاف ، نتيجة المشاحنات والمصادمات التي نشأت بيننا منذ البداية ؟ . .

قد يرجع عدم تجاوبي معهن لإحدى هذه الأسباب أو لها جميعاً . المهم أن التجربة الطويلة أثبتت إنخفاض أسهمي في دنيا المرأة الأجنبية . . وبقدر ما كانت سوقي رائجة في القاهرة . . فقد كانت كاسدة تماماً في بلاد الإنجليز .

ومن العجيب أن الظاهرة لم تكن قاصرة على الإنجليزيات فقط .. فقد حدث نفس الجفاء والنفور مع معظم الفتيات اللاتي تناوبن على تمريضي . وكانت بينهن الفرنسية والاسترالية والإيرلندية والهولندية والإيطالية .

والسبب في تتابع هذه الجنسيات المختلفة أن في انجلترا قانوناً يمنع الأجانب من العمل إلا في وظائف الخدمة ومنها التمريض . لهذا كانت الوافدات على لندن للتعليم أو السياحة أو لطلب الرزق لايجدن فرصة للعمل إلا في جهات معدودة، وفي مقدمتها وأرقاها مؤسسات تشغيل الممرضات « باليومية » نظير عمولة معينة . ومن هذه المؤسسات كنا نستأجر الممرضات الخصوصيات كما أسلفت . ولما كان استدعاء هؤلاء الممرضات يتوقف على حالتي المرضية ومدى احتياجي إليهن ، فقد كنت استغنى عن إحداهن

أو كلتيهما من وقت لآخر ، ثم نعاود استـــدعاء غيرهن عند الحاجة الملحة .

أذكر أن إحداهن كانت أسترالية أفاقة ، تجوب العالم فى رحلة سياحية . وتقيم فى كل دولة عدة أسابيع أو شهور ، تعمل خلالها كممرضة ، وهى مهنتها الرئيسية ، وفى ساعات فراغها تعيث فى الأرض فساداً . وكانت تفضل العمل فى النوبة الليلية حتى تتفرغ للهو ها أثناء النهار .

هذه الحسناء المنطلقة كانت تمضى الليل كله فى حجرتى المغلقة. فلا يخرج حديثنا عن تبادل المعلومات عن بلدينا ، ولم يفكر الشيطان لحظة واحدة أن يكون ثالثنا !

وأذكر أن ممرضتى الخصوصية كانت فى فترة ما إيرلندية منطلقة والإيرلنديات أكثر حشمة وتديناً من الإنجليزيات . وكنت ذات يوم ألعب الشطرنج [1] مع أحد المصريين الذين يعالجون فى المستشفى وكان ألعباناً جريئاً ، ويسخر من برودى متندراً بالمثل القائل « يعطى الحلق لمن ليست له آذان » . وراح يداعب الممرضة التى

(١) هذا الشطرنج تحتويه علبة صغيرة أستطيع أن أحملها بيد واحدة ، بينما أحرك حجارته باليد الاخرى . وحجارته دقيقـــة تثبت فى لوحته بداخل ثقوب ، فلا تسقط منه فى الوضع الرأسى الذى يمكننى من رؤيته . وقد أهدانى اياه أخ مصرى تعرفت به هناك .

كانت تبتسم فى تجاوب مشجع . وإذا بالملعون يقترح فكرة تهريجية جريئة . إذ صاح بالإنجليزية :

ـ عندى فكرة ياجيار . . من يكسب دور الشطرنج هذا تمنحه الممرضة قبلة . . ! وقبل أن تعترض الممرضة ، أسرع يقول :

ـ طبعاً مسز جانيت موافقة ؟

فهزت رأسها ضاحكة . . ، وقلت له بالعربية :

ـ يخرب عقلك . . هل وضعتنى فى هذه الورطة حتى أنهزم لك طائعاً مختاراً ؟

قال بالعربية :

ـ ياعبيط . . أنا قصدى أخدمك .

ثم صاح بالإنجليزية :

ـ مستر جيار خجول . . وهو قول لى بالعربية أنه يتمنى أن أن يغلبنى حتى يفوز بالرهان . . فما رأيك ؟

قالت باسمة فى حياء :

ـ موافقة .

إنتهى الدور ، وكسبت أنا الرهان ، فقلت بالعربية إنى متنازل له عن المكسب ، وإنى مستعد للتنازل له عن القبلة ، متظاهراً بأنى خسرت الدور لكنه كأى رجل شريف أبى أن يغتصب حقى . وقفز مهللا ، وأعلن النتيجة ، ثم خرج يحجل على عكازه ، وهو يصيح :

— لاتنسى يامسز جانيت أنه خجول . .

ثم خرج وأغلق الباب خلفه ، وأصبحت وجهاً لوجه أمام الجلاد الذى سينفذ العقوبة . . أقصد الرهان !

إقتربت منى متظاهرة بترتيب الغطاء ، والتقت نظراتنا ، ولدهشتى رأيتها تطرق فى حياء . . لم أعتده من بنات جنسها .كانت تنتظر أن أبدأ بالخطوة الأولى فأدعوها إلى البر بوعدها .

شعرت بحرج شديد . . لاعن خجل أو حياء ، ولكن لمجرد إحساسى بجرح شعورها إذا لم أتصرف بأسلوب رقيق مهذب . فمددت أصابعى ولمست ظهر يدها برفق ، فلم تسحب قبضتها ، وقلت :

— هل ورطك صديقى الشقى ؟

وكان ردها عملياً . . فانقضت على فمى بشفتيها الملتهبتين فى قبلة طويلة . . بدا بوضوح أنها لم تكن لمجرد الوفاء بالوعد !

لكن حتى هذه الحرارة لم يستجب لها برودى !

* * *

حادثة أخرى طريفة من هذا النوع .

فقد سمعت من هذا الصديق الألعبان . أن إحدى التمورجيات الحسناوات كانت تقوم بعملية النظافة اليومية فى حجرته . . ثم اقتربت منه وراحت تحملق فى عينيه . . ثم انقضت عليه . . واغتصبت منه قبلة حارة .

وبعد هذه الرواية بأيام . . كانت التمورجية المختصة بحجرتى تقوم بعملية التنظيف ، وهى زنجية بدينة من جامايكا ، وفى العقد الرابع من عمرها . وإذ بها تتوقف عن الكنس . وراحت تتأملنى فى انفعال غريب . وتذكرتُ حكاية صديقى الألعبان . فارتعدت فزعاً . . وتصورت أنها ستنتهز فرصة الباب المغلق .. وتغتصبنى . !

طالت وقفتها أمامى . . وبان التأثر واضحاً على وجهها . ثم همست فى حنان :

— لماذا حكم الله على البشر أن يقاسوا فى هذه الحياة ؟

تنفست الصعداء وقلت :

— هذه إرادة الله وحكمته .

فهزت رأسها فى أسى وقالت :

— لا بأس عليك . . تحمل .

وخرجت دون أن تحدث إصابات !

غراميات لم تتم :

فى الواقع لم تكن عواطفى معطلة تماماً فى لندن. فقد تعرضت لبعض المغامرات القصيرة التى هدهدت قلبى برفق ، فانتفض فى نشوة عاطفية . . لكنها لم تصل إلى الغرام الملتهب ، أو إلى علاقات صريحة .

حدث هذا ثلاث مرات . . إحداهن مع ممرضة إيطالية . .

والثانية والثالثة مع سيدتين عربيتين ! ! التقيت بهما هناك .

أما الإيطالية ، فكانت ذات شعر فاحم أملس .. يتوج وجهاً أبيض له ملامح أنثوية مثيرة . . ولا أدرى لماذا ربطت بين تقاطيع وجهها وبين بطلة غرامى الأول « المليونيرة الحسناء » . والعجيب أنها كانت تعاملنى بأسلوب لا يتقيد بواجبها الرسمى فى الرعاية والتمريض .

كانت أصابعها الطرية تفضح مشاعرها ، وهى تتحسس جبينى فى لمسات حانية ، وتهمس فى ودٍ واهتمام :

— هل تحب أن أمسح جبينك بالكولونيا . . حتى تنتعش ؟

وأوافق بالطبع إذ ألمس رغبتها الصادقة فى الترويح عنى .وكانت تلمحنى أضغط أسنانى مقاوماً الألم ، فتجلس إلى جانبى على طرف السرير ، ولو أن هذا غير مسموح به . . لكن نوبات الليل كانت تمر غالباً دون رقيب ، خاصة إذا كانت الممرضة خصوصية . وتتناول يدى وتفركها فى قلق ، وكأنها تريد أن تشاركنى آلامى.. وتحاول بقدر طاقتها أن تحول تفكيرى عما يشغلنى من هموم ، بأن تسرد لى طرائف عن حياتها ورحلاتها وبلدها . . ثم تسألنى عن حياتى وعملى .

وبعد ليلتين تطورت أحاديثها . . فصارت تتغزل فى رموشى الساحرة ونظراتى الآسرة ! ! فظننت أنها تمزح أو تحاول رفع معنوياتى . فإن مسألة الرموش هذه لم تخطر على بالى ، ولم

تلفت النظر من قبل . أما نظراتى ، فـكأن البعض يصفها فى مصر بأنها مخيفة، والبعض يصفها بأنها توحى بالثقة ، وأخريات أكدن أنها جريئة . . وسواء أكانت هذه الصفات تنطوى على صدق أو خيال . . فإن نظراتى فى تلك الفترة العصيبة لم تـكن توحى ولا شك إلا بالضعف والألم . وللناس فيما يعشقون مذاهب .

وفى الليلة الثالثة سهوت عن تعاطى الحبوب المنومة التى أقتل بها الوقت . . فقد جعلت الوقت . . بأنوثتها الفياضة . . أثمن من أن أقتله .

وبعد أسبوع انتهت فترة إقامتها فى لندن . . فاضطُرت إلى السفر . . وعدت إلى الحبوب المنومة .

* * *

والانتفاضة الثانية جاءتنى عن طريق التليفون . فما كدت أرفع السماعة حتى سمعت صوتاً نسائياً يتكلم العربية . . وليس أحب إلى الأذن من أن تلتقط كلمة فيها رنين الوطن ، عندما يسحقها الحنين فى الغربة

عرفت أنها سيدة شابة من مصر ، جاءت إلى « لندن كلينيك» للعلاج من مرض عصبى . وأنها كانت تتتبع أخبارى فى القاهرة قبل سفرى . وما كادت تصل إلى المستشفى حتى سألت الإدارة عن رقم غرفتى وطلبتنى على الفور .

رحبت بها . . وشكرتها كأخت مواطنة تؤنس وحشتى فى هذا

البلد الغريب ، ووعدتنى بأن تزورنى فى حجرتى عندما تتحسن حالتها ، ويسمح لها الطبيب بالخطوات القليلة التى تفصلها عن حجرتى ، فقد كانت فى نفس الطابق الخامس . فطلبت منها أن نلتقى فى حديقة السطح حيث يستطيع كل منـــا أن يذهب إليها فوق سريره .

وهناك عرفتنى بزوجها الطبيب المصرى الذى كان يرافقها فى الرحلة العلاجية . كان رقيقاً ودوداً مهذباً . . أشعرنى فى أول لقاء بأننا فعلا أصدقاء . ورحب بى كأخ لزوجته ، وطلب منى أن أشجعها وأواسيها، وأسأل عنها عندما يتغيب هو عن المستشفى.

لكنها بدأت مع الأيام تخرج فى أحاديثها عن حدود الأخوة، فكنت أتصنع الغباء ، ثم ازدادت صراحتها ، وبدأت تتكلم عن صوتى الذى يهدىء أعصابها ! ولم يكن ممكناً أن أطاوع خيالها الخصب بعد أن أقام الزوج الصديق جداراً من ثقته بينى وبينها .

صددتها برفق . . فتمادت . فطلبت منها فى حزم ألا تتصل بى تليفونيا . .

وبكل بساطة المريضة المدللة ، شكت لزوجها من أنى لا أرعاها كما أوصانى . . وصارحته بأنى أرفض اتصالاتها التليفونية . فلم يزده اعترافها إلا ثقة بى ، وتمسكاً بصداقتى . . ورجانى أن أتحمل مضايقاتها حتى لا تتفاقم حالتها العصبية مما يؤخر العلاج . .

وذات ليلة فوجئت بممرضتها تعطينى رسالة منها مكتوبة بخط

مرتعش إذ أن حالتها كانت لا تسمح لها بالسيطرة على حركاتها تماماً . ويبدو أن مرضها أيضاً كان يؤثر على عواطفها وتفكيرها. فقد كانت الرسالة مشحونة بكلمات مشتعلة صريحة . . ووعدتنى بأن تزورنى فى حجرتى بعد منتصف الليل عندما تهدأ حركة الممرضات الساهرات .

لم أصدق كلماتها ، فقد كانت لا تستطيع أن تسيطر على خطواتها تماماً . ولم أشأ أن أرد على رسالتها حتى لا تقع رسالتى فى يد زوجها فيسىء الظن أو يفضح سرها . كذلك لم أستطع أن أطلبها بالتليفون لأثنيها عن عزمها ، فإن الإتصال بين المرضى ممنوع بعد العاشرة مساء .

تركت الأمر لله . . واستسلمت للنوم .

أيقظتنى يدها فى الثانية صباحاً ، ففتحت عينى لأفاجأ بها أمامى فى « روب » طويل . وكانت تتكىء على السرير حتى تحفظ توازنها ، وبدا فى عينيها الإرهاق من المسافة التى قطعتها وحدها فى غفلة من عيون الممرضات . قالت بصوتها المتهدج :

— لقد جئت إليك . . فهل تطردنى .

قلت فى همس منفعل :

— أنت مجنونة ولاشك . . كيف تجازفين بالمجىء إلى هنا وحدك .

— لا يهمنى . .

ــ وصحتك ؟

ــ إن معاملتك الخشنة هي التي ستؤذى صحتى ..

ــ وزوجك ؟

ــ إنه ليس هنا ...

ــ لكنه صديق .. وهو يحبك .

فألقت نفسها على صدرى وهى تنتحب قائلة :

ــ لكنى أحبك أنت..لا تعذبنى أكثر من هذا .. أرجوك..

وجدت نفسى أمسك بكتفيها فى اشفاق .. وحنان . وأخذت أهدىء من روعها ، بينما أفكر فى طريقة أتخلص بها من هذه الورطة .

كنت أخشى أن أستدعى الممرضة حتى لا تحدث ضجة قد تصل أطرافها إلى زوجها فى اليوم التالى . وإذا تركتها تعود إلى حجرتها وحدها بعد هذا الإنفعال . فقد تسقط فى الطريق وتنقلب الضجة إلى مأساة .. وفضيحة .

ولم يكن أمامى إلا أن تظاهرت بالتجاوب معها ، حتى هدأت أعصابها . فطلبت منها برفق أن تعود إلى غرفتها .. وأدهشنى أن خطواتها كانت أكثر ثباتاً فى طريق العودة ..

وإذا كانت الغاية تبرر الوسيلة ، فليسامحنى الله على تلك الوسيلة ، فقد اتضح لى بعد أن غادرتنى أنى لم أكن أتصرف بعقلى فقط .. بل بعواطفى أيضاً . !

لم يطل الصراع بين ضميرى وقلبى .. فقد فوجئت فى اليوم التالى بأنها تركت المستشفى مع زوجها قبل إتمام العلاج .. وعرفت من زوجها الذى ظل يزورنى من وقت لآخر ، أنها تركت المستشفى ، لأن تكاليف الإقامة الباهظة كادت تستهلك ميزانية العلاج . ففضل أن تقيم فى الفندق معه ، وتتردد على عيادة الطبيب . لكن العلاج لم يثمر ، فسرعان ما عاد الزوجان إلى القاهرة .. حيث فارقت الحياة ... هكذا عرفت من زوجها بعد عودتى إلى أرض الوطن .

* * *

أما الانتفاضة الثالثة فكانت قبل عودتى من لندن بأسبوعين . كان معى بعض المصريين ، نتناقش بصوت مرتفع فى موضوع حماسى ، وإذ بنا نفاجأ بسيدة فارعة ممشوقة القوام ، مليحة التقاطيع ، ترتدى ثياباً فاخرة . فوجئنا بها على عتبة الباب ، وهتفت بالعربية:

— السلام عليكم ..

فصحنا بصوت واحد مرحبين . ودعوتها للدخول ، فدخلت إلى منتصف الحجرة ، وقالت .

— سمعت أصواتاً تتكلم بالعربية .. فلم أستطع مقاومة نفسى من أن أطل عليكم وألقى السلام .

وعرفنا أنها لبنانية ، جاءت إلى « لندن كلينيك » بصحبة إبنتها الطفلة التى أجريت لها عملية جراحية . ثم أسرعت بالإنصراف

حتى لا تتأخر عن إبنتها التى تنتظرها . ودعوتها لزيارتى كلما سنحت لها الفرصة . فوعدت بذلك .

وفى الأيام التالية ، كانت تتردد على غرفتى من وقت لآخر . أحياناً تحمل إلىّ بعض زهور القرنفل الحمراء ، وأحياناً تترك بجوارى بعض المجلات الأجنبية . ثم توطدت الألفة فكانت تمضى عندى الأوقات التى تنام فيها ابنتها . . وما أكثر ما كانت تنام الصغيرة بعد الحقن المسكنة .

وذات ليلة جاءت تودعنى قبل رحيلها من لندن . قلت :

— أهكذا سريعا سنفترق ؟

قالت بحماس صادق :

— ومن قال إننا سنفترق ؟

— ألم تقولى أنك مسافرة ؟

— نعم . . لكنى سأكتب لك دائماً . .

— حقاً . . ؟

— أقسم لك . .

كانت لهفتنا البادية تفصح عما يضطرم فى نفسينا . وتغنى عن ألفاظ صريحة لم ننطق بها . . وعندما أغلقت باب حجرتى من الخارج شعرت بالفراغ يتسع من حولى ، بينما الكآبة تخنق أنفاسى . .

وبعد أيام . . وصلتنى منها بطاقة عليها خاتم بريد إيطاليا . وعليها

كلمات تقول . . « من إيطاليا أبعث إليك بتحياتي القلبية . . وأنا في طريقي إلى أرض الوطن . . وسأكتب إليك من كل بلد أمر به . . »

وبعد يومين فقط حل موعد سفرى قبل أن أتسلم رسالتها الثانية . . وطلبت من الرئيسة « السستر رايس » بالحاح أن تحول الرسائل التي تصلني إلى عنواني بالقاهرة . . لكن للأسف لم يصلني شيء في القاهرة . فهل راسلتني على المستشفى وأهملت الرئيسة تحويل رسائلها ؟ أم أنها نسيتني بعد أن جرفها خضم الحياة في وطنها ؟ . .

نهاية المحنة :

كانت عودتي كما ذكرت متوقفة على التئام عظمتي الساق . ولا يعلم غير الله متى يتم الالتئام . كان المفروض أن يرفع الجبس بعد ستة أسابيع ، ويختبر الكسر . . فإن لم يكن ملتئماً يوضع حوله جبس جديد ، ويكشف عليه بعد عدة أسابيع أخرى . . وهكذا . .

وبدأت عملية التقوية والتغذية من جديد ، حتى تساعد على سرعة الالتئام . ولما كانت قرحة المعدة قد أفقدتني كل شهية الأكل ، فقد خشي الأطباء أن يؤخر هذا من الشفاء ، خاصة وأنه كان من العبث أن يمدوا جسدي بالكالسيوم عن طريق الحقن ، لأن هذا سيتحول إلى حصوات في الكليتين ، نظراً لكفاءتهما السابقة في هذا المضمار .

عافت نفسى الأكل التقليدى المسلوق . وحارت أخصائية التغذية والأطباء فى اقتراح أنواع من الطعام . . كانت تثير اشمئزازى . وذكرنى أحد المصريين بأنى أستطيع أن أطلب أى نوع حتى ولو جاءوا به من خارج المستشفى .

ولما تأكدت أن هذه الطريقة لن تضيف عبئاً على فاتورة المستشفى ، بدأت أحرك خاتم سليمان . . وأفكر فيما كان يعجبنى فى وطنى .

بدأت بالحمام . . وهو أشهى أصناف الطعام التى كنت أتوق إليها فى المواسم والأعياد . ولما طلبته من أخصائية التغذية ، رأيت الدهشة تبدو على وجهها ، وقالت :

ـــ حمام . . ؟

ـــ نعم . . وماذا يدهشك ؟

ـــ لاشىء . . أمرك . .

وحان موعد الغداء . . فمنيت نفسى بأكلة طيبة . وندمت على أنى لم أستغل سلطاتى المخولة فى اختيار ما أشتهيه . .

وجاء الطعام . . فرأيت وسطه طيراً داكناً أقرب إلى السواد ، وقد رفع ساقيه الطويلتين إلى السماء شاكياً غباء الإنجليز . .

سألت ممرضتى باشمئزاز :

ـ ماهذا ؟

قالت :

— لا أدرى . . ماذا طلبت أنت لغذائك اليوم ؟

— طلبت حماماً . .

فضحكت فى سعادة وقد اكتشفت اللغز . وهتفت :

— فعلا . . إنه حمام . . .

— ألا تعرفين شكل الحمام ؟

— كلا . . إننا لا نأكله هنا . . .

رمقت الطير الأسود باشمئزاز ، وقلت :

— لا يدهشنى أنكم لا تأكلونه إذا كان بهذا المنظر المنفر ..

وبعد البحث والتحرى إتضح لى أن معظم بلاد أوربا والعالم لا يأكلون الحمام . . فعندما طلبته ، لم يخطر لهم أننا لا نأكل إلا « الزغاليل » فقط وأتوا لى بطير عجوز أقرب إلى الغراب منه إلى أى طير آخر !

رثيت لهذا الشعب الذى لا يستسيغ أطيب المأكولات ، بينما يلتهم بنهم لحم الخنزير المدهن الذى يثير التقزز .

وكلما كنت أنبش فى رأسى عن صنف معين قد يثير لعابى ، أفاجأ بشىء آخر غير ما نألفه .

عندما طلبت طبقاً من الجنبرى المسلوق ، جاءوا لى بشىء يشبه ديدان الاسكارس . فعافته نفسى ، ولم أجرؤ على لمسه .

وتذكرت أنى أميل إلى الجبن « الروكفور » . فحركت خاتم سليمان . . لكن الإخصائية حملقت فى دهشة لسماع كلمة « روكفور »

ثم نبهتنى الدكتورة فاطمة وهى إحدى المصريات قضت سنوات دراستها فى لندن ، إلى أن الإنجليز يسمون هذا النواع من الجبن «جرجنزولا» . ولما نطقت كلمة السر لأخصائية التغذية ، جاءتنى «الجرجنزولا» فى الوجبة التالية . ولولا قيود المرض لقفزت من السرير هرباً من رائحتها النتنة . .

وجدت نفس الشيء مع «البسطرمة» التى اتضح أنهم لا يعرفونها . فأوصيتهم أن يبحثوا عنها عند البقالين اليونانيين . ولما عثروا عليها بعد البحث والتنقيب ، إتضح أنها أقرب إلى نعل الحذاء منها إلى أى لحم يؤكل . يبدو أن قلة الاستهلاك أطالت عمرها فى محل البقال حتى أدركتها الشيخوخة !

وزار «لندن كلينيك» فى تلك الفترة أحد تجار بورسعيد طالباً العلاج . وتفضل مشكوراً بزيارتى ، وترك لى هدية ثمينة فاخرة .. كانت عبارة عن قالبين كبيرين من البطارخ البلدى اللذيذ . ولم أشأ أن أستهلك الهدية بسرعة إستجابة لشهيتى . فكنت آخذ قطعة صغيرة فى كل وجبة حتى تفتح شهيتى لأكل الإنجليز .

كان الممرض يمسك قالب البطارخ بأطراف أصابعه فى اشمئزاز ، ويشيح عنه بوجهه القرفان . ولم يكن مجدياً أن أقنعه بميزات البطارخ ، أو أقارن بين رائحته ونتن الجرجنزولا . . وزفارة الاسكارس .. أقصد الجنبرى .. وكنت أكتفى بأن أتمتم لنفسى: «حقاً .. ليس لكم فى الطيب نصيب» .

وذات يوم جاءنى الدكتور « شيرز » متهللا . وصارحنى بأنه اكتشف أكلة ممتازة مغذية ، سوف تساعدنى على استعادة صحتى . قلت متلهفاً :

— وما هى ؟

قال وهو يبتلع ريقه متلذذاً :

— كوب كبير من اللبن .. وعليه بيضتان نيئتان .. وبعض الفانيليا.

قلت فى نفسى : « تمخض الجبل فولد فأراً . ! وهل هذه أكلة مبتكرة .. ؟ ، لكم سمعت عنها فى القاهرة فكنت أشمئز من مجرد تصورها .. فما بالك إذا أكلتها وأنا فاقد الشهية ؟ ! »

سألته وقد خطر لى حل وسط :

— وهل تفسد هذه المواد إذا رفعناها على النار ؟

قال :

— أبداً .. لامانع .. إنما نسميها فى هذه الحالة « كاستارد »

- ونحن أيضاً نسميها كذلك . وهى أكلة تعجبنى ..

فأصدر أوامره للممرضة بأن تأتينى بالكاستارد مع كل وجبة. لكنى لم أجدها لذيذة مثل الكستردة التى تصنعها أمى . فقد كانت خالية من السكر المحروق الذى يسمى « الكرامل » والذى لا تؤكل بدونه . وانتهزت فرصة حضور أخصائية التغذية وسألتها :

— هل من الممكن إضافة شىء من السكر إلى هذه الكاستارد ؟

قالت :

— نعم .. ممكن ..

قلت محاولا شرح الموضوع بالتدريج:

— .. وإذا رفع محلول السكر على النار فإن لونه يحمر ..و..

فقاطعتنى قائلة :

— أوه .. كلا .. إنه يحترق ويصير كالكرامل ..

فصرخت بحماس أرشميدس عندما قفز من الحمام :

— هو ذاك الذى أريده .. الكرامل ...

— هل تريد وضعها على الكاستارد .. ؟

— نعم .. هل هذا ممكن ؟

— طبعاً .. إنها تؤكل دائماً بالكرامل ..

— ولماذا لم تحضروها لى بالكرامل ؟

فأجابت فى دهشة وبرود :

— إنك لم تطلب سوى كاستارد فقط !!

لست أدرى بماذا أسمى هذا؟ .. بروداً .. أم غباء ؟ !

فك الجبس :

أمام حالتى النفسية السيئة اقتنع الطبيب بأن يقـــدم ميعاد فك الجبس أسبوعاً . فسألته متفائلا :

— إذا وجدت الركبة ثابتة .. ماذا تكون الخطوة التالية ؟

قال .

— نعمل لك جبيرة خفيفة . . ونتركها لفترة أخرى .

ـ وهل أستطيع أن أسافر بهذا الوضع ؟

— أوه . . تسافر به إلى آخر الدنيا . .

وعدت أسأله :

— وإذا كانت الركبة لم تلتئم بعد . . ؟

ـ هذا يتوقف على نتيجة اختبارى للركبة بمحاولة تحريكها .

— وهل هذا سيكون بتخدير عام .؟

— نعم

— لكنى أريد أن تجرى التجربة بدون تخدير . . حتى أطمئن بنفسى .

— وهل تتحمل ؟

— نعم .. وإذا زاد الألم عن احتمالى سأطلب حقنه مسكنة . .

* * *

ثم جاء اليوم الموعود . .

ولأول مرة أدخل حجرة العمليات «التياترو» مفتوح العينين دون تخدير . . وبدأ الجراح يشق الجبس . . وقلبي يرتجف خوفاً من النتيجة .

ترى هل التأمت الركبة . . فأسافر بعد أيام ؟

أم ما زالت أمامى أسابيع أخرى من العذاب ؟

ولم يكن فى وسعى إلا أن أردد فى ابتهال . . يا رب .

أخيراً رفع الجبس . . وفك الأربطة . . وإذا بنا نكتشف أن الركبة لم تلتئم بعد ! ! لماذا تتلكأ رحمة السماء فى إنقاذى ؟ !

لاحظ الأطباء أن وجهى اكتسى بسحابة من الكآبة والحزن العميق . فقال الدكتور مايسون :

ـــ لا تبتئس يا مستر جيار . . مازالت أمامنا صورة الأشعة.

وفى صورة الأشعة ظهرت كتلة من العظم بدأت تتكون حول المفصل . فقلت للطبيب الجراح :

ـــ هل هناك شك فى ألا تلتئم الركبة يوماً ما ؟

قال مؤكداً :

ـــ كلا . . لا بد أن تلتئم . . المسألة مسألة وقت .

ـــ ألا يمكن أن أقضى هذا الوقت بين أهلى وفى بلدى ؟

ـــ دعنى أفكر . . يجب أن نتركك فى أيدى أمينة ماهرة .

قلت :

ـــ لدينا فى مصر أساتذة عظام ممتازين .

ـــ أعرف هذا . . وسأوافيك غداً برأيى النهائى .

* * *

وفى اليوم التالى جاءنى الدكتور مايسون متهللا، فبادرته بسؤالى:

ـــ خيراً . . ؟

فأخرج من جيبه مفكرة صغيرة وراح يقرأ فيها :
— هل تعرف الدكتور محمد كامل حسين ؟
قلت بحماس:
— بالطبع . . إنه أكبر أساتذة جراحة العظام فى جمهوريتنا .
فابتسم وهو يقول :
— أعلم هذا . . إننا دائماً نتعامل مع الأحسن .
— تقصد أنكم ستتركون له بقية علاجى ؟
— نعم . . وتستطيع أن تسافر فى أى وقت تشاء .

حديث الوداع :

سحب الدكتور مايسون كرسياً وجلس يتحدث معى حديثاً طويلا زودنى فيه بآخر نصائحه قبل الرحيل ، قال :
— أعرف أنك شجاع مكافح . وإن كان فشل العلاج أخيراً قد هز إيمانك بعض الشىء .. لكنى واثق من أنك سوف تسترد روحك المعنوية العالية بعد عودتك إلى وطنك وأهلك . . وأحبه أن تصلنى أخبارك أولا بأول .
— أؤكد لك أنك ستسمع عنى كل خير .
وعاد يقول :
— أريدك أن تستأنف حياتك العادية ، كأى إنسان عادى دون أن تركز اهتمامك على المرض .
ثم قال باسماً :

ـ لماذا لا تتزوج وتنجب أطفالا يملأون حياتك ؟

قلت :

ـ لقد قرأت فى كتابك الذى أهديتنى إياه أن مرضى هذا وراثى .

فضم ما بين حاجبيه وقال :

ـ أنا لم أكتب هذا بالضبط . . لكنى قلت إنه لوحظ أن هذا المرض يظهر فى أكثر من شخص واحد فى بعض العائلات. قد يظهر بين الأخوة وأبناء العمومة وأبناء الأخوة . بنفس النسبة التى يظهر بها بين أبناء المريض نفسه .

ـ معنى هذا أنه يسرى فى دم بعض العائلات ، ولهذا فأنا لا أريد أن أجنى على أقرب الناس . . وهم أبنائى . .

ـ هذا احتمال بعيد . .

ـ لكنه ليس مستحيلا . . حتى ولو كان بنسبه واحدفى المائة .

ـ بل أقل من واحد فى المائة . .

قلت بإصرار :

ـ حتى ولو كانت واحداً فى الألف . . فإن ضميرى لا يحتمل أن ينتقل هذا المرض الملعون عن طريقى إلى أبنائى أو أحفادى .

ـ هل فى عائلتك أحد يشكو من التصاق المفاصل . . ؟

فكرت . . فتذكرت .. فقلت :

– نعم .. طوال حياتى أسمع والدتى تشكو من الروماتيزم . .

– لا يكفى الروماتيزم . . أقصـــد التصاق المفاصل . . «سبوندیلایتیس» ولو بصورة مخففة ..

تذكرت أن والدتى محنية الظهر[1] ، ولا تستطيع أن ترفع رأسها إلى أعلى . . وأن خالى .. شقيق والدتى الوحيد عاش نصف حياته الأخير مقوس الظهر بدرجة ملحوظة جداً ، بعد أن تيبس عموده الفقرى إثر رقاده على سرير المرض بعد عملية جراحية لإزالة حصوة فى الكلية . ورغم أن العملية لم تكن لها أية علاقة بفقرات ظهره ، فقد قام بعدها متيبس الظهر تماماً . .

قال الدكتور مايسون وهو يهز رأسه :

– إن عظامه تحمل خاصية الالتصاق بدرجة غير عادية . .

– إذن . . فقد ورثت هذه الخاصية عن أسرة والدتى . .؟

– هذا واضح . .

– وهل مازلت تنصحنى بإنجاب أطفال ؟

(١) مر الدكتور مايسون بالقاهرة بعد ذلك بأربع سنوات ، وزارنى فى بيتى ، ورأى والدتى . وأكد لى أنها مصـــابة بتيبس والتصاق فى العمود الفقرى ولكن حالتها خفيفة جدا .. ولم تظهر الا فى سن متقدمة .

قال فى ثقة وعناد :

— نعم . . إن خبرتى الطويلة تؤكد لى أن نسبة الوراثة لاتخيفنى . وإذا استشارنى أهل العروس فإنى أنصحهم بألا يترددوا فى هذا الزواج .

— هل تكتب لى شهادة بذلك ؟

— بكل تأكيد . . وسأحضرها لك غداً بنفسى .

ثم غيرت مجرى الحديث إلى نقطة أخرى ، فقلت :

— ها أنتذا ترى أن المرض مازال نشطاً ، ويهدد مفاصل اصابعى .

— لكننا نستطيع السيطرة عليـــه بمشتقات الكورتيزون والبيوتازوليدين .

— وهل هذه أدوية شافية ؟

— بصراحة . . كلا . . إنها مجرد درع يقف بين المرض والمفاصل .

— ألا يوجد علاج حاسم لهذا الداء اللعين ؟

مط شفتيه فى يأس وقال :

— وجـه لى هذا السؤال بعد عشر سنوات . . فقد أستطيع حينذاك الإجابة عليه . .

أكبرت فيه صراحته رغم مرارتها . . ولم أشأ أن أثقل

عليه بمزيد من الأسئلة . ولكن قامت أمامى علامة استفهام كبيرة ليس لها حل :

إن علب الأدوية التى تحتوى على البيوتازوليدين والكورتيزون تحوى أيضاً تحذيراً صريحاً ، يحرم استعماله على أصحاب المعدة المقروحة . . حتى ولو شفيت من القرحة . . فإن لهذين العقارين تأثيراً خطيراً على نزف القرحة مرة أخرى .

ومعنى هذا أنه إما أن أترك الأخطبوط يغزو البقية الضئيلة من مفاصلى . وإما أن أقف بالدرع الواقى فى طريقه . . فتنزف معدتى !

هل بين السادة ، الأطباء من يستطيع أن يحل هذه المعادلة الصعبة ؟ !

فى أرض الوطن :

ركبت الطائرة مساء ١٨ سبتمبر ١٩٥٩ ، عائداً إلى أرض الوطن ، بعد أن عشت بعيداً عنه خمسة شهور وبضعة أيام لم تلمس فيها قدمى تراب أى أرض أجنبية . .

كنت أتصور الطائرة كنقطة صغيرة سابحة فى الفضاء الواسع يحيط بها الظلام من كل جانب . فأرى نفسى صورة منها بعد أن إنطفأ نور الأمل فى حياتى . . وأصبحت جثة هامدة تكتنفها الظلمات !

لكن الطائرة ستصل بعد قليل إلى أرض الأمان ..

فهل أصل يوماً إلى دنيا الأحياء ؟ !!

كان السؤال يتردد يومها فى ذهنى بلا إجابة . لكن الأيام القريبة التالية . . أجابت عنه وقالت . . نعم .

قالتها فى تأكيد ووضوح وسخاء .

* * *

لمست الطائرة أرض المطار فى الواحدة بعد منتصف الليل . وبعد أن نزل الركاب ، صعد بعض أفراد عائلتى يتعجلون لقائى ، وتسلقوا فوق المقاعد إلى سريرى المعلق يشدون على يدى ، ويلثمون وجهى ..

وكانت عربة الإسعاف فى انتظارى ، فصعد رجالها إلى الطائرة وأنزلونى فوق المحفة . فأدهشنى أن وجدت المطار مزدحماً فى تلك الساعة المتأخرة بجموع الأهل والأصدقاء ، وبعض مصورى الصحف ، وفى مقدمتهم جميعاً مندوب عن وزارة الثقافة ، يحمل باقة من الورود .

حاولت أن ابتسم بصعوبة فى وجوه المهنئين وعدسات التصوير .. ولكن .. كانت الكآبة مازالت تفيض على قلبى . وكنت أحس وسط هذا الضجيج أنى أريد أن أصل بسرعة إلى بيتى . . وأستريح فوق سريرى حيث يستكين جسدى المتعب بين الاثنتى عشرة وسادة

التى كنت معتاداً عليها . . ثم استغرق فى نوم عميق .. لعدة أيام متواصلة .

عندما دخلت حجرتى ، واستكان ظهرى على سريرى المريح ، أحسست بشعور غريب . أحسست أنى عدت من رحلة متعبة إلى المقابر حيث دفنت قطعة عزيزة من نفسى هناك .. دفنت أملى .

أحسست أن غرفتى غريبة أمام ناظرى . فقد كنت أراها لأول مرة فى ظلام اليأس . عندما غادرتها منذ خمسة شهور كنت شعلة متقدة من الأمل المتفتح والحماس الملتهب . وكل من حولى كانوا يبكون .. واليوم أراهم كلهم فرحين بعودتى وأنا وحدى صامت حزين ..

كنت أتجنب الرد على أسئلتهم الكثيرة ، وأضغط أسنانى بقوة حتى لا يغلبنى التأثر ، وأفقد السيطرة على أعصابى . وقلت بصعوبة:

ــ أرجوكم .. اتركونى وحدى الآن لأستريح .. وغداً أحدثكم عن كل شىء .. أطفئوا النور .. إنه يؤذى عينى ..

وما كدت أختلى بنفسى خلف ستار الظلام ، حتى انفجرت فى بكاء مكتوم . . وتركت العنان لمقلتى تذرفان الأسى المكبوت ، وسالت دموعى غزيرة حارة تغسل نفسى ، وتهــدهد أعصابى المشدودة .

لم أبك فى حياتى مثلما بكيت فى تلك الليلة . .

هل كانت دموع الحسرة على مافات ؟

أم دموع اليأس من المستقبل ؟

أم دموع الراحة بعد الخلاص من المحنة ؟

لتكن هذه أو تلك . . أو خليطاً منها جميعاً . . المهم أنها كانت آخر قطرات جادت بها عيناى منذ تلك الليلة . فعندما أشرق صباح اليوم التالى . . بدأت حياة جديدة تماماً . .

* * *

الحصـــاد

بعد عودتى من لندن ، بدأت مرحلة جديدة من حياتى ، تختلف كثيراً عن المراحل السابقة ، ويمكننى أن أسميها مرحلة جنى الثمار ، أو موسم الحصاد . فبعد أن كنت أكافح الحياة فى جهود مضنية ، سعياً وراء اللقمة المتواضعة . أصبحت أنال من الكماليات فوق ما كنت أتوقع .

وعندما أتلمس تفسيراً لهذا التناقض ، أجد أن ميزان العدل أضبط من شكوكى وهواجسى ، فإن مؤهلاتى الحالية ، التى تغدق ثمراتها فى سخاء ، لم تنضج بين يوم وليلة ، بل كان نموها بطيئاً متعسراً ، أولا . . لأن ثقافتى وخبراتى لا تساندها شهادة جامعية ، وثانياً . . لأن قيودى الجسدية كانت تحد من تحركاتى وصلاتى بدور النشر وأجهزة الإعلام .

استقبال حماسى :

طالعتنى الصحف بعناوين الترحيب ، وأحاطتنى كلماتها المواسية باقات من الحنان . فبدأت أتخلى عن كآبتى ، وزالت عنى الوحشة والإحساس بالوحدة والاغتراب .

كتبت « جريدة المساء » فى يوم وصولى «١٩ سبتمبر ١٩٥٩» ، مقالا بعنوان « أول حديث مع صبحى الجيار بعد وصوله إلى القاهرة » ، وكتبت جريدة الأهرام فى ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٥٩ تعليقاً تحت صورتى بعنوان « المعجزة لم تتحقق . . وعاد الأديب الجيار » . وكتبت جريدة «الأخبار» فى نفس اليوم مقالا بعنوان « صبحى الجيار عاد من لندن بلا علاج » .

ثم عادت جريدة « المساء » تكتب فى ٢٥ سبتمبر ١٩٥٩ مقالا بعنوان « باقة من الحب . . لصبحى الجيار » قالت فيه :

« . . وإذا عجز أطباء لندن عن تحقيق المعجزة ، فلم تتدفق الحياة فى ساقىّ الجيار ، فإن صبحى قد حقق معجزته الخاصة . . حقق إرادة الإنسان التى انتصرت على المرض . . وانسابت فى وجدان الشعب ، فأحبه البسطاء فناناً مبدعاً ومجاهداً فى سبيل الخير والحرية . وهذه المعجزة أقوى من جراحة لندن وعلاجها . والأيدى التى امتدت تصافح صبحى الجيار فى المطار ، ونوافذ الجيران التى لوّحت لأديبنا بالمناديل ، وباقة الورود التى قدمها

وزير الثقافة . . كل ذلك كان يعبر عن الحب العميق ، الذى يسرى فى قلوب شعبنا له . وقد عبر الرئيس جمال عبد الناصر عن قمة هذا الحب والتقدير حين أمر بعلاجه فى لندن » .

. . . ثم اختتمت الجريدة باقة الحب بقولها :

« . . ولينطلق صبحى الجيار إلى استلهام الحب الذى غمره الشعب به فى أعمال فنية جديدة . . فإن طاقاته المبدعة ، وروحه الخلاقة التى لا تعرف اليأس هى التى تملؤنا بالأمل . . ليس فى مستقبله فحسب . ولكن فى انتصار الخير والسلم على الأرض » .

ثم اختتمت مجلة « الجيل » موكب الاستقبال الحافل فى ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٥٩ بتحقيق كبير شغلت صورتى صفحة كاملة فيه . وبرز عنوانه بالخط العريض :

« صبحى الجيار أقوى من اليأس » جاء فيه :

« عاد صبحى الجيار من لندن بعد أن قال الطب : لا أمل . . ولكن صبحى لم يفقد الأمل . إنه واثق من أنه سوف يجد الله يوماً فى حجرته التى قضى فيها ١٨ سنة راقداً على ظهره . إن صبحى الجيار يقابل مأساته بأجمل روح معنوية . بأحلى أمل . بأقوى إيمان . . صفقوا له . . . »

الواقع أن تلك المجاملات ، والتمنيات الصادقة كان لها أبلغ الأثر فى نفسى المنهارة . وأشعرتنى بمسئولية ضخمة أمام الناس الطيبين فى بلدى ، الذين ما زالوا يرجون من الحطام العائد أن

يتماسك ويرتد إلى طبيعته المتفائلة المكافحة ، ويثبت لهم أن الإرادة الإنسانية الطموحة فوق اليأس والألم .

كانت توريطة أوقعتنى فيها الصحافة بلسان الجماهير . فلم يسعنى أن أخيب رجاءهم .. وأحطم النموذج الإنسانى الذى آمنوا به ، واحتضنوه بقلوبهم الحانية ، وسلطوا عليه الأضواء .. متوقعين له مزيداً من الانطلاق والتوفيق .

كان علىَّ أن أبدأ فوراً .. قبل أن تنحسر عنى دائرة الضوء ، فأعود لأنطوى فى زوايا النسيان ، حيث لا أجد دافعاً يخرجنى إلى النور ، بعد أن فقدت الأمل فى الشفاء .. إلى الأبد .

كان علىَّ أن أختار بين الموت .. والحياة .. لكن الحياة لا تستمر بلا أمل .. فلأصنع إذن أملا جديداً . بل آمالاً عريضة أعيش بها . ومن أجلها . وإلا اضطررت أن أتراجع إلى سجنى القديم .

كان جسدى يقشعر لمجرد المقارنة بين الماضى بكل بشاعته والحاضر رغم قيوده . وبرز صوت العقل قوياً حازماً يهيب بى أن أتقدم إلى الأمام . فإن الواقف فى مكانه لا بد أن يتراجع عندما يمر به الزاحفون على الطريق ..

وبدأ الصراع :

لم يكن صراعاً مع الآخرين .. فقد كانت عشرات القلوب متفتحة للقائى ، ولم يكن صراعاً لشق الطرق إلى ميادين النشر ، فقد

كانت كل الطرق معبدة أمامى .. وترحب بإنتاجى .. ولم يكن صراعاً مع إمكانياتى ليقف إنتاجى على مستوى المجالات الكبرى المتاحة لى . فقد كنت أستميت فى الحرص على سمعتى الأدبية ، لإيقانى بأن الجماهير الطيبة التى منحتنى ثقتها لن تتردد فى التخلى عنى إذا لم أثبت جدارتى بهذه الثقة .

فيم كان الصراع إذن .. ؟ كان الصراع مع نفسى اليائسة، حتى تتحرر من تقاعسها وخمولها ، وتسعى إلى هدف مرسوم .. بل تندفع إلى أمل كبير .. يحفزها للحركة ، ويغريها بالاندفاع .

أخيراً أقنعت نفسى بأن الحياة نفسها هى الأمل الأكبر الذى نعيش من أجله . فهى مادامت مفروضة علينا فيجب أن نعيشها فى سعادة . وما دامت السعادة لا تتحقق بالماديات كما أثبتت تجربتى فى لندن . . كمليونير تعيس . فلا بد إذن أن السعادة تنبع من داخل الإنسان .

إن السعادة فى تصورى هى قوة معنوية ، قوامها الإرادة والإيمان والرضا ، والكفاح الدؤوب المتفائل . . وهذه صفات لا تنقصنى.. فلماذا لا أكون سعيداً ؟ إننى كفنان خصب الخيال يمكننى أن أتخيل السعادة فى صور شتى .. وكمثقف يؤمن بالأسلوب العلمى ، يمكننى أن أضع الخطط المدروسة لتحقيقها، وكإنسان صقلت المحن إرادته أستطيع أن أحقق أهدافى وأتغلب على العقبات .

بهذا الأسلوب البسيط أقنعت نفسى بأن الحياة تستحق أن

نعيشها بكل أبعادها .. بل نستطيع أن نستمتع بها ونمارسها كهواية فنية ، نثريها ونطورها ونجملها بلمسات رشيقة تجعلها أكثر جمالا .. أو على الأقل أكثر احتمالا .

بل أنى كنت أحياناً ألجأ إلى الخيال لأعوض به الواقع المفقود . فتارة أوهم نفسى بالسعادة ، وتارة أهون عليها الشقاء ، وغالباً ما أقنعها بالحلول العملية .. التى ينطبق عليها المثل المعروف «إن لم يكن ما تريد .. فأرد ما يكون» .

وهكذا بدأت أنفض عن نفسى غبار الرحلة المشئومة . رحلة العذاب واليأس والكآبة . وفى أسابيع قليلة استعدت شخصيتى الحقيقية .. بكل ما فيها من مرح وتفاؤل وقوة احتمال .

الأمراض تتقهقر :

لما كانت الكآبة والضيق والانهيار النفسى هى السبب فى هياج أمراضى المستكينة فى لندن .. وهى آلام المفاصل ، وضغط الدم ، وقرحة المعدة .. فقد كان من الطبيعى أن تتقهقر هذه المضاعفات عندما ينزاح كابوس اليأس من فوق صدرى . حقاً أنى لم أتخلص نهائياً من هذه الأمراض المزمنة ، لكنى استطعت ترويضها والحد من ثورتها . فلأول مرة يجلو الأخطبوط عن منطقة احتلها دون أن يدمر مواقعه . لقد تخلى عن أصابعى بمعجزة . فعادت إليها

الحركة ، وزال عنها الورم ، ولم يترك التصاقات أو تشوهات .. غير اعوجاج طفيف فى أحد أصابع يدى اليسرى .. كتذكار للعدوان.

أما ضغط الدم فقد تحكمت فيه بالأدوية العادية. ولم يعد يرتفع إلا عندما أرهق نفسى بالعمل . فيعيده إلى صوابه قرص واحد من « السربازيل » وبهذا أسقطت ضغط الدم من قائمة المنغصات مادمت متحكماً فيه . وقد جلبت معى من لندن جهازاً لقياس الضغط وسماعة طبية، وتعلمت كيف أراقب بنفسى حركة الضغط فى عروقى من وقت لآخر حتى لا يفاجئنى بانفجار فى المخ كما حدث لوالدى .. مجرد احتياط لا يشوبه القلق .. بل نوع من التأمين ضد الحوادث المفاجئة . وهى سياسة وقائية أتبعها بالسليقة فى معظم جوانب حياتى ، كما ذكرت من قبل فى الناحية العملية والمادية ..

أما قرحة المعدة فقد هدأت حدتها ، وكفت عن نزف دموعها القانية ، وزالت آلامها . ولكن هذا الهدوء لم يطمعنى فى كرمها ، ومازلت حريصاً من غدرها .. حسب نصيحة الأطباء . فحرمت على نفسى كل ما يزيد حموضة المعدة .

وما أكثر ما يثير معدتى ويزيد حموضتها .. حتى الماء الزلال ! . وأخيراً اكتشفت بالمصادفة أن الماء هو أصل البلاء فى موضوع الحموضة ، إذا شربته بغزارة بعد الوجبات . ولعلك تذكر — ياأخى القارىء — إنى حدثتك عن ولعى بالماء منذ أن حرمت منه فى طفولتى . وكنت أتجرعه بشراهة دون أن أشك فى إثارته

للحموضة . بل لعل الأقرب إلى المعقول أن الماء يخفف العصارات الحمضية. ولا أدرى حتى الآن تعليلا طبياً لهذه الظاهرة رغم سؤال الأطباء.

المهم أنى استطعت الآن أن أسيطر على حموضة المعدة ، وبالتالى حميت القرحة من لذعات المادة الكاوية . ولم يكلفنى الأمر إلا أن أمتنع عن شرب الماء ساعتين أو ثلاثاً بعد الوجبات. حقاً .. لقد قاومت كثيراً إغراء الماء المثلج اللذيذ بعد الأكل .. لكن مع تعاقب الشهور والسنين أصبح هذا الحرمان محتملا جداً .. خاصة إذا قيس بالفائدة العظمى التى أجنيها من هذه التضحية.

وهنا تتمثل نفسى الراضية المتفائلة . فأنا أعتبر التخلص من الحموضة مكسباً يسعدنى ، رغم تضحيتى فى سبيله بشىء مهم . لكن المتذمر الناقم يعتبر الحرمان من الماء ظلماً أصابه ، ولا يقدر نعمة التخلص من الحموضة .. باعتبارها ظلماً آخر خصه به القدر . وهذا يذكرنى بالمثل المشهور : « إن المتفائل يرى نصف كأسه الملىء ، والمتشائم يرى نصفه الفارغ »

التئام الركبة :

كنت فى لندن قد اقترحت على الطبيب فكرة جبيرة من البلاستيك أو المعدن ذات أربطة جلدية ، بحيث يمكن تثبيتها على الساق المكسورة عند مغادرتى السرير ، ثم تخلع عن الساق بقية

اليوم . وقد تفتق قلقى عن هذا الحل عندما علمت أن هناك احتمالا ألا تلتئم الركبة إلى الأبد .

وافق الطبيب الإنجليزى على الفكرة مبدئياً . لكنه أمهلنى حتى يفك الجبس ، ويتخذ قراره على ضوء الواقع . لكن الظروف لم تمهلنى لسماع قراره . إذ سافرت وساقى مازالت فى الجبس، حيث سلمت العملية الفاشلة إلى نابغة طب العظام الدكتور محمد كامل حسين، لعله يصحح ما أفسده الإنجليز .

راح الدكتور محمد كامل حسين يقلب المفصل المعدنى الذى احتفظت به على سبيل التذكار ، ويزنه فى يده مندهشاً . ثم همس كمن يخاطب نفسه :

— أليس هذا ثقيلا على عظامك ؟

قلت :

— إن وزنه ثلاث عشرة أوقية .

فلوى شفتيه مستنكراً دون أن يعلق .. ترفعاً عن مهاجمة زملاء له فى المهنة . ثم طمأننى على إمكان التئام الركبة . . ولكن مع الوقت . ووافق على عمل الجبيرة المعدنية ذات الأربطة ، لتقوم بوظيفة تثبيت الساق بعد رفع جبيرة الجبس . فقلت فى قلق :

— وكم تستغرق الركبة من الوقت حتى تلتئم ؟

قال بصراحة :

ـــ لا تفكر كثيراً فى الوقت . . فقد يمتد إلى شهور . .

وقد كان . . فإن ساقى لم تلتئم إلا بعد عام أو أكثر . . بحيث استطعت أن أتخلص من الجبيرة المعدنية . ومع هذا ظللنا حذرين من هذا اللحام الهش ...

لكن الحذر لا يمنع القدر. . فقد وقع لى حادث مؤلم بعد ذلك بعام واحد عندما سقطت فى الحمام .. فأعاد ساقى إلى الجبيرة المعدنية .

السقطة الثالثة :

فى خلال ربع قرن لم أسقط سوى ثلاث مرات . . الأولى فى الطريق عندما غرست دراجتى فى الرمال، والثانية فى قصر العينى عندما انزلق عكازى فوق البلاط المفروش بالصابون . وقد ذكرت تفاصيل كل من الحادثتين فى حينها . أما السقطة الثالثة فكانت أقساها وأعنفها جمعياً . لأنها تركت خلفها آثاراً مادية ونفسية مؤلمة .

كانت الأخت نعمات تساعدنى على تغيير ملابسى فوق الكرسى المتحرك فى الحمام . وهى مأمورية روتينية تقوم بها فى سهولة ويسر آلاف المرات ، بل إنها تقوم بمهام أدق منها وأصعب دون أى خطأ أو إهمال . ولا أدرى كيف اختل توازنها فجأة فى ذلك اليوم ، فتراجعت إلى الوراء . . وفى لمح البصر كانت منطرحة على

ظهرها وهى مازالت متشبثة بى بحركة لاشعورية ، كأنما خشيت أن تتركنى معلقاً فى الهواء .

العجيب أنى فى تلك اللحظة الرهيبة الخاطفة .. لم أفقد أدراكى للموقف . وأحسست برعب نعمات الجنونى الذى تمثل فى صراخها خوفاً على جسدى الهش من السقطة القاتلة . فإن سقوطى على وجهى فوق البلاط دون أية مقاومة من ذراعى .. معناه تشويه بشع للوجه وارتجاج فى المخ وكسر فى العمود الفقرى .. هذا غير السحجات والتسلخات فى الركبتين والوجه . !!

عندما طار العكازان من تحت إبطى ، وبدأت أميل إلى الأمام مبتعداً عن الكرسى ، كان أول ما تبادر إلى ذهنى أن أطمئن نعمات حتى لا تنزعج .. لقد مزقت صرختها الباكية نياط قلبى ، فصحت فيها :

« .. لاتخافى .. لا تخافى .. » حتى انكتمت الكلمات فى حلقى عندما اصطدم فمى بجسم نعمات الذى سقطت فوقه .. !

مسكينة نعمات . لقد تلقت معظم الصدمة بظهرها .. وقاومت ذراعاها انهيارى المفاجىء فأبطأت من حركته ، وامتصت معظم الصدمة حتى أنى لم أحس بالألم فى تلك اللحظة . لكنى بدأت أشعر باستحالة رفعى من الأرض إلى الكرسى على الأقل .. فإن مهمة حملى فى الظروف العادية غير متيسرة ، فما بالك بجسدى المقوس المنكفىء .. مع ما قد يكون فيه من كسور وجروح .

ومما زاد الأمر تعقيداً أن نعمات .. وهى الشخص الوحيد الذى يستطيع التصرف بحكمة، كانت مقيدة تحتى ولا تستطيع أن تتحرك حتى لا تؤلمنى بحركة خاطئة .

بعد أن زالت الرهبة فى لحظة السقوط ، بدأت أشعر بالألم الفظيع ينضح من كل ذرة فى جسدى . لكنى تمالكت نفسى ، وهتفت متظاهراً بالتماسك :

— لا تخافى .. أنا بخير .. لا تتحركى .. ونادى منصور ..

كان منصور ، وهو الشغال الذى يعمل عندى ، شاباً قوياً بارز العضلات ، فجاء على عجل ، وفى حماس واضطراب أخذ يرفعنى كيفما اتفق .. ولم أشأ أن أصرخ موجهاً حركاته حتى لا أزيد إرتباكه . وبعد لحظات استطاعت نعمات أن تخلص نفسها من تحتى، فانتفضت واقفة غير عابئة باصاباتها ، وبعد مجهود . تمكنت بخبرتها وعضلات منصور من أن يعيدنى على الكرسى المتحرك ..

وهنا فقط استطعت أن أفتح عينى ، فقد كنت أشعر بدوار شديد طوال اللحظات السابقة من تأثير الصدمة . وبدأت أتنفس فى ارتياح .

كانت نعمات تولول فى نشيج ، وتلطم وجهها متهمة نفسها بالتقصير . وحاولت أن تضمد سحجات وجهى البسيطة ، متناسية إصابات وجهها الذى شوهته بجمجمتى الصلبة . وحاولت أن تختبر

ركبتى الملتئمة .. فإذا بها تتحرك فى ألم شديد .. لقد كسرتها الصدمة مرة أخرى !!

ظلت نعمات تنتحب عدة أيام . تحت وخزات ضميرها ، الذى أوهمها بأنها كانت السبب فى إصابتى .. وعبثاً حاولت أن افتعل المرح وعدم المبالاة أمامها .. ولم يهدأ ضميرها إلا بعد عدة أسابيع عندما تخلصت ساقى من الجبيرة المعدنية ...

الإنتاج القصصى :

كانت لدى مجموعة من القصص القصيرة التى كتبتها قبل السفر إلى لندن . وهناك كتبت عدة قصص أخرى . وبهذه المجموعة بدأت الزحف على المجلات والصحف .

كانت مجلة « الإذاعة » هى أول من رحب بإنتاجى . فنشرت أول قصة بها فى ١٩ ديسمبر ١٩٥٩ ، وظللت أنشر بها قصصى القصيرة إلى شهر مارس سنة ١٩٦٢ بصفة شبه دورية .

ثم نشرت مجموعة من قصصى القصيرة بمجلة « وطنى » إبتداء من أواخر سنة ١٩٥٩ .

ثم بدأت بنشر إنتاجى القصصى فى مجلة الجيل إبتداء من ٢٥ أبريل ١٩٦٠ . . إلى ٨ أبريل ١٩٦٣ ، بصفة شبه دورية .

وذات مساء زارنى صحفى لبنانى أسمه « أمين أديب » وكان فى زيارة للقاهرة ، حيث قدمته لى إحدى صديقاتى الصحفيات فى دار أخبار اليوم . وعندما عاد إلى لبنان ، كتب عنى تحقيقاً فى مجلته « الأسبوع العربى » بعنوان « ليت لى شيئاً من شجاعته » . ثم أرسل إلى رسالة يطلب بعض إنتاجى لنشره فى « الأسبوع العربى » على أن يكون الحوار بالفصحى . فاخترت ثلاثاً من قصصى ، وترجمت حوارها إلى الفصحى ، وأرسلتها إليه . . فنشرت تباعاً ، إبتداء من شهر آذار « مارس » سنة ١٩٦٠ .

وكان لى صديق ليبى يدرس بكلية دار العلوم بالقاهرة هو الأخ محمد مصطفى الماسك ، بعد تخرجه سافر إلى وطنه ليعمل بالصحافة . وكان يشرف على الصفحة الأدبية بمجلة « فزان » . فطلب منى أن أنشر مجموعة من القصص القصيرة بمجلته . على أن يكون الحوار أيضاً بالفصحى .. فكنت أكتب لهم خصيصاً بالفصحى . ولم يكد يخلو من إنتاجى عدد أسبوعى من مجلة فزان من ٢٧ مايو ١٩٦٠ إلى ١٩ سبتمبر ١٩٦٢ بصفة دائمة .

وفى خلال عام ١٩٦١ أتيح لى نشر بعض قصصى القصيرة فى مجلات تصدر فى عدن باسم « اليقظة » و « أنغام » .

أما جريدة « المساء » فقد بدأت أنشر فيها إنتاجى إبتداء من أول أكتوبر ١٩٦١ إلى ٨ أبريل ١٩٦٥ .

هذا بخلاف بعض المجالات الفردية ، كلما دعيت إلى المساهمة

فى إحدى المجلات بقصة أو مقال أو رأى .

لقد كانت الفترة بين سنة ١٩٦١ و ١٩٦٣ غنية بفرص النشر، وبالتالى كانت خصبة فى الإنتاج . لكنى كنت أعجز أحياناً عن ملاحقة الطلبات التى تزيد عن طاقتى الإنتاجية . فقد كنت أحياناً أجد قصصى مبعثرة بين خمس أو ست مجلات فى وقت واحد . . منها المقروء الذى ذكرته ، ومنها المسموع مثل « مجلة الهواء » وبعض البرامج الإذاعية مثل « حول الأسرة البيضاء » . « وموعد مع الحظ » وغيرها .

وفى السنوات التالية طرقت ميادين أخرى كمجلات الرسالة والأدب والثقافة والقصة . . إلى آخره . . لكن إنتاجى فيها كان محدوداً لإنشغالى بالإنتاج الإذاعى فى صور شتى .. كذلك للركود الملحوظ فى مجالات نشر القصة القصيرة بالذات .

مشروع التفرغ :

عندما كنت فى لندن قرأت فى الجرائد المصرية عن مشروع التفرغ للأدباء الذى أنشأته وزارة الثقافة فى ذلك الوقت ، لهذا كان من أول الأبواب التى طرقتها بعد عودتى هو باب إدارة التفرغ بوزارة الثقافة ، وعرضت فى مشروعى المقترح أن أقدم كتابين خلال عام التفرغ ، أحدهما من تأليفى ويحوى مجموعة من القصص القصيرة ، والآخر من ترجمتى ويحوى مجموعة مختارة من القصص القصيرة من مختلف أقطار العالم .

مضت الأسابيع وأنا مستمر فى عملى بالصحف ، حتى كدت أنسى الطلب الذى قدمته لمشروع التفرغ . وفى ١٨ مارس ١٩٦٠ فوجئت بنشر صورتى فى جريدة « الجمهورية » مع خبر بأنى كنت ضمن ستة أدباء وشعراء إختارتهم اللجنة للتفرغ لمدة سنة مقابل ستين جنيها فى الشهر لكل منهم ، وكان ضمن هذه الدفعة الزميل حسين القبانى . وفى ٢٥ مارس ١٩٦٠ نشرت جريدة « الأخبار » نفس الخبر بالتفصيل .

أسعدنى ذلك التقدير الأدبى والمادى من وزارة الثقافة ومن اللجنة التى كانت تحوى ثلاثة من أعظم أدبائنا وهم الدكتور طه حسين ، والدكتور محمد عوض محمد ، والأستاذ عباس العقاد .

ولم يعكر فرحتى سوى مقال كتبه أحد الكتاب المسرحيين — ولا داعى لذكر اسمه — قال سامحه الله ما معناه إن لجنة التفرغ كانت تضع الاعتبارات الإنسانية فى المحل الأول عندما اختارت الأدباء لتمنحهم التفرغ ! وكان بالطبع يعنينى وزميلى القبانى . وآلمنى أكثر أنى لم أستطع أن أرد على ذلك الكاتب الكبير مفنداً قوله الظالم .

وبعد أيام قليلة ، فوجئت بمقال لهذا الكاتب يحمل عنوانا غريباً : « . . أيها النقاد ارفعوا أيديكم عنى » وكانت تلك الصرخة نتيجة ضغط النقاد عليه فى تلك الفترة مهاجمين إحدى مسرحياته رغم أنها كانت مسرحية جيدة فى رأيى . ولعل الله أراد أن

يذيقه مرارة الظلم حتى لا يظلم غيره . وأعترف بأنى لم أتمالك نفسى من الشماتة فيه حينذاك .

ثم تكفل محرر بجريدة الأهرام بالرد على افتراء ذلك الكاتب بمقال دون توقيع نشر يوم ٨ أبريل ١٩٦٠ ، بعنوان « مرة ثانية تكرم الدولة صبحى الجيار » . وبعد أن قدمنى إلى القارىء فى نقط سريعة يعدد فيها إنتصاراتى ، تكلم عن المشروع ذاته ، ثم عرج على افتراء الكاتب إياه . فقال :

« . . . لم يكن يجب أن يقال مثل هذا الكلام ، لأن اللجنة التى تمنح التفرغ تتكون من محمد عوض محمد ، وطه حسين ، وعباس العقاد ، والثلاثة من الذين لا يرقى الشك إلى تقديرهم . فضلا عن أن خبراتهم فى الحياة لا تجعلهم ينزلقون أمام أول داع من دواعى الإنسانية . .

وشىء آخر . . إن المجلات الكبرى التى نشرت لصبحى الجيار أو حسين القبانى لم تكن تصدرها مؤسسات خيرية ، والجوائز الكثيرة التى فاز بها صبحى والقبانى لم تكن تابعة لوزارة الأوقاف . أما مؤسسات النشر الكبرى التى لا تنشر حرفاً إلا إذا كان وراءه ربح .. هذه المؤسسات التى نشرت لهما . لم تكن تتعاون على سبيل الصدقة . أما القرار الجمهورى الذى أمر بعلاج الأديبين فى الخارج .. فلم يكن لأنهما مريضان . . فهناك مثلهما مئات . . . إنما صدر القرار تقديراً للجهد الفنى والأدبى الذى صدر عنهما » .

إنتهى كلام المحرر الشهم الذى تطوع مشكوراً برد الاعتداء ، ولكنه نسى سهواً موضوع الترجمة وهو نصف مشروع التفرغ ، ولم يذكر أنى ترجمت لإحدى المؤسسات الكبرى وهى مؤسسة فرانكلين ، التى لا يمكن أن تضحى بسمعتها فى سبيل المجاملة ! .

بدأت أعد المجموعات القصصية العالمية وأختار منها أروع ما فيها ، مراعياً ألا أكرر قصة لكاتب واحد أو بلد واحد . بل ترجمت فعلا قصتين قصيرتين . ولكن مضت الأسابيع والشهور ولم ينفذ المشروع . ثم ألغى نهائياً فى ذلك العام لأن ميزانيته استنفدها الفنانون التشكيليون . . ثم تجدد المشروع بعد أعوام حيث وافقت اللجنة على تفرغى عامين متتالين ابتداء من يونية ١٩٦٥ . . أعددت فيهما هذا الكتاب . . ربع قرن فى القيود .

لم قدر على هذا ؟

قبل سفرى للعلاج كنت قد بذلت جهوداً كثيرة لدى مؤسسات الترجمة ولكن دون جدوى ، فمثل هذه المؤسسات تطلب ذوى الخبرة العملية الطويلة ، وتحتم أن يرفقوا أعمالهم السابقة مع طلب التعاون معهم . ولما لم يكن لى ماض عريق فى هذا المجال ، فقد كانت طلباتى كلها ترفض مع كلمات الشكر أو الأسف .

وبعد عودتى من الخارج عدت أطرق أبواب الترجمة من جديد ، بعـــد أن أعددت نماذج مترجمة من القصص القصيرة ،

وكنت أرفقها بأصولها الإنجليزية ، مستعيضاً بهذا عن مسوغات الخبرة القديمة .

وفى ٢٦ ديسمبر ١٩٥٩ فوجئت برسالة مع أحد سعاة مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، سلمه لى باليد ؛ ففتحته بأصابع تتراقص على دقات قلبى . وقد خيل لى أنها تنطوى على دعوة للترجمة . لكن الرسالة الرقيقة كانت تتكلم عن شىء آخر . . فقد جاء فيها :

« . . إن المؤسسة بسبيل نشر كتاب « لم قدر على هذا ؟ » تأليف إيرل شنك ما يرز . وقد ترجمته إلى اللغة العربية السيدة فاطمة محجوب المفتشة بوزارة التربية والتعليم .

ولما كان هذا الكتاب من تأليف كاتب معروف أحاطت به نفس الظروف التى تحيط بكم . وقد وصفها فى كتابه ، فقد رأينا أن نطلب إليكم كتابة مقدمة الكتاب تصفون فيها تجربتكم ورحلتكم الأخيرة إلى إنجلترا . وبذلك يزداد نفع الكتاب للقراء . وستدفع لكم المؤسسة مكافأة رمزية مقدارها عشرين جنيها .

فإذا وجدتم لديكم الرغبة فى كتابة مثل هذه المقدمة ، فإنى أرجو الاتصال بنا تليفونياً للاتفاق فى هذا الشأن » .

كان مرفقاً مع الرسالة النص المترجم للكاتب الأمريكى ، والذى يسرد فيه قصة حياته وكفاحه مع حالته المرضية الخاصة المسماة بالشلل الرعاش ، والتى تجعل مشيته غير ثابتة ، وتضطره إلى شرب الماء بالأنبوبة ، ولا يستطيع أن يتناول اللحم إلا إذا

كان مقطعاً جاهزاً للأكل ، لأن اهتزاز أصابعه لا يجعله يسيطر على الشوكة والسكين . وما عدا هذا فهو يتحرك ويخرج إلى عمله الذى احتل فيه مركزاً مرموقاً فى دنيا الصحافة والأدب .

ويبدو أن المشرفين على إدارة فرع المؤسسة بالقاهرة ، وكلهم من المصريين ، قد أدركوا بوازع وطنى أن كفاح الكاتب الأمريكى ضد العجز الجسدى لا يقاس بجانب انتصارات بعض الكتاب المصريين على قيود المرض .. ومنهم الزميل القبانى وأنا . فطلبوا من كل منا أن يكتب مقدمة للكتاب ، يحكى فيها قصة حياته باختصار .

أنجزنا مهمتنا فى أيام معدودة . ثم صدر الكتاب بالعنوان الذى وضعه الكاتب الأمريكى « لِمَ قدر على هذا ؟ » يحوى ترجمات ذاتية لثلاثتنا . لكنها كانت لمحات سريعة لا تحتمل الإطناب ، لأن الكتاب الأساسى لم يتجاوز خمساً وستين صفحة من الكتاب بينما شغلت المقدمتان ثمانين صفحة .

* * *

الترجمة

فى ١٩ فبراير سنة ١٩٦١ ، وصلتنى رساله بالبريد من مؤسسة فرانكلين عن لسان مستشارها العام المرحوم الأستاذ حسن جلال العروسى يقول فيها :

« . . . فقد سبق لكم الاشتراك مع مؤسسة فرانكلين بمقدمة طريفة كتبتموها لكتاب «لمَ قدر علىّ هذا» ؟ كما أنى قرأت لكم قصصاً بديعة فى بعض الصحف . وإنى لأحب أن تستمر علاقتكم بالمؤسسة غير أن عملها يقوم على ترجمة الكتب الأمريكية . ولا أعلم تماماً إذا كان لكم سابق ممارسة للترجمة حتى يمكن الإستفادة بمجهوداتكم ، وأكون شاكراً لو كتبتم لى فى ذلك » .

ودون أى تردد أسرعت أكتب إليه بأنى مارست الترجمة الأدبية فى المجال الروائى والقصصى ، وأنى أرحب بما يعهد إلى من ترجمات

دون أى ارتباط من جانب المؤسسة . ولهم أن يرفضوا عملى إذا جاء دون المستوى المطلوب .

أردت بهذه الصيغة الواثقة القاطعة أن أطمأنهم إلى التعامل معى دون أن يتحملوا أية مجازفة . فقد كنت أعلم أنهم يتشددون جداً فى اختيار المترجمين من أساتذة الجامعة ومن فى مستواهم . والواقع أنى لم أكن تقدمت بطلب رسمى إلى مؤسسة فرانكلين بالذات ، بعد أن قام بهذه المحاولة أحد أصدقائى . فاعطوه استمارة مطبوعة ، عليها أسئلة محرجة جعلته يعدل عن ملء البيانات . التى كانت تطلب أسماء الجامعات التى درس بها ، ومدة الدراسة فى الخارج ، وأسماء الكتب أو المقالات التى نشرت له . . إلى آخره .

وبالتالى اختصرت انا أيضا الطريق . . متفادياً الحرج .

ولكن مادامت الفرصة جاءت تطرق بابى ، فلم يكن أمامى سبيل إلى التراجع . ويبدو أن إحساسى بضعف مؤهلاتى الرسمية هو الذى دفعنى إلى كتابة تلك العبارة السالفة التى وضعت بها نفسى تحت التجربة ، وكأنما خشيت أن يطلب منى ملء الإستمارة إياها .

وبعد أيام جاءنى ساعى المؤسسة بكتاب متوسط الحجم ، بعنوان « الأخوان رايت » يحكى قصة هذين الأخوين اللذين اخترعا أول طائرة تحلق فى الهواء ، وكانت معه رسالة تطلب فيها المؤسسة أن أقرأ الكتاب وأفيدهم برأيى فيه ، ومدى رغبتى فى ترجمته .

كان الكتاب ممتعاً مشوقاً سهل الأسلوب . فأسرعت أكتب

إليهم مرحباً بالترجمة. لكن ــ مع الأسف ــ اتضح لهم فى آخر لحظة أن فرع المؤسسة فى بيروت سبق أن ترجم هذا الكتاب . فأرسلوا إلى كتاباً آخر بعنوان Action starboard ومعناها الحرفى « معركة الجانب الأيمن من السفينة » . وكانت لغته عادية ، لكنه ملىء بالمصطلحات الغربية التى ليس لها وجود حتى فى القواميس . لكنى لم أشأ أن أتراجع أمام أول عرض ، حتى لا أعطيهم فرصة للشك فى مقدرتى . كذلك كنت أشفق على نفسى من أول تجربة ، حيث تعيقنى الصعوبات غير العادية عن استعراض كفاءتى كاملة .

لم يطل ترددى كثيراً أمام رغبتى الطاغية فى أن أحترف الترجمة التى أحبها ، وأمام العقد المغرى الذى أرفق بالكتاب ، فقد رأيت باباً عريضاً للرزق ينفتح على مصراعيه . . فيتضاءل بجانبه كل إيرادى من نشر القصص فى المجلات التى كانت تتراوح بين خمسة وعشرة جنيهات للقصة ، حسب كفاءة المجلة . . وليس حسب كفاءتى .

قبلت التحدى . . وبدأت أترجم الكتاب .

كانت الرواية من تأليف الكاتب الأمريكى « لويس فيكتورماين » الذى أخذنى خلال صفحاتها فى رحلة إلى أعماق التاريخ . فعشت فى تجارب ممتعة مع حفنة من رجال البحر منذ حوالى مائة وخمسون عاما ، حيث لم تكن المدنية قد هيأت للبشر سبيل الرفاهية والراحة ، وحيث كان الناس يكافحون الحياة بوسائل بدائية نوعا إذا ما قيست بمخترعات النصف الثانى من القرن العشرين ، ويكفى للمقارنة أنهم

كانوا يتنقلون على الخيول والعربات الخشبية ، والسفن الشراعية ، بينما نحن نتجول فى أنحاء العالم بالسيارة والطائرة والصاروخ .

وفى هذه الرواية الطويلة جعلنى الكاتب أعيش فوق سفينة شراعية تمخر عباب المحيط الأطلنطى ، ووصف لى دقائق الحياة على سطحها غير المستقر ، وبين لى كيف تجابه تلك السفينة البدائية العواصف المدمرة . فعشت مع قبطانها وهو يلقى بأوامره الحازمة إلى طاقم بحارته ليفلت بسفينته الصغيرة من خضم الأطلنطى الرهيب . وعرفت كيف كان يتصرف فى أشرعته المربعة الصغيرة بمهارة الخبير المدرب ، فيطوى القلوع العالية ليخفف من ضغط الريح على السفينة حتى لا تجنح بهم . ثم ترتفع الموجات العالية كجبال شاهقة لا تلبث أن تنهار فوق المركب الضئيل فتكاد تطمره ، ولكن بسالة رجال البحر تحت قيادة قبطانهم الحكيم تعرف كيف تخرج من العاصفة بسلام ، بل إنها كانت تتخذها ستاراً يحميها من عدو آخر أكثر هولا وبطشاً !

ثم تهدأ العاصفة وتنقطع الأمطار ، وتعود القلوع تخفق من جديد وقد ملأتها نسمات هينة تضغطها برفق فتنزلق السفينة على سطح الماء . ولكن رجال البحر لا يعرفون الاستقرار ، فلا يلبثون أن يقعوا فى سلسلة من المآزق الحرجة فيكافحون القوى الجبارة بوسائلهم البدائية البسيطة تدعمها عزائم فولاذية متحمسة .

عشت أربعة شهور مع أحداث القصة وأبطالها ، وعايشت

طاقم بحارة السفينة، أسعد بأفراحهم وأنتشى لانتصاراتهم وأشاطرهم أحزانهم ، ويهزنى التحمس لبطولتهم وجلدهم .

كان الكاتب يشرح كيف تدور المعارك البحرية حينذاك فى الحرب بين بريطانيا وأمريكا فى أوائل القرن التاسع عشر . ويصف فى براعة وصدق كيف كانت تتراشق السفينتان بالمدافع البسيطة التى تحشى من فوهاتها ، ثم كيف يتم الهجوم والإستيلاء على سفينة العدو بعد معارك دموية رهيبة بالسيوف والخناجر والبنادق ذات الطلقة الواحدة . بل وبكل ما أوتى الإنسان من مهارة شخصية وقوة بدنية وحيل بارعة أكثرها وليد اللحظة أثناء الإشتبكات اليدوية.

وكانت الرواية حاشدة بخبرات عن الملاحة البحرية ، والجغرافية وعلم الفلك الذى يحدد به موقع السفينة من الكرة الأرضية . وكلها معلومات طريفة مبسطة .

وعندما بدأت ترجمة هذا الكتاب صادفتنى عدة صعوبات وقفت أمامها طويلا . كان أولها إسم الكتاب Action starboard. ولما كان معناه الحرفى — كما أسلفت — لا يليق بعنوان كتاب ، فقد اختصرته إلى « معركة السفينة » وهو فى الحقيقة ينطبق على أحداث الرواية ، ولا يتعارض مع عنوانها الأصلى . فقد خاضت السفينة عدة معارك من كلا جانبيها .

ثم واجهتنى مشكلة أخرى ، عندما أردت نقل أسماء أجزاء السفينة القديمة إلى اللغة العربية . فهى سفينة ذات أشرعة عديدة

مربعة ، تصل إلى أحد عشر شراعا . كل منها له إسم خاص . هذا عدا أسماء الصوارى والحبال والأجزاء الأخرى . وكذلك أساليب الملاحة .

إن مثل هذا الطراز من السفن لا يعرفه العرب ، وبالتالى ليس له مقابل فى اللغة العربية . وبعد أن بحثت فى عدة قواميس أجنبية ومعاجم عربية . لم أصل إلا إلى بعض ألفاظ ، هى فى الواقع تعبر عن أجزاء مشتركة بين تلك السفينة والسفن ذات الشراع التى عرفها الشرق العربى على وجه خاص .

وخطر لى أن ألجأ إلى تبسيط السطور التى وردت فى هذه الأجزاء. من الرواية حتى لا أربك القارىء بمعلومات فنية كثيرة ، لكن أمانة النقل حتمت على عدم حذف أية كلمة ، فلا شك أن الكاتب لم يلجأ إلى تلك التفاصيل جزافاً ، والواقع أنها كانت تضفى على الرواية كثيراً من الواقعية وتجسيم الأحداث بكل ما فيها من انفعالات بالنسبة لقارىء لم يخرج إلى البحر من قبل على مثل تلك السفينة .

ولم تكن تلك الألفاظ جديدة على القارىء العربى فقط ، بدليل أن المؤلف قد أفرد لها ثمانى صفحات فى نهاية الكتاب ، شرح فيها معانى أكثر من مائة كلمة واصطلاح بحرى . وقد رأيت تيسيراً على القارىء العربى أن أشرح تلك التعبيرات بلغة سهلة فى سياق القصة . واستحدثت لبعضها أسماء مبسطة من واقع العمل الذى تؤديه ، أو أسميتها بمكانها مترجماً النص الحرفى للتعبير الإنجليزى ، مثل

Topmast أى الصارى الأعلى ، Mainsail أى الشراع الأكبر .

هذا مالم أعثر على تعبير مطابق من بحثى فى المعاجم أو مع «المراكبية» فى ساحل مصر القديمة . أو من الكتب العربية التى تبحث فى علوم البحار وهى قليلة جداً . ومعظمها تتحدث عن السفن الحديثة . أو أرمز إلى اللفظ الإنجليزى بتعبير مقابل فى العربية ، ثم أشرحه فى الهامش بتوسع مستعينا بشرح قاموس المؤلف نفسه فى آخر الكتاب بعد ترجمته بدقة وعناية .

ومن الكلمات التى ترجمتها حرفياً كلمة Cat أى «قط» ، ثم شرحت فى الهامش أنه تعبير يستعمل فى محيط البحارة فى ذلك العهد ، كناية عن سوط رهيب ذى تسعة فروع معقدة ، ويستعمل فى تأديب المذنبين .

أما الكلمات التى تعبر عن أفعال فكنت أشرحها فى سياق القصة دون أن يحس بها القارىء العربى ، حتى لا أربكه بمزيد من الكلمات الجديدة » . مثل كلمة Scull وتعنى « تسيير القارب بواسطة مجداف واحد ، يعمل من جانب لآخر فوق المؤخرة» . وكلمة Roke ، ومعناها إطلاق النار نحو سفينة معادية عندما يكون سطحاهما متقابلين بالطول ، وهذا الوضع يمكّن القذيفة من أن تكتسح السطح كله ، وينتج عنها تدمير هائل » .

وإلى غير ذلك من التعبيرات التى شرحها المؤلف بالتفصيل فى القاموس الملحق بآخر كتابه . وقد أوردت ترجمتها الحرفية كما

جاءت بالقاموس ، لكنى أدمجتها فى سياق القصة حرصا على وقت القارىء ومنعاً لقطع أفكاره حتى يسترسل فى تتبع أحداث الرواية

أما التعبيرات الفلكية وأسماء النجوم والأبراج ، فقد لجأت فيها إلى مصلحة الأرصاد الجوية ، وحصلت منها على الترجمة الصحيحة للمفردات التى جاءت بالكتاب . ووضعت كل تعريف داخل قوسين مع أنها أسماء أعلام عربية سليمة ، وذلك حتى يميزها القارىء الذى لم تمر به تلك الكلمات من قبل .

كذلك شاء المؤلف أن يجرى بعض الجمل باللغة الأسبانية على ألسنة المواطنين فى جزيرة كوبا ، التى رست عليها السفينة ضمن رحلتها . وهو تصرف مستساغ من مؤلف يكتب بالانجليزية ، لأن كلتا اللغتين تكتب بحروف لاتينية ، ومن السهل على قارىء الانجليزية أن يقرأ باللغة الأسبانية وإن لم يفهمها . وقد لجأ المؤلف إلى سرد هذه الجمل البسيطة على ألسنة أهلها ليعطى القارىء الأمريكى صورة واقعية لما شاهده وسمعه بحارة السفينة الأمريكيون ، ولكنى بالطبع لم أشأ أن أربك القارىء العربى بمثل تلك الألفاظ الأسبانية. ولم أستسغ كتابتها بحروف عربية . ولذا أدمجت معانيها ضمن سياق القصة ، مع الاحتفاظ بأسماء الأعلام كما هى مثـــل حانة إسمها Casa Del Diablo أى بيت الشيطان . فقد جرت القاعدة ألا تترجم أسماء الأعلام والأماكن . فنحن مثلا نكتب « نيو انجلند » كما جاءت فى هذه القصة ، ولا نترجمها إلى إنجلترا الجديدة .

كذلك كان الكتاب مزوداً بصور ورسوم توضيحية لأجزاء السفينة القديمة من الخارج والداخل ، وبعض الأسلحة والأدوات والأجهزة حتى تكتمل الصورة فى ذهن القارىء ، وهذه أيضاً اضطررت إلى ترجمة أسمائها ، فاستنفدت منى مجهوداً كبيراً لأنها أشياء أثرية غير متداولة فى العصر الحديث ، والمعاجم الحديثة .

لم تكن القصة من أدب المغامرات بقدر ما كانت رواية تاريخية تختلط فيها المتعة بالثقافة . وقد ضمنها المؤلف فيكتور مايز عصارة خبراته فى البحرية حيث يعمل ضابطاً بحرياً فى خدمة الأسطول الأمريكى ، وفى نفس منطقة البحر الكاريبى التى تدور فيها أحداث القصة .

ومن المصادفات الطريفة أنى اكتشفت توافقاً عجيباً بين مؤلف هذه الرواية وبينى . فكلانا مولود فى سنة ١٩٢٧ وكلانا يحترف التأليف القصصى ، وكلانا درس الفن ويرسم كتبه بنفسه . ولكننا نقف على طرفى نقيض فى علاقتنا بالبحر . فهو يعشق البحر ، ويقضى معظم حياته متأرجحاً على أمواجه الصاخبة ، بينما أنا لم أغادر اليابسة حيث أرقد فى سكون تام ، وإن كنت فى جميع مراحل حياتى أسكن على بعد خطوات من شاطىء النيل .

كنت أشعر بمسئولية ضخمة أمام ذلك العمل الكبير . فقسمت عدد صفحات الكتاب على عدد الأيام المحددة فى العقد، مع مراعاة تخصيص وقت كاف للمراجعة الدقيقة عدة مرات . كنت أسهر

يوماً إلى ما بعد الثالثة أو الرابعة صباحاً، لأنى لم أكن أبخل بأى وقت فى سبيل إتقان هذا العمل. ولم أكن أتردد فى التضحية بربع ساعة من وقتى فى البحث عن كلمة واحدة، متجولا بين القواميس ومقارناً معانيها المختلفة حتى أختار المعنى المناسب تماماً. ولا أتورع عند أى شك فى الرجوع إلى القاموس إذا ما وجدت معنى الكلمة لا يتمشى مع سياق الكلام، وأحياناً تكون الكلمة مألوفة لدى إلى حد بعيد، ثم يتضح أن لها معان أخرى لم أكن أعرفها. وقد يكون للكلمة الواحدة معنيان متضادان.

إتبعت أسلوباً فى الترجمة يهدف إلى توسيع معلوماتى بجانب آداء مهمتى. فكنت أقرأ صفحة أو أثنتين، وأضع خطوطاً خفيفة بالقلم الرصاص تحت الكلمات الصعبة .. أو لمجرد الشك فى معانيها. ثم أرصد هذه الكلمات فى كشف طويل. وأبدأ فى استخراج معانيها من القواميس، وعندى مجموعة منها على مستويات مختلفة. وأجتهد أن أنقل كل المعانى للكلمة الغامضة حتى إذا ما بدأت الترجمة أختار منها اللفظ المناسب .. وهذا الكشف لا يستنفد أغراضه إلا بعد أن أحفظ الكلمات ومعانيها عن ظهر قلب، حتى إذا ما تكررت فى الصفحات التالية .. لا أضطر إلى استخراجها من القاموس مرة أخرى. ومن المعروف أن لكل كاتب حصيلة معينة من الألفاظ غالباً ما يكررها فى كتاباته. لهذا فإن عدد الكلمات الصعبة تبدأ فى التناقص تدريجياً، حتى إذا ما وصلت إلى منتصف

الكتاب لا أكاد أحتاج إلى القاموس إلا نادراً لمجرد الإطمئنان تحت ضغط الوسوسة .

وإذا ما انتهيت من ترجمة الكتاب كله ، تبدأ المراجعة الأولى لتفادى السهو . والتحقق من دقة الترجمة ونقل المعانى كما كانت فى ذهن المؤلف . وهذه المراجعة تحتاج إلى شخص يقرأ أمامى الإنجليزية ببطء ، بينما أتابعه فى النسخة العربية التى بيدى ، فإذا ما عاودنى الوسواس استوقفه عن القراءة حتى أصحح الخطأ وأطمئن إليه تماماً . ولكن من أين لى بهذا المراجع الذى يقرأ الإنجليزية؟ . .

إن سكرتيرتى نعمات لا تقرأ الانجليزية، كذلك أختاى ووالدتى ثقافتهن فرنسية ولا يقرأن الإنجليزية ، أما أولاد أختى فلا يطاوعنى ضميرى على تعطيلهم عن دروسهم .

إذن كيف أتصرف ؟

لو كنت أستطيع أن أجلس إلى مكتب مريح لكان من الممكن أن أفتح الكتاب الإنجليزى أمامى ، وأتنقل ببصرى بين أوراق والصفحات الإنجليزية ، لكنى حتى أثناء الترجمة لا أستطيع أن أرفع الكتاب الكبير أمامى، لذلك إستأذنت من المؤسسة فى أن أفك الكتاب إلى ملازم ، وأعلق الملزمة التى أترجمها بماسك معدنى فى طرف اللوحة الخشبية التى أكتب عليها . وإذا كانت هذه الطريقة المتعبة يمكن احتمالها فى الترجمة ، فهى تكاد تكون مستحيلة وغير عملية فى المراجعة . وأخيراً اهتديت إلى فكرة طيبة .

جئت بجهاز التسجيل . وسجلت عليه عدة صفحات حتى

إنتهى الشريط . وحرصت ان تكون قراءتى للصفحات الإنجليزية بطيئة نوعاً ، أو ما يسمونه بالسرعة الاملائية . حتى تتيح لى الترجمة الفورية فى المراجعة عندما أعيد الشريط . واسمع صوتى واتابعه على السطور العربية . ولا بأس من أن أوقف جهاز التسجيل من وقت لآخر إذا احتجت إلى وقت للتفكير فى تعبير مشكوك فى صحته .

فإذا ما اطمأنت نفسى إلى الترجمة الأمينة، أدع الكتاب الإنجليزى جانباً وأبدأ مراجعة جديدة للكتاب .. وحدى هذه المرة . وذلك لتنقيح الأسلوب ، وتهذيب اللغة ، وتصحيح النحو ، وموسقة الكلمات وصياغة الجمل الأدبية بدلا من الأسلوب الخبرى . كل هذا فى حدود النص الدقيق ، ودون خروج عن روح المعنى، أى أنى أحرص على المعنى دون اللفظ .

بعد هذه المراجعة أدفع بالنص المترجم إلى الآلة الكاتبة . وبعدها يجىء دور المراجعة الأخيرة على النص المطبوع . وهذا يحتاج إلى شخص يقرأ أمامى من النسخة اليدوية . بينما أصحح النسخ المطبوعة . أو أقرأ أنا أثناء التصحيح ، بينما يتابع هو النص اليدوى حتى أتأكد من عدم سهو الكاتب على الآلة الكاتبة ، فيضيع ثمرة مجهودى .

كنت أعلم أن فى مؤسسة فرانكلين لجنة للمراجعة لا ترحم . وكان العقد ينص على أن رأى اللجنة نهائى ، فإذا رأت أن الكتاب

يحتاج إلى مراجع ، أحالته إلى أحد أساتذة الجامعة المختصين ، وإذا كانت الترجمة ضعيفة أحالتها إلى مترجم آخر لتصحيحها ، على أن يخصم أجر المترجم المصحح من قيمة العقد ..

فإذا أضفنا إلى هذا الجو الرهيب أنى كنت أمارس تجربتى الأولى فى الترجمة الحقيقية الأمينة ، بالإضافة إلى صعوبة تلك الرواية بالذات ، فإنه يتضح بسهولة مدى الرعب الذى كنت أحس به أمام تلك التجربة الصعبة . خاصة وأن الرقم المكتوب أمام أجرى فى العقد كان مائتين وعشرين جنيها .. بالإضافة إلى أجر مراجعة التجارب المطبعية باللغـــة العربية ، وهو ستة قروش عن الصفحة ، فإذا كان الكتاب ٣٣٠ صفحة فان الأجر الكلى يصبح حوالى مائتين وأربعين جنيها ، وهو رقم لم يدخل جيبى من قبل .

سلمت النسخة المترجمة فى موعدها المحدد بالضبط . ولم أكن مطمئناً للنتيجة . لكنى كنت مستريح البال لأنى أديت واجبى بأقصى ما فى جعبتى من إمكانيات .

وبعد ستة أيام بالضبط ، حملت إلىّ سماعة التليفون أروع كلمات سمعتها فى حياتى الأدبية . كان المتحدث هو صوت نسائى ، قالت صاحبته :

— أنا مدام أولجا من لجنة المراجعة فى مؤسسة فرانكلين ..

وبالنيابة عن اللجنة أبلغك إعجابنا الشديد بالمجهود الكبير الذى بذلته فى ترجمة كتاب « معركة السفينة » .

ثم نطقت بالكلمة التى لا أنساها مدى الحياة :

— الواقع أن ترجمتك تعتبر مفخرة يا أستاذ جيار ...

فى تلك اللحظة فقط آمنت بأن مستواى فى الترجمة يستطيع أن يضمن لى حياة كريمة ، ورزقاً موفوراً ، بجانب هوايتى الأدب . أما الوسواس فلم يختف من حياتى ، وظل يلازمنى فى ترجماتى التالية ، رغم أن الكتب التى ترجمتها فيما بعد كانت أسهل كثيراً من « معركة السفينة » . لكنى ظللت .. وسأظل لا أستهين بأى لفظ ، ولن أستنتج معناه من سياق الحديث دون أن أتأكد تماماً من أنه أنسب كلمة تؤدى المعنى المطلوب . ولا أستنكف أبداً أن ألجأ إلى القاموس عند أية بادرة للشك . فإنى لا أقبل مطلقاً أن أتنازل عن الصفة التى أضفتها السيدة الكريمة على إنتاجى الأول . . « مفخرة » .

ثم أكد لى هذا المعنى مدير المؤسسة الأستاذ أحمد رياض أباظة فى مكالمة تليفونية هنأنى فيها بالتوفيق ، وصارحنى بأن المؤسسة وضعت إسمى — بناء على توصية لجنة المراجعة — على قمة قائمة المترجمين الأكفاء الذين يتعاونون معها .

وفى ٢٧ ديسمبر ١٩٦٢ ، وصلتنى رسالة من المرحوم الأستاذ حسن جلال العروسى مستشار عام المؤسسة ، يعرض فيها الكتاب

الثانى الذى ترجمته المؤسسة فيما بعد ، وهو مسرحية بعنوان « قصة فيلادلفيا » لفيليب بارى . وأرفق بها العقود لتوقيعها . وأرسل معها « شيك » بعشرين جنيهاً نوّه إليه فى الرسالة بقوله :

« . . . وإنى ليسرنى أن أنهى إليكم أن إدارة المراجعة والفحص بالمؤسسة قد أثنت على ترجمتكم لما سبق أن أسند إليكم ترجمته . وقد رأيت إزاء ذلك منحكم مكافأة تشجيعية قدرها عشرين جنيهاً صرفت باسمكم بالشيك الذى تجدونه رفق هذا الخطاب . وإنى إذ يسعدنى أن أنهى إليكم ذلك أرجو لكم مزيداً من التوفيق فى حياتكم الأدبية ، كما أرجو استمرار التعاون الأدبى بينكم وبين هذه المؤسسة » .

هكذا استمر تعاونى مع المؤسسة حتى الآن . فترجمت بعد مسرحية « قصة فلادفيا » مجموعة قصصية لفرانك ستوكتون . وهى مجموعة فريدة غير عادية فى مضمونها ، مبنية على نظريات علمية مثيرة . لكنها خالية من التعقيد العلمى .

أما الكتاب الرابع فهو أضخمها جميعاً ، وعنوانه « السيف المعقوف » من تأليف هارولد لامب ، ويحوى تسع روايات كاملة ، البطل فيها فارس قوزاقى شجاع واسع الحيلة ثاقب الذكاء . وقد عهدت المؤسسة إلى بترجمة المغامرات الخمس الأولى ، وعهدت فى نفس الوقت إلى زميلى حسين القبانى بترجمة الأربع الأخرى . وقد صدرت المغامرات التسع فى ثلاثة مجلدات ، أحدها باسمى

والآخر باسم الزميل القبانى. أما المجلد الثالث فيحمل إسمينا معاً .

ولما كان نشاط مؤسسة فرانكلين لا يقتصر على ترجمة الكتب الأدبية ، فقد اضطررت إن أقضى أوقاتاً طويلة معطلا عن الترجمة، لذلك لجأت إلى أبواب أخرى أطرقها حتى أستفيد من وقتى .

قدمت طلباً لمشروع الألف كتاب الذى تشرف عليه وزارة الثقافة ، مصحوباً بترجمات أعددتها خصيصاً كنماذج لإنتاجى ، وأرفقتها بأصولها الانجليزية . وجاءنى تقرير اللجنة بالموافقة ، على أن أختار كتاباً قيماً توافق اللجنة على ترجمته .

قدمت عدة كتب من مكتبتى الخاصة ، مع ملخصات لها ، فلم تحز قبول اللجنة . ثم قدمت مجموعة أخرى فوافقت اللجنة على أحدها، وهو كتاب ضخم يحوى مجموعة عالمية مختارة من القصص القصيرة . وقبل أن أبدأ الترجمة حدثت مفاجأة عجيبة. فقد وقع فى يدى بالصدفة كتاب عربى مترجم يحوى معظم قصص الكتاب المفروض أن أترجمه!

أسرعت أبلغ المختص فى مشروع الألف كتاب، فأثنى على أمانتى، وعاقب الموظف المختص بمراجعة الكتب المرشحة للترجمة على كشف الكتب التى صدرت من قبل حتى يتفادى التكرار .

ورداً للجميل رشح لى المختص كتاباً معيناً عن يوليوس قيصر، ووافقت عليه اللجنة . وتحرر العقد بتاريخ ٢ يوليه ١٩٦١ وتحددت فيه ثلاثة أشهر لإتمام الترجمة . لكنى للأسف لم أعثر على أية نسخة من ذلك الكتاب رغم أنى طرقت جميع المكتبات ، بل أرسلت

إلى الناشر فى انجلترا عن طريق مكتبة كبيرة ، فجاء الرد مخيباً لآملى فى التعاون مع مشروع الألف كتاب . فقد نفدت نسخ الكتاب من إنجلترا أيضا !

وهكذا مضت الشهور وانفسخ العقد تلقائياً . وبقيت صورة منه فى أرشيفى كذكرى للنحس عندما تستحكم حلقاته فى عناد .

ولم تقتصر جهودى فى الترجمة على مؤسسة فرانكلين بالطبع . فقد كنت أترجم من وقت لآخر بعض القصص القصيرة التى تروق لى أثناء قراءتى الشخصية . وأعهد بها إلى الصحف والمجلات أولا بأول . وبعضها كنت أقدمه فى البرامج الإذاعية مثل « مجلة الهواء » وحول « الأسرة البيضاء » ، وبعضها أجريت له إعداداً إذاعياً ، وقدمها البرنامج العام كتمثيليات فى نصف ساعة .

لغات أخرى :

الواقع أنى رغم إجادتى الترجمة من الإنجليزية ، فإنى لا أجيد الأسلوب الأدبى باللغة الإنجليزية ، حقاً إنه فى استطاعتى أن أعبر عن رأيى بالإنجليزية . . بسهولة ، ولكن بأسلوب خبرى ، لا يصل إلى بلاغة الأعمال الأدبية . لهذا لم أجرؤ على نشر إنتاجى بأية لغة سوى العربية . لكنى كنت أفاجأ من وقت لآخر بترجمة بعض قصصى إلى الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية أو الروسية . لكنها كانت محاولات فردية لا أعلم بها إلا بعد أن تتم الترجمة . فلم

أكن أعترض عليها أو أطالب بأجر نشرها . مكتفياً بالاحتفاظ بنسخة من النص الأجنبى . . كتذكار . حتى النص الأجنبى كان يضن به أحياناً سارقو النص العربى بعد أن يقرأوه أمامى . وذلك حتى يوفروا مجهود نسخة مخطوطة . إذ كان يتعذر على بعض المترجمين أن يطبعوها على الآلة الكاتبة . . لتعذر العثور على آلة تكتب تلك اللغة بسعر يتناسب مع إمكانياتهم المادية . ومنهم طلبة مدرسة الألسن ، الذين ترجم أحدهم ثلاث قصص من كتابى الأول « يستر عرضك » إلى الألمانية . ولم يجشم نفسه مشقة الإتصال بى . . لكنى علمت الخبر من أحد زملائه .

أما الطالب الذى ترجم بعض قصصى إلى الروسية ، فقد زارنى بعد أن أتم ترجمته ، ليستكمل بعض معلومات عن حياتى يرفقها بالنصوص المترجمة . وعرض على النصوص الروسية لقصة « سوق العبيد » والتى أصبح اسمها بالروسية « رينوك رابوف » . كذلك ترجم قصة « الكرباج » بالروسية إلى « خيليست » .

كذلك فاجأنى أحد الأصدقاء بنسخة من مجلة فرنسية كانت تصدر فى القاهرة بعنوان Revue du Caire . وكان رئيس تحريرها يدعى اسكندر بابا دوبولو . ووجدت بعدد المجلة الصادر فى أبريل ١٩٦١ ترجمة فرنسية لقصة « كروديا » الذى لم يجد لعنوانها لفظاً مناسباً فى الفرنسية ، فجعل عنوانها Vagabond .. أى المتشرد .

ولم يفكر صاحب المجلة فى إهدائى نسخة منها . ولعله خشى أن أطالبه بأجر نشرها !

كذلك تعرفت بصديق عربى فى لندن ، فطلب مجموعة من قصصى ليترجمها إلى الإنجليزية وينشرها فى إحدى المجلات الأدبية ، لكنى عدت إلى القاهرة قبل أن ينتهى من ترجمتها كلها . ثم علمت من أحد العائدين من هناك بعد عدة شهور ، أنه قرأ إحداها فى مجلة إنجليزية لا يذكر إسمها بالضبط . فلم أهتم بمراسلة ذلك الصديق ، قد كانت علاقتى به قد انقطعت بعد عودتى من لندن .

أما القصتان الوحيدتان اللتان فكر مترجماهما فى استئذانى قبل الترجمة ، فهما قصة « الدائرة المفرغة » التى ترجمتها « انطوانيت بطيخة » إلى الفرنسية ، ونشرت بعدد ١١ يولية ١٩٦٤ من مجلة « إيماج » التى تصدر عن دار الهلال . كذلك قصة « الجاموسة » التى ترجمها إلى الفرنسية أيضاً الصديق سمير وهبى ، ونشرت بمجلة « إيماج » أيضاً فى العدد الصادر يوم ٧ أغسطس ١٩٦٤ .

الإذاعة

عندما نشرت الصحف خبر اختيارى لمشروع التفرغ الأول فى أبريل ١٩٦٠، أسرع الأخ فهمى عمر إلى منزلى بميكروفونه الصديق ليسجل معى حديثاً عن مشروع التفرغ ، وعما أنوى أن أقدمه فى عام التفرغ .

بدأت حديثى أمام الميكروفون باعتراضى على لفظ « منحة التفرغ » ، وقلت إن المنحة شيء يوهب بلامقابل ، لكن مشروع التفرغ يشترط برنامجاً محدداً على درجة معينة من الامتياز والجودة . ويجب أن توافق عليه اللجنة سلفاً ، ويلتزم بتنفيذه الأديب المتفرغ . وعليه أن يقدم تقريراً شهرياً عن إنجازاته فى المشروع قبل أن يتسلم « الشيك » الذى يحوى المكافأة الشهرية . إذن فهذه المبالغ ليست منحة ، بل هى أجر عن عمل ضخم تؤديه . ولهذا اقترح أن تسمى جائزة التفرغ ، لأنها لا تتاح إلا لفئة معينة من المتفوقين

فى الأدب أو الفنون التشكيلية ، أو هى بتعبير آخر «إجازة علمية» تتيحها الدولة لفئة من أبنائها ليقدموا عملا كبيراً لا يتاح لهم إنجازه فى ظروف حياتهم العادية ، حيث تشغلهم أعباء الحياة بالجرى وراء « لقمة العيش » .

بلع الأخ فهمى هذا المنطق المغرور بضحكة رقيقة وقال :

— على كل حال .. هى وجهة نظر ..

ثم حول الحديث عن إنتاجى ، وسألنى عن حجم القصة القصيرة من الناحية الفنية . فقلت إن القصة القصيرة قد تصل إلى أربعين صفحة ، وقد لا تتجاوز الصفحة الواحدة ، والمهم ليس الحجم وإنما الشكل والمضمون .

فسألنى بغتة :

— إن مجلة الهواء لا تحتمل إلا القصص ذات الصفحة الواحدة أو صفحتين على الأكثر .. فهل تستطيع أن تمدنا بقصص من تأليفك فى حدود هذا الحجم . ؟

قلت محرجاً :

— بكل سرور ..

— ومجلة الهواء ترحب بإنتاجك ..

هكذا عقدنا صفقة أمام الميكروفون دون سابق تمهيد ! .
ومنذ ذلك الحين أذاعت لى مجلة الهواء عشرات القصص القصيرة.
بعضها كنت أعده خصيصاً للمجلة ، وأحياناً كنت أضغط إحدى قصصى العادية فى مثل الحجم المطلوب .

الواقع أن هذه الطريقة قد أفادتني كثيراً كمؤلف قصة قصيرة المفروض أنها لا تحتمل أية جملة مزيدة لا تخدم أحداث القصة أو بناءها الفني . فإذا كنت أستطيع أن أحذف من إحدى قصصي عدة صفحات دون أن تفقد قيمتها ، فإن هذا معناه أن أسلوبي كان فيه تطويل مل وحشو لامبرر له . وهكذا تعلمت الإيجاز والتركيز ، وتمرنت تلقائياً على استعمال كلمات مختصرة تحوي شحنة كبيرة من المعاني .

نافذة على الأدب :

وفي أوائل يونيه ١٩٦١ عهد إليّ الأخ فهمي عمر بالإشراف على صفحة ثابتة في مجلة الهواء بعنوان « نافذة على الأدب ». كنت أقدم فيها قطعة شعرية أو زجلية في دقيقتين ، ثم قصة قصيرة في ثلاث دقائق . وكانت القصة أحياناً من تأليفي وأحياناً بقلم أحد الأدباء الناشئين الذين يترددون على الندوة الأدبية التي أعقدها في بيتي كل يوم جمعة .

ومن هذه النافذة دخل كثير من الأدباء إلى الإذاعة لأول مرة ، بعضهم استمر يغذي الإذاعة بإنتاجه حتى بعد أن توقفت تلك النافذة على الأدب ، وبعضهم تخاذل ولم يستطع الصمود في وجه المنافسة العنيفة .

ثم عهد إليّ الأخ فهمي منذ أوائل يونيه ١٩٦٣ بالإشراف

على صفحة بريد المجلة . حيث أمارس هوايتى المحببة فى الرد على مشاكل المستمعين ، وتقييم إنتاجهم فى الشعر والزجل والقصة ، وتوجيه المواهب التى تبشر بالخير إلى مواطن الضعف والقوة فى إنتاجهم . وقد أرد على سؤال الملهوف ينشد إجابة شافية، ولا يرتاح لى بال إلا إذا قدمت له الحل . وأحياناً تحتاج المشكلة إلى فتوى قانونية أو استشارة طبية ، وهذه ألجأ فيها إلى أصدقائى من رجال القانون والطب فأعرض عليهم المشكلة بالتليفون ، وأذيع الحل على مسئوليتهم ومنسوباً إليهم . أما إذا ضاقت معلوماتى عن الإجابة المطلوبة ، فإنى ألجأ إلى مكتبتى التى تتضمن عدة موسوعات عالمية تحوى كل الفنون والعلوم والآداب .

وبقدر ما تكون المشكلة جادة ، فإنى أعطيها كثيراً من اهتمامى ووقتى . وكثيراً ما تحمل رسائل المستمعين تفاهات مضحكة ، كأن أفاجأ بأغنية أو قصيدة لا تمت إلى الزجل أو الشعر بأية صلة ، ثم يشترط مؤلفها أن نعهد بها إلى ملحن معين ومطرب بالذات ، وبعضهم يتواضع قليلا فلا يمانع فى أن تعطى أغنيته إلى المطرب عبد الحليم حافظ .. إذا كانت السيدة أم كلثوم قد أعدت فعلا أغانى موسمها الجديد !! فإن الشاعر العبقرى يتعجل إسعاد الجماهير بمواهبه .. ولا يطيق الانتظار للموسم التالى ! !

هذا نموذج بسيط للرسائل التى أهملها تماماً ، لأفسح المجال الضيق لغيرها من الرسائل الجادة . والعجيب أن أصحاب المواهب

الناضجة فعلاً ، يقدمون إنتاجهم الجيد على استحياء .. طالبين الرأى والمشورة .

إن الأخ النبيل فهمى عمر لم يتح لى فرص النشر والرزق فى مجلته المسموعة فقط ، بل أفسح لى الطريق إلى عدة برامج أخرى ، وكان سندى ونصيرى إذا ما صادفتنى العقبات بين كواليس الإذاعة . وكان يتطوع فى رجولة وشهامة لانتزاع حقوقى المهضومة دون أن أشكو إليه ، فإن خجلى المعهود يمنعنى من الشكوى فى المسائل المالية. ورغم أن الأستاذ عبد الحميد الحديدى رئيس مجلس إدارة الإذاعة ، قد ألح مشكوراً فى أكثر من مناسبة أن أطلبه مباشرة إذا ما احتجت لأى طلب فى الإذاعة ، فإن خجلى المقيت كان يمنعنى دائماً من استغلال هذا الكرم النبيل . ومن هنا يظهر الدور الرئيسى الذى يقوم به الأخ فهمى فى حياتى الإذاعية .. فهو يتطوع دائماً لإسماع صوتى الخجول إلى المسئولين .

لذلك فإنى أحبه كإنسان قبل أن أتعامل معه كإذاعى . وقد جاءت فترة ما أعلنت فيها الإذاعة التقشف ، وطبق القانون على جميع المشتغلين بالإذاعة ، وهبط إيرادى من مجلة الهواء بالذات إلى النصف ، فأعلمنى الأخ فهمى بالخبر وهو فى غاية الألم والحرج. لكنى لم أتذمر وطيبت خاطره ، مؤكداً له أنى أسعد بالعمل فى مجلة الهواء من أجل فهمى عمر حتى ولو كان بلا مقابل .. وكنت

أعنى تماماً ما أقول ، بل أنى ضاعفت من مجهودى حتى لا يتطرق إليه أى شك فى رضائى بالوضع المجحف .

إن فهمى عمر إنسان رقيق فى الحق ، ثائر على الباطل ، خفيف الروح ، شهم ، نبيل ، خدوم ، يأسر محدثه بيسمته الطيبة ، وألفاظه الحانية ، ولديه كلمتان معلقتان بطرف لسانه ، ونابعتان من قلبه .. هما « ياحبيبى . . ، ياخويا » أنه يرددهما دائما أثناء حديثه فى عفوية وصدق وبساطة .

إن فهمى عمر أحد الذين فتحوا أمامى الطريق ، وأحد الذين أقنعونى بأن البشرية ما زالت بخير رغم مافيها من قسوة وصراع .

سامية صادق :

أما الأخت سامية صادق فهى من أقرب الشخصيات الإذاعية إلى نفسى . وهى كإنسانة تمتاز بالرقة وخفة الروح واللباقة ، والشباب الدائم . . إنها لم تتوقف « شكلا وروحاً » عند سن معينة فحسب . بل لعلى لا أكون مبالغاً إذا قلت إنها تتراجع بشبابها إلى الوراء ! وهى ذات قلب كبير حنون ، جعلها تجند جزءاً كبيراً من وقتها للراقدين فى الأسرة البيضاء . وخلال حديثها المجامل تقفز على شفتيها كلمة « ياخويا » باستمرار ، فأحس أنها ليست مجرد صاحبة برنامج إذاعى أتعامل معها ، بل هى أخت حميمة أتفانى فى خدمة برامجها بكل طاقاتى .

أما سامية صادق كمذيعة . . فإن الحديث عن نجاحها كلام معاد لكن ما قد لا يعرفه جمهور المستمعين ، إنها كتلة من النشاط والدبلوماسية . وهى فى برامجها المتعددة تعرف كيف تستغل قدرات معاونيها من المذيعين والفنيين والأدباء ، وذلك بالكلمة الحلوة الرقيقة ، والمعاملة الأخوية المهذبة .

وقد أفسحت لى المجال فى برنامج حول الأسرة البيضاء ، أنشر فيه من وقت لآخر قصة قصيرة ، أو تمثيلية مسلسلة ، أو تلخيصاً لكتاب ، أو قصة مترجمة ، أو طرائف مترجمة من المجلات الأجنبية .

برامج أخرى :

ومن برنامجى «مجلة الهواء» ، «حول الأسرة البيضاء» امتد نشاطى إلى برامج إذاعية أخرى ، منها « مجلة الأسرة » التى تشرف عليها الإذاعية المعروفة ليلى عجرمة فى إذاعة « مع الشعب » . وبرنامج « دنيا الفنون » الذى كانت تشرف عليه الأخت مديحة نجيب ، ثم تعاونت معها أيضا فى برنامج « الوان » الذى يقدم من إذاعة الشرق الأوسط . وقد تخصصت فى هذه البرامج فى الرد على مشاكل المستمعين ، كما ذكرت فى غير هذا المكان من الكتاب .

أما « مجلة الأسرة » فكنت أكتب لها قصصاً قصيرة خاصة

بالأطفال، لكنى تخليت عنها عندما بدأت أتفرغ لوضع هذا الكتاب في يونية ١٩٦٥ .

التمثيليات الاذاعية :

نبهنى بعض النقاد إلى أن إنتاجى القصصى يمتاز بجودة الحوار، مما يرشحنى لكتابة التمثيلية الإذاعية . ولكن هل التمثيلية الإذاعية عبارة عن حوار فقط ؟ . . أليست هناك قواعد لتقسيم المسامع ؟ وهل البناء الدرامى فى التمثيلية الإذاعية يختلف عنه فى القصة المقروءة ؟

حاولت أن أحصل على نص إذاعى مكتوب حتى أدرس أسلوب الإعداد . ولا أقصد بالأسلوب اللغة . . إنما أقصد الناحية التكنيكية . لكنى لم أستطع الحصول على أى نص .

حاولت أن أشترى كتاباً يبحث فى فن تأليف التمثيلية الإذاعية، لكنى لم أجد بغيتى حينذاك فى المكتبات، ولو أنه ظهر فى السنوات الأخيرة كتاب أو اثنين فى هذا الفن .

لم أجد مناصاً من الاعتماد على حاستى الفنية ، والإقدام على التجربة حسبما يمليه إحساسى . على أن أصحح أخطائى مع تكرار المحاولات . ولما كنت شغوفاً وقتذاك بسماع التمثيليات الإذاعية ومن عشاق الحلقات المثيرة ، فقد تكونت لدى فكرة واضحة عن فن الاعداد الإذاعى . فإن طبيعتى المتأملة كما ذكرت من قبل ، تأبى علىّ أن أكون مجرد مستمع ، فكنت أحلل وأدقق

فى كل ما أسمع وأرى ، حتى أكتشف دقائق عملية الخلق فى الأعمال الفنية التى أستمتع بها .

بدأت التجربة ... فتصورت أن الميكروفون هو أداة الاتصال الوحيدة بينى وبين المستمع ، ومن واجبى أن أجعله يتخيل بأذنه حركات الممثلين ، ويدرك بسمعه شكل المكان وأبعاده . أى أن أترجم المشاهد والمناظر الصامتة إلى كلمات تجرى على ألسنة الممثلين فى بساطة وعدم افتعال . فإذا كانت الزوجة مثلا تساعد زوجها فى خلع ثيابه ، فيجب أن أجعلها تقول « دعنى أساعدك فى خلع ثيابك يا ... » وإذا أردت أن أصف الجو الحار ، فلابد أن أجعل أحد الممثلين يعلق على الحر والعرق .. إلى آخره ..

أما البناء الفنى فلم أجد أنه يختلف كثيراً عن مثيله فى القصة المقروءة التى تخصصت فيها . . ثم جئت إلى بند المؤثرات الصوتية وتملكتنى الحيرة . هل تحديدها من اختصاص المؤلف أم المخرج ؟ ولم يطل ترددى ، فقررت أن أذكرها بالتفصيل حسبما تستدعى أحداث التمثيلية . أما الموسيقى التصويرية فكنت أكتفى بأن أذكر إذا ما كانت خفيفة ، أو مرحة ، أوصاخبة ، أورهيبة ، أوحزينة إلى آخر هذه الأجواء . كذلك كنت أراعى فى الانتقال من مسمع لآخر إذا ما كان مفاجئاً حاداً ، أو بطيئاً هادئاً ، أو يندمج آخر المسمع مع بداية المسمع التالى ،أو تذوب الكلمات الأخيرة فى الموسيقى أو فى صوت قطار ، ثم يبدأ المسمع التالى متدرجاً من الخفوت

إلى الارتفاع.. إلى آخر هذه الإيحاءات السمعية التى لمستها بالخبرة ، وأدركتها بحاستى الفنية ، دون دراسة فى معهد أو كتاب.. ذلك لأنى لا أستطيع الذهاب إلى معهد ، كما أن المكتبة العربية كانت تخلو من الكتب التى تعالج هذا الفن .

إنتهيت من كتابة أول تمثيلية إذاعية، وأخذت أبحث عن شخص يقدمنى إلى المخرج يوسف الحطاب مراقب التمثيليات فلم أجد . فاتكلت على الله وطلبته بالتليفون متردداً ، فقد سمعت كثيراً عن عصبيته ولهجته الجافة الآمرة . وصممت فى نفسى أن أنهى المحادثة فوراً إذا مابدر منه أى نفور من مكالمتى .

قدمت له نفسى على استحياء ، فإذا به يستقبلنى مرحباً ، وراح يذكر معلوماته عنى حتى يثبت لى أنه يعرفنى ، ولعله أدرك من لهجتى المترددة أنى أتهيب من عرض إنتاجى عليه، فساعدتنى روحه الطيبة على الاستمرار فى شرح فكرة تعاونى مع مراقبة التمثيليات الإذاعية .

أجابنى ببساطة :

— إعرض علىَّ نموذجاً من تأليفك حتى استطيع أن أحكم على مقدار كفاءتك للإعداد الإذاعى . أما من حيث الفكرة والمضمون فلاشك أنك أديب متمكن .. فقط أرجو أن تراعى أخلاقيات الاذاعة .

قلت :

– وما هى أخلاقيات الإذاعة ؟

قال شارحاً :

– بما أن الإذاعة واسعة الانتشار على كافة المستويات ، فنحن نحرص على أن نتحاشى ما يخدش التقاليد والحياء الشرقى .

– أليست لديكم حدود معينة لهـــذه الأخلاقيات حتى لا أخرج عنها ؟

قال :

– هذه مسائل نسبية . . وعلى العموم يجب تجنب الألفاظ البذيئة التى قد تباح على صفحات الجرائد أو فوق خشبة المسرح أو فى السينما . . كذلك ممنوع القبلات حتى بين الزوج وزوجته . كذلك لا تبيح أخلاقيات الإذاعة أن تخون الزوجة زوجها ، أو يهين الابن أمه . أو تتعرض بالسخرية لمهنة معينة . . أو . .

فقاطعته مندهشاً :

– وهل بقى شىء من عيوبنا الاجتماعية حتى نعالجه فى كتابتنا؟

قال بثقة وحزم :

– نعم . . هذه هى طريقتنا .

اضطررت إلى إبداء موافقتى ، حتى لا أوصد باباً للرزق ، فضلا عن أنى سأمارس هواية ممتعة . . ألا وهى كتابة الحوار التمثيلى . .

ودهشت عندما علمت أنى إذا أعددت قصة سبق نشرها فى الصحف، فسوف أتقاضى عنها أجراً كاملا وهو خمسة عشر جنيهاً لنصف الساعة. أما إذا كانت الفكرة جديدة فإن الأجر يقل!.. ولما أبديت دهشتى من هذا التقييم المادى المعكوس، صاح فى لهجته الحاسمة:

ـ والله هذه هى طريقتنا.

لم أشأ أن أناقشه حتى لا يفقد أعصابه. خاصة وأن طريقتهم تلك كانت فى مصلحتى، وما علىّ إلا أن أختار إحدى قصصى التى سبق نشرها، وأحولها إلى حوار إذاعى..

قدمت ليوسف الحطاب أول تمثيلية إذاعية من تأليفى، أخذتها عن قصة «الميّه فى العالى» التى نشرتها فى جريدة المساء من قبل. وأسعدنى أنه لم يبد أى اعتراض عليها وعهد بها إلى المخرج فتح الله الصفتى. وكان شاباً حديث العهد بالإذاعة. فاتصل بى تليفونياً، ليستأذنى فى اقتطاع جزء مثير من التمثيلية ليبدأ به فى المقدمة حتى يشد الأسماع، ثم تسير التمثيلية كما هى. وجدتها فكرة وجيهة فوافقت على الفور، ثم دار بيننا حديث للتعارف تخللته عبارات المجاملة. ولما وجدت أنه إنسان رقيق مهذب، رجوته أن يشرفنى بالزيارة حتى نتفاهم ونتناقش فى النص قبل إخراجه.

زارنى الأخ فتح الله الصفتى فى بيتى. وعرفت منه أنه يسكن بالصدفة فى الشارع المجاور فى مصر القديمة. وأنه كان يتتبع أخبار

سفرى إلى الخارج عندما كان مايزال طالباً فى المعهد العالى للفنون المسرحية . ولما أطمأننت إلى معدنه الطيب صارحته بأن التمثيلية التى بين يديه هى أولى إنتاجى فى هذا الفن . وسألته أن يجيبنى بصراحة عن مستواها من الناحية الفنية ، فقال فى حماس :

— لاشك أنها جيدة .. وإلا ماوافق عليها الأستاذ الحطاب.

فعدت أسأله :

— وهل هذه هى الصياغة الصحيحة للتمثيلية الإذاعية ؟

— نعم . . بكل تأكيد .

— ألا ترى أنى تعديت حدودى بوصف المؤثرات الصوتية مما قد يوحى إلى المخرج بأنى أتدخل فى مهمته متحذلقا ؟

قال بحماس :

— أبداً بالعكس . . هذه البيانات التى ذكرتها عن إحساس صادق بجو التمثيلية تساعد المخرج وتوضح له الفكرة كما تصورتها كمؤلف .

وقبل أن ينصرف طلب منى فى حياء مهذب أن أغير بعض الألفاظ التى تتنافى مع أخلاقيات الإذاعة ! ورغم أنى لم أجد بها أية بذاءة ، فقد قبلت تغييرها حتى لا أستفز الإذاعة المتزمتة .

صار تقليداً مشكوراً من الأخوة المخرجين أن يتفضلوا بزيارتى للتعارف والمناقشة . وقد تعاونت مع كثير منهم ووطدت صداقتى بهم . وفى مقدمتهم الأخوة : إيهاب الأزهرى ، فتح الله الصفتى ،

محمود يوسف : يوسف حجازى ، أحمد حجازى ، على محمود ، فتحى طوبار ، حسنى عبد العزيز ، على عيسى ، محمد عثمان ، أحمد أبو زيد ، إبراهيم يسرى ، محمد متولى عوض وغيرهم ..

بدأت أغزو البرامج بتمثيلياتى القصيرة التى لا تزيد عن نصف ساعة ، ثم انتقلت إلى الخماسيات المسلسلة، ثم إلى التمثيليات المترجمة، حتى أصبحت من كتاب الإذاعة المعتمدين . وكان يحدد لى عدد من التمثيليات كل دورة بتكليف كتابى حسب حاجة مراقبة التمثيليات .

وقد أذيعت لى حوالى خمسة وعشرون تمثيلية، أولاها فى ديسمبر ١٩٦٢ . ثم توالت تمثيلياتى بصفة دورية ، حتى توقفت فى إبريل ١٩٦٥ : لانشغالى فى مشروع التفرغ . وأعتقد أنى سأعود بعد إنجاز هذا الكتاب إلى ممارسة هوايتى المحببة فى تأليف التمثيليات الإذاعية .

كفاح ونجاح :

كان هذا العنوان هو إسم برنامج مشهور يقدمه الإذاعى المعروف عبد الرحمن صالح . وكان يستضيف فى كل حلقة أحد الشخصيات الناجحة فى الحياة بعد كفاح مرير . وشاء كرمه أن يعدنى ضمن شخصياته المختارة ، وحدد لى موعداً للزيارة طالباً منى أن أدعو عدداً من أصدقائى وزملائى حتى يناقشونى

بعد تلخيص قصة كفاحى أمام الميكروفون،وجاء معه أيضاً بمجموعة أخرى من أصدقائه لنفس الغرض .

إن الأخ عبد الرحمن صالح شخص نبيل مفرط الحساسية ، حتى أنه بعد أن اتخذ مجلسه أمام الميكروفون وبدأ يقدمنى ، إذ بى أفاجأ بأنه توقف عن الكلام ، وأخرج منديلا من جيبه ، وراح يمسح دمعات إنسانية فاضت بها مقلتاه تأثراً من وضعى الذى آلمه .

ساد الحجرة صمت رهيب احتراماً لإنسانيته.وبعد أن هدأت نفسه ، أعاد المنديل إلى جيبه ، وعاد يرفع رأسه متماسكاً ، وهمس يقول :

— لا مؤاخذة ياجماعة . . لقد فقدت أعصابى . .

وأخذ يقدمنى من جديد بمزيد من عبارات التفخيم،والتمجيد ؛ ولعله شاء أن يعوضى عن غدر الزمان الذى استدر العبرات من عينيه . الواقع أن دموعه لم تجرح كبريائى رغم أنى أرفض كلمات الرثاء والعطف ، فإن مايجرحنى فعلا هو إحساسى باستعلاء الرائى ، وتصوره أنى أضعف منه ، وبالتالى أثار ضعفى اشفاقه . لكن دموع الأخ عبد الرحمن الصامتة . . كانت تعنى المشاركة الوجدانية النابعة عن نفس صافية نبيلة . وجاءت عبارات التفخيم والمديح الصادق ، لتؤكد لى أنى أكبر من أن أكون موضع رثاء ، بل موضع تقديره واعجابه .

كان المفروض – كما فى الحلقات السابقة – أن يستدرجنى بأسئلته لأتحدث عن قصة كفاحى ، لكنه تركنى أسترسل فى سرد قصة حياتى فى اختصار وبساطة،لكنهم كانوا يقاطعوننى من وقت لآخر بالتصفيق ، فيحتقن وجهى حياء ، ويطير الكلام من رأسى ، فيقفل الميكروفون حتى أستعيد أفكارى وأشير إليه ليفتحه من جديد وأعود إلى الحديث .

ظللت أتكلم حوالى عشرين دقيقة ، ثم طلب الأخ عبدالرحمن من الحاضرين أن يوجهوا إلىَّ مايخطر لهم من أسئلة ، فأجبت عليها.

أذيع هذا الحديث من البرنامج العام يوم ٢٣ يونيه ١٩٦٠ . وقد علق عليه الناقد عبد الفتاح البارودى فى جريدة الأخبار الصادرة فى ٢٧ يونية ١٩٦٠ تحت عنوان « مأساة أديب» فقال :

« بكل هدوء روى الأديب صبحى الجيار مأساته فى برنامج كفاح ونجاح . . وأى كفاح وأى نجاح أقوى من أن شاباً يرقد على سريره منذ عشرين عاماً بين أربعة جدران ، ورغم ذلك يكتب للناس قصصاً وخواطر، أقل مايقال فيها أنها دعوة لليقظة والحياة. أحسن صاحب البرنامج عبد الرحمن صالح حينما استضاف مجموعة من الأدباء لحضور ندوة زميلهم ، وسمعوا بأنفسهم كيف وصف خيبة أمله بصراحة عندما فشل علاجه فى لندن . هذا هو سر نجاحه كأديب . إن مواجهة الحقيقة هى التى دفعت أدباء «عظمة الإغريق إلى مقاومة أقدارهم وخلقت فى عصر النهضة أدب عظمة الإنسان» .

وخلقت أيضا من صبحى الجيار أديباً لا يهدأ على سريره. بل إستطاع بالاصرار وبالاستفادة من الأدب العالمى أن يتجدد وأن يبتسم فى محنته وفى قصصه. هذا أديب كبير على سرير صغير ».

تمثيليات تليفزيونية :

كان طبيعياً بعد أن كتبت تمثيليات إذاعية أن أفكر فى تأليف تمثيليات تليفزيونية. ولكن كيف أغزو هذا الميدان وأنا لم أر « ستديو تصوير » طوال حياتى ؟ كذلك لم تكن لى صلات بالعاملين فى هذا الميدان، حتى آخذ صورة واضحة للمكان الذى يجرى فيه التصوير، وطريقة حركة الكاميرات، وطريقة بناء الديكورات. أما طريقة تقطيع النص إلى مشاهد، وترجمة المعانى إلى صور .. إلى آخر أساسيات كتابة السيناريو، فقد كانت لدى فكرة واضحة عنها من قراءاتى القديمة لبعض الكتب التى تبحث فى فن السيناريو السينمائى.

لكن كتابة السيناريو للسينما تختلف عنها فى التليفزيون، لاختلاف طريقة التصوير، فتمثيليات التليفزيون تصور على شريط « فيديو » يسجل عليه الصوت والصورة فى نفس الوقت، ومن عيوب هذه الطريقة أن التصوير يجب أن يستمر دون انقطاع طوال فترة التمثيلية. وعلى كاتب السيناريو أن يراعى حركة الكاميرات داخل

المناظر المختلفة، مع حركة الممثلين . أما سيناريو السينما، فهو أسهل فى تنفيذه وإعداده ، لأنه يصور كل لقطة على حدة .

كان علىّ أن استكمل معلوماتى عن كتابة السيناريو التليفزيونى فاقتنيت عدة كتب فى هذا المجال . منها كتاب، مترجم يحوى ثلاث تمثيليات تليفزيونية . درست من خلاله نماذج ناضجة ، توضح بطريقة عملية ماجاء فى الكتب النظرية .

تفاعل هذا كله مع الحاسة الفنية المدربة فى القصة المكتوبة والتمثيلية المسموعة ، ومع مشاهداتى الكثيرة المدققة لمـــا يقدمه التليفزيون فعلا . . ثم أخذت إحدى قصصى وكانت بعنوان « شكراً يا أبى » . وبدأت أعدها للتليفزيون .

ولما كنت لا أعرف أحداً فى هذا المبنى الكبير ، فقد قدمت تمثيليتى إلى لجنة نصوص التليفزيون . . وانتظرت النتيجة . وبعد فترة علمت أن اللجنة كتبت عنها تقريراً يفيد بأن الفكرة هادفة . . والإعداد سليم . . ولكن تتخللها بعض العبارات التى لا تليق بأخلاقيات التليفزيون . . !

كانت هذه الألفاظ ــ لحسن الحظ ــ محددة بالقلم الأحمر . وأذكر منها . . أن الزوجة الشرسة شتمت زوجها الضعيف بقولها : « ياشرابة الخرج » ، وأن هذا الزوج كان يصف زوجته بقوله: « الوليه السعرانة » إلى آخر هذه التعبيرات التى اعتبرتها اللجنة

بذيئة . فأسرعت أستبدلها بسهولة دون أى اعتراض حتى لا يرفضوا التمثيلية كلها .

ومرت فترة أخرى حتى أخذت التمثيلية دورها . ثم فوجئت بتليفون من المخرج نور الدمرداش مراقب التمثيليات حينذاك ، ليقول لى إن تمثيليتى قد أخرجها المخرج حافظ أمين ، وقام ببطولتها الفنانون شفيق نور الدين ، وسامية رشدى ، وعصمت محمود وآخرون . ثم تناول الأخ حافظ أمين السماعة ، وأبدى إعجابه بالنص ، وأبدى رغبته فى أن يستمر التعاون بيننا .

ثم عرضت التمثيلية على القناة رقم ٧ فى يناير ١٩٦٤ ، وأسعدنى أن أرى شخصيات قصتى يتحركون أمامى وقد دبت فيهم الحياة . ومدنى هذا الشعور السعيد بطاقة على الإنتاج . . فكتبت تمثيلية ثانية بعنوان « الشك » لكنها ظلت تتسكع — للأسف — بين مكاتب المخرجين ولجنة النصوص . . إلى أن فقدت تماماً . ولم أستطع حتى أن أسترد نص التمثيلية ! ، وقبل أن أقوم بالمحاولة الثالثة ، انشغلت فى مشروع التفرغ الذى لا يجيز الاشتغال بعمل سواه .

وما كدت انتهى من عامى التفرغ حتى عدت أغزو الشاشة الصغيرة بإحدى قصصى التى ظهرت فى تمثيلية سهرة بعنوان «سيداتى العزيزات . . ودمتم » . التى أعدها السيناريست ممدوح الليثى عن قصة « البرهان » التى سبق أن أعددتها للإذاعة .

مؤلفـــــاتى

لاشك أن كل من يحترف مهنة القلم يسعده أن يضم حصيلة قلمه بين دفتى كتاب يحمل إسمه .. ويحتفظ به المثقفون فى مكتباتهم. فإن النشر فى المجلات والصحف سرعان مايجرفه تيار النسيان ، وتتحول عصارة قلبه إلى ورقة مجعدة تمسح الزجاج ، أو تتحول الجريدة إلى مفرش يتلقى البقع والقاذورات فوق رف أو منضدة. كذلك المجهود الإذاعى يبدده الهواء فى لحظات . أما الكتاب فهو أمل كل مفكر يحرص على حماية قيمه وأفكاره .

عرفت بعض أصدقاء تسرعوا فى تحقيق هذا الأمل، وضحوا بمبالغ من جيوبهم لطبع كتبهم على نفقتهم الخاصة ، أو بالاشتراك مع ناشر نصاب ، يخرجهم — عند المحاسبة — من المولد بلا حمص . وقد علمتنى التجارب أن كتاباً لا يحمل إسم مؤلف معروف أو دار نشر محترمة ، لا يكتب له النجاح . ولا يحظى بسعة الانتشار ، مهما

كان مضمونه رائعاً . لأن القارىء يجهل هذا المضمون ولا يضحي بقروشه من أجل أديب ناشيء غير مضمون . لكنه قد يثق فى الأديب الناشيء إذا ضمنه ناشر محترم .

وقد حاول بعض الناشرين الخطافين أن يغرونى بنشر إنتاجى فى مجموعات قصصية على أن نقتسم الربح والخسارة ، لكنى كنت أرفض عروضهم للأسباب السابقة .

وصممت على ألا أخرج كتاباً بإسمى إلا بعد أن أنشر إنتاجى القصصى فى المجلات الكبرى ، حتى يلتصق إسمى بأذهان الجمهور ، وعندئذ فقط يمكنه أن يجازف بشراء كتاب يحمل إسمى ، ويضحى بساعات طويلة يختلى فيها بأفكارى دون أن يندم على وقته الضائع .

كذلك كنت أشعر بأنه من الأكرم لإنتاجى أن يسعى إلى شرائه أحد الناشرين مقدراً لقيمته ، من أن أفرضه على جمهور القراء على حسابى الخاص . كان هذا المبدأ هو الذى يعنينى من الناحية النفسية ، حتى ولو كان الأجر المدفوع ضئيلا .

بشر عرضك :

فى أواخر سنة ١٩٦٠ تلقيت أول عرض من ناشر حديث العهد بالمهنة ، لكنه كان نشطاً دؤوباً . فوافقت على المبلغ الذى اقترحه ، وكان ثلاثين جنيهاً فقط . بشرط أن يخصص لى مائتى نسخة مطبوعة على ورق ممتاز لتوزيعها كهدايا على أصدقائى الكثيرين .

أخترت أربع عشرة قصة من إنتاجى الذى سبق نشره فى الصحف

والمجلات ، وصدرتها بقصة « يستر عرضك » الفائزة فى مسابقة نادى القصة بالجائزة الأولى الشرفية. وجعلت عنوانها إسماً للكتاب.

المفروض فى القصص إذا تكرر نشرها أن تبدأ بالمجال الضيق، ثم تنشر على مجال واسع ، وفى هذا ما يبرر النشر الثانى . أى أنه من الواجب أن تنشر أولا فى كتاب ، ثم إذا شاء الكاتب تعميم الفائدة فله أن ينشرها فرادى فى المجلات . ولكن العكس هو الذى يحدث فى بلدنا دائماً . وذلك لأسباب اقتصادية . فإن دور النشر لا تدفع ثمناً مجزياً للكتاب. وهو يتراوح بين خمسين وستين جنيهاً للمؤلف المشهور ، فإذا كان الكتاب يضم خمس عشرة ، أو عشرين قصة ، فإنه بحسبة بسيطة يتضح أن أجر القصة يتراوح بين جنيهين ونصف وأربعة جنيهات ، وهو أجر بخس جداً لا يوازى المجهود الشاق الذى يعتصره المؤلف من تفكيره ودمه. لذلك يقنع الناشر بالقصص القديمة ، على أساس أن صاحبها قد استفاد من نشرها بأجر مجز فى الصحف والمجلات . والعجيب — رغم هذا — أن القارىء يقبل على شراء الكتاب لأحد أمرين . . إما لتوقعه أن يجد بعض القصص التى نشرت فى مجلات لم يقرأها . وإما لإعجابه بالمؤلف وحرصه على الاحتفاظ بإنتاجه مجموعاً بين دفتى كتاب يسهل الرجوع إليه من وقت لآخر .

لم تكن مجموعة « يستر عرضك» ، هى أقوى إنتاجى ، لكنى اخترتها على أساس التنويع فى موضوعات القصص بحيث لا تتشابه

منها اثنتان . والتشابه هنا ليس معناه أنى أكرر نفسى ، فإنى حريص على تجنب هذا الخطأ ، لكنى أحياناً أنفعل بموضوع معين، فأتناوله من عدة زوايا مختلفة تماماً . . مثل موضوع « الخدم » تلك الفئة التى أعطف عليها وأتحمس لها كثيراً ، وأنقم على أشباه الآدميين الذين يهدرون إنسانيتهم . لقد كتبت فى هذا الموضوع حوالى أربع أو خمس قصص، منها على سبيل المثال « عذاب ، لن أعترف ، أستغفر الله ، عشرة طاولة .. إلخ » وكل منها تختلف فى موضوعها عن الأخريات . لكنى لم أستسغ أن أنشر قصتين عن فئة واحدة فى نفس الكتاب .

كذلك كتبت عدة قصص تدور فى بيئة واحدة .. هى المستشفى، وذلك بحكم ظروفى وخبراتى ، لكنها تختلف فى مضمونها تماماً ، ولا يجمع بينها غير بيئة الأطباء والمرضى . وهذه أيضاً حرصت على ألا أكررها كثيراً فى كتاب واحد حتى لا أصبغ إنتاجى بجو معين . وإن كان من واجبى كصاحب قلم أن أسجل انفعالاتى الخاصة بصدق ، فقد استنكرت أن أحبس أفكارى فى حدود معينة .

أثناء إعداد الكتاب طلب منى الناشر أن أضع بريشتى رسوماً توضيحية لقصصه . ورغم أنه كان يسعدنى أن أقوم بتلك المهمة ، فقد رفضت أن يستغلنى الناشر دون مقابل . لكنى تطوعت برسم غلاف الكتاب . . بل توليت بنفسى كتابة عنوانه بالخط الحر .

صدر الكتاب فى أوائل يناير ١٩٦١، ولاقى رواجاً كبيراً، لأن الناشر الماكر استغل الأضواء التى كانت مسلطة علىّ فى ذلك الوقت ، وراح ينوه فى إعلانات الدعاية إلى أن صبحى الجيار يصدر أول مجموعة قصصية يضمنها تجاربه الاجتماعية .

وقد نفدت أول طبعة من السوق بعد شهور قليلة ، حتى أنى لم أجد نسخاً منها فى المكتبات أو حتى على سور الأزبكية ، لأهديها إلى أصدقائى الجدد ، والذين يطلبون التعرف على إنتاجى .

كذلك استقبل النقاد والصحفيون هذا الكتاب استقبالا حافلا . وأرجو أن تسمح لى – يا أخى القارىء – بنقل أجزاء من آرائهم ، حتى أكفى نفسى حرج الحديث عن كتابى :

كتب الزميل الصحفى عاشور عليش فى عدد جريدة المساء الصادر يوم ١٧ فبراير ١٩٦١ :

« مجموعة « يستر عرضك » الأستاذ صبحى الجيار ، أشهد أنى سعدت فعلا بقراءتها ، لأنها تمثل اتجاهاً إنسانياً واقعياً ، يمتاز بالبساطة والوضوح . وتأثيره البالغ فى النفوس . وهى تبشر بموهبة قصصية غنية وناضجة ، سيكون لها مكان مرموق فى المستقبل القريب .

فالكاتب يعرض لك فى صدق وبساطة أخاذة صوراً حقيقية فى مجتمعنا الذى نعيش فيه . وهو مجتمع رغم شروره الكثيرة وقسوته الظاهرة ، لا يخلو من تعاطف إنسانى يضفى على الحياة أملا وقيمة » .

وكتب الناقد عباس خضر فى جريدة الأهرام يوم ١٠ فبراير ١٩٦١.

« . . وصبحى الجيار – كما يبدو فى قصصه – كاتب أقصوصة موهوب . نمت موهبته بثقافة تجمع بين معرفة الأصول الفنية . . وفهم الحياة والخبرة بالنفس البشرية . وامتزجت بروح الفنان الذى يحب الناس حتى وهو يسخر منهم » .

إلى أن اختتم نقده فقال :

« . . وصبحى الجيار أسلوبه جميل ، ولغته سهلة عذبة سليمة ، وهذه ميزة أسجلها له وسط هذا الغمار من قصص كثيرة تخرج الينا بأسلوب مختلط ولغة شوهاء ، لا هى عربية ولا هى عامية » .

وكتب ناقد مجلة « الهلال » فى عدد مارس ١٩٦١ :

« .. مؤلف هذه المجموعة كاتب فنان شاب ، فى أعماقه عزيمة قوية جبارة ، وفى رأسه عقل واع لماح ، وقد يستغرب من يقرأ هذه المجموعة إذا عرف أن كاتبها يعيش ملازماً الفراش بين جدران أربعة منذ مايزيد على العشرين عاماً . ومع ذلك فإن المفكر اللماح يطوف آفاقاً واسعة وعوالم بعيدة يستكنه أغوارها ، ليسطر مالمسه أو شاهده فى أحسن القصص .

ومما لا شك فيه أن الأستاذ صبحى الجيار ، قصاص بالسليقة وأن موهبة القصة تمتزج بدمائه وتجرى معها فى عروقه . وقد استمتعت بقراءة هذه المجموعة القصصية الخالية من الحشو المحبوكة الحوار حبكاً جيداً ... » .

وعلق ناقد مجلة « صوت الشرق » على الكتاب فقال فى عدد مارس ١٩٦١ :

« . . تضم المجموعة ١٤ قصة قصيرة . سجلها الكاتب ببراعة ودقة ، وتنقل فيها بين المدينة والقرية ، متتبعاً مشاكل الناس وهمومهم ، مقتطفاً من هنا وهناك صوراً شعبية أجاد سبكها ورسمها.

وفى هذه المجموعة نجد نماذج شعبية رسمت باتقان ، حتى تكاد أن تنطق ، كما نجد الحوار بسيطاً قريباً إلى اللهجة الشعبية ، رغم مشكلة الازدواج اللغوى الذى ارتضاه الكاتب وسلم به فى الحوار . . ومع هذا فالمجموعة تبشر بخير كثير . بل أنها قدمت الكثير بالفعل . »

ولم تكن كل التعليقات عبارة عن بخور عطر يحرق أمام الكتاب ومؤلفه . فقد هاجمته بعض الأقلام ، وأحمد الله أنها لم تكن لنقاد محترفين ، بل لهواة ناشئين ، ومنهم أحد تلاميذى فى مجلة قصتى ، ولاداعى لذكر اسمه ، وقد كتب نقداً فى مجلة الأدب التى كان يصدرها المرحوم الشيخ أمين الخولى . والواقع أنه لم يهاجم مادة الكتاب ، وإلا ما تألمت ، بل لعــــله جاملنى بعبارات المديح أكثر مما ينبغى. لكنه أساءإلىّ غير متعمد ، فإن نيات هذا الشاب بالنسبة لى فوق مستوى الشبهات . لقد أراد أن يجسم إعجابه ، فجاء بعكس النتيجة المرجوة .

قال فى مقدمة النقد :

«رغم أن أديبنا لم يباشر المجتمع بما فيه من مشاكل ومتناقضات وأزمات و..الخ إلا أنه — وقصصه خير دليل — قد فاق فى تصويره وعرضه لأزماتنا الاجتماعية الكثيرين من الأدباء» .

ولا أدرى كيف تصور الناقد الهمام أنى معزول عن المجتمع . وأنى لا أتعرض للمشاكل والمتناقضات والأزمات ..؟ ! مع أنه يعرف الكثير عن حياتى وأعمالى واتصالاتى بالناس على مختلف الطبقات والبيئات . بل وأنه هو بالذات كثيراً ما كان يستشيرنى فى مشاكله الخاصة !

وليت الأمر اقتصر على هذا المنطق المعكوس ، بل أنه فى جرأة وثقة تعرض لناحية حساسة فى حياتى ، عندما قال فى آخر مقاله الطويل :

« .. كما أننا نلحظ أن المرأة عند صبحى الجيار ليست أملا حرم منه هو لمرضه فقط ... الخ » .

ولا أدرى كيف تسنى للأخ الناقد أن يستنتج هذه النظرية التى ليس لها مبرر إلا جهل الناقد بطبيعة مرضى وحقيقته . وسواء كان استنتاجه الافتراضى صحيحاً أو خاطئاً ، فأعتقد أن من اللياقة ألا يخوض الناقد بقلمه فى حياة الكاتب الخاصة ، إلا إذا استند إلى دراسة صحيحة من واقع ترجمة ذاتية للكاتب .

وإن كان هذا الناقد ، قد أساء الاستنتاج عن جهل ، فقد هاجمني ناقد آخر عن عمد بألفاظ أبعد ما تكون عن اللياقة . نقد نشر مقالاً في مجلة « الصداقة » الأمريكية التي توزع مجاناً ، وبدأه بعنوان كبير : « السادية في أدب صبحي الجيار » ثم وصفني بأني كالفأر الحبيس أنقم على الدنيا ، وأنتقم من أبطال قصصي فأعذبهم وأتلذذ بشقائهم !

ولما كان هذا الناقد لم يقابلني مرة واحدة حتى الآن ، ولم يعرف شيئاً عن طباعي وشخصيتي ، فإنه يتضح مدى افترائه وتجنيه على شخصي لمجرد استعراض عضلاته في الربط السيكولوجي بيني وبين أبطال قصصي . وإني لأدهش كيف أباح لنفسه أن يفسر انفعالي بآلام الآخرين بأنه رغبة في التعذيب والانتقام . . لأني فأر حبيس !

وقد أتاح لي رئيس التحرير أن أرد عليه في العدد التالي ، فهاجمت استنتاجاته الخاطئة ، واستنكرت منه أن يتعرض لتحليل شخصية لم يقابلها ولم يقرأ عنها ما يبرر تفسيره الخاطيء .

وعاد الناقد السيكولوجي يرد على مقالي في العدد التالي مبرراً لنفسه حق النقد على أساس المنهج التحليلي . ثم حاول أن يقدم الدليل على أنه يعرفني تمام المعرفة فكتب يقول :

« ومع ذلك أنا أطمئن صبحي الجيار على أني أعرف عنه كثيراً جداً . . أكثر مما يظن هو نفسه . . وأعرف عنه بالذات

أنه مرح جداً . . وشخصية محبوبة فى مجالسه الخاصة . أعرفه إلى درجة أننى أعرف أن لديه جهاز تسجيل عليه تسجيلات نادرة قد يتاح لى يوماً أن أسمعها » .

يالها من مستندات تؤكد عمق دراسته لشخصيتى ! ويالها من متناقضات يكذب بها نفسه عندما يصفنى بالفأر الحبيس القاسى، ثم يؤكد أنه يعرف أنى مرح جداً .. إلى آخره .. فكيف يتسنى أن يكون الفأر مرحاً وقاسياً فى وقت واحد ؟ .

وفى آخر المقال الهجومى ، تنبت للناقد فجأة أجنحة الملائكة ويقول فى سماحة وكرم :

« .. مرة أخرى أقول بصدق إن الكتاب فى مجموعه مجهود ضخم لأديب مجاهد ، لو أن أى إنسان آخر مرت به ظروفه .. ما كتب حرفاً » .

شكراً للناقد المهذب . ولو أنى مازلت أصر على أن يكون النقد الأدبى موضوعياً ، ينصب على العمل ذاته ، ولا يتعرض لشخص المؤلف ، فإن أعصاب المؤلف ومشاعره ليست ملكاً مباحاً لكل من يعبث بها ، ويفترض النظريات الاستعراضية لتدعيم آرائه وافتراضاته العشوائية .

إن معظم النقاد ينادون بأن من حق الناقد أن يخوض فى خصوصيات الكاتب ، لأن حياة الكاتب وما يحيط به من ظروف وما يصادفه من تجارب هى النبع الذى يتدفق منه إنتاجه . وهذا

صحيح إلا حد ما . لكن الكاتب قد يستقى كتاباته أحياناً من حياة الآخرين . ومن هنا تصبح مهمة الناقد شاقة وحساسة فى تلمس حدود العمل الأدبى فى أعماق المؤلف . ومن العبث أن نطلق الحرية لكل من هب ودب ليخوض فى خصوصيات الكاتب ، فيخرج علينا بافتراضات عشوائية ، ثم يتحول مقاله النقدى إلى محاولات لتأكيد وجهة نظره وتبريرها للقارىء .. وما كان أغناه عن هذه الاقتراءات العفوية لو أنه ركز إهتمامه على تقييم العمل الفنى ذاته.

وقد التمس عذراً للناقد ، إذا ماقام بدراسة مستفيضة عن حياة الكاتب من واقع ترجمة ذاتية أواعترافات شخصية، ثم يتتبع آثارها فى إنتاجه وأعماله الأدبية . حتى فى هذه الحالة يجب أن يتناول الناقد تحليلاته فى حرص حتى لا يتعثر فى هذا الموضوع الشائك . فإن الظروف المتشابهة فى حياة كاتبين ، قد تؤدى إلى نتائج مختلفة .. بل متضادة على طرف نقيض . فقد نجد كاتباً قست عليه الأقدار، فخلقت منه إنساناً حاقداً متذمراً . . يصب أفكاره المدمرة على الورق ، كما يصبها على الدنيا والناس . وكاتب آخر إجتاز نفس الظروف القاسية بصورة أو بأخرى ، فصقلت الآلام روحه ، وأرهفت حساسيته لآلام الغير ، فجند قلمه للدفاع عن الضعيف والمظلوم ، حتى يجنبهم هول ماقاساه شخصياً . ويعمق أحاسيس الجماهير بمآسى الضعفاء .

فكيف يتسنى للناقد الهاوى أن يميز بين المتناقضين ؟ وكيف

يسمح لضميره أن يجزم بحكم قاطع إن لم يكن خبيراً ودارساً حتى يطمئن إلى حيثات الحكم الذى ينشره على ملايين القراء ؟ .

سوق العبيد :

فى يولية ١٩٦٣ صدرت مجموعتى القصصية الثانية عن دار روز اليوسف فى سلسلة الكتاب الذهبى . كانت المجموعة باسم « سوق العبيد » ، وتحوى سبع عشرة قصة ، إخترتها من رصيدى المتزايد على أساس الأجود أولا ، وتنوع الأجواء والمضامين ، وليس على أساس التسلسل التاريخى .

لم يتعرض هذا الكتاب لكثير من الضجة ، فلم يتناوله إلا عدد محدود من النقاد والصحفيين . كما عقدت له ندوة إذاعية فى البرنامج الثانى ، سجلها الإذاعى ابراهيم الصيرفى فى بيتى مع اثنين من النقاد ، هما الكاتبان عباس خضر وتوفيق حنا . كما قرأت إحدى قصص المجموعة بصوتى حسب تقليد هذا البرنامج .

كان النقاد يتحمسون لبعض قصص الكتاب ، ويعترضون على البعض الآخر ، ويحللون كل قصة على حدة . وهذا هو أسلوب النقد الموضوعى الذى احترمه مهما كان معارضاً لوجهة نظرى ، فالمفروض أن الأفكار والمفاهيم والأساليب والمذاهب تختلف من شخص لآخر ، وكل إنسان حر فى التعبير عن رأيه وانطباعاته أمام العمل الأدبى ، ومن المستحيل أن يتمكن أى كاتب من إقناع الجميع

بأفكاره ويكفيني أن أشعر بجهود الناقد في استيعاب الكتاب ودراسته ، ثم معالجته بروح الانصاف والتقييم الدقيق لإبراز نواحي القوة والضعف ، بحيث لا يكون كل همه منصرفاً لتصيد الأخطاء فقط ، حتى يوهم القارىء بأستاذيته ومقدرته الفذة على تقويم أخطاء الآخرين .

من الذين راعوا ضمائرهم في نقد هذا الكتاب . . الناقدان عباس خضر وتوفيق حنا في الندوة الإذاعية ، والناقد الأديب يوسف الشاروني في مقاله الطويل بمجلة « المجلة » عدد أكتوبر سنة ١٩٦٣ ، الذي تناول فيه كل قصة على حدة ، بين مؤيد ومعترض ، ثم ختم المقال بقوله :

« ولست أجد في الختام خيراً من تحية الأديب صبحي الجيار ، لأنه لا يكافح المرض فحسب ، بل يعلو عليه في مثل هذه المحاولات الأدبية ، فهو مثل من أمثلة الكفاح الإنساني الذي لا يعرف اليأس وإذا كان الأمريكيون يفخرون اليوم بهيلين كيلر ، فإن علينا أن نفخر بأمثال صبحي الجيار . . . » .

بمثل هذه الكلمات الرقيقة ، أشعرني الناقد المهذب بأنه صديق رغم معارضته لبعض جوانب العمل الأدبي . وأثبت لي وللقراء أنه لم يقصد من إبراز العيوب سوى المصلحة العامة ، وأنه لم يكن متجنياً أو حاقداً أو مستعرضاً عضلاته وأستاذيته .

كذلك كان الصحفي المعروف ابراهيم نوار ، عندما تناول

قصص الكتاب بالتعليق السريع فى ١٢ أغسطس ١٩٦٣ بجريدة الجمهورية . ورغم هـــذا تعرض لكل قصة على حدة بالتلخيص والتحليل . ثم لابأس من شرح انطباعاته إجمالا عن الكتاب كله إذ رأى خيطاً رئيسياً يربط بين أجزائه فيقول :

« ولعله ليس عجيباً أن يكون الخيط الذى يربط هذه القصص جميعاً . . أو معظمها على الأقل . . هو الشعور بالألم النابع عن إنسانية معذبة . . وأرواح مضطهدة كتب عليها أن تعانى مرارة الحياة وقسوتها . وكأنها فى الواقع انسكاب روح الكاتب مداداً يكتب به قصصه . . فتخرج .. عن قصد أو من غير قصد تعبيراً عن الألم فى أصدق صوره وأكثرها شفافية ورقة حس . . إن سمة الألم التى أضفاها صبحى الجيار على مجموعة قصصه تجعلها أكثر . إنسانية وأكثر حيوية . . وأكثر نبضاً » .

لكن الذى آلمنى من بين نقاد هذا الكتاب هو أحد أصدقائى الحميمين الذى هاجمنى فى إحدى المجلات اللبنانية . كتب الناقد الصديق مهاجماً الكتاب كله فى سخرية وتهكم ، ووصف قصصى بأنها حكايات وليست قصصاً قصيرة . ثم لبس ثوب الأساتذة وراح يلقننى درساً فى فن كتابة القصة القصيرة !

وفى ندوتى الأدبية الأسبوعية ، عاتبته أمام مجموعة من الأدباء والأصدقاء . . عاتبته لأنه أطلق حكمه الساخر على المجموعة القصصية كلها دون أن يقرأ منها غير القصتين اللتين تناولهما

الناقد الصديق مقاله بمقدمة لم ترق لى قال فيها :

« . . إنه يرقد على فراشه لا يغادره منذ عشرين عاماً ، النافذة التى يطل منها على العـــالم الخارجى هى الأقارب والأهل والأصدقاء ، ثم التليفون والراديو والتليفزيون والكتاب . لذلك فنحن لا نتوقع منه تجربة شديدة الاتساع والعمق إلا فى هذه الحدود الضيقة »

هكذا اطلق الناقد حكماً شاملا بضحالة تجاربى . ولا أدرى ماذا يقصد بالتجارب العميقة ؟ وأى تجارب تنقص إنساناً يعمل وينتج ، ويختلط بالناس فى أعماله الفنية والإدارية ، ويعيش فى مشاكل مئات من قرائه وأصدقائه . ويكتب قصصاً عن الريف ، وعن القصور الأرستقراطية ، وعن المغتربين فى الخارج ، وعن المستشفيات ، والمصانع ، والمدارس ، وعن ماسح الأحذية ، والحشاش ، وحلاق الصحة ، ثم عن المشاكل العائلية التى تدور بين جدران البيت. ولو جندت قلمى لعرض المشاكل المنزلية فقط ، لما كان لمعترض الحق فى اتهامى بالضحالة ، فالعمق لا يتطلب مساحة أفقية واسعة ، ويكفى أن أتعمق فى المشاكل البيتية لأكون قد أديت رسالتى كصاحب قلم .

إن الناقد الأمين الذى يقدر رسالة النقد البناء يجب أن يقيم من ضميره وازعاً يحميه من الشطط ، فلا يبالغ ولا يثبط ، ولا يتهكم ويتظرف على حساب المؤلف الذى لا يجد من يحميه ، ولا تترك له

فرصة الدفاع عن نفسه ، لأن الناقد عادة يكون موظفاً فى الجريدة التى تحمى ظهره ..

رغم هذه المعركة الأدبية ، فما زال هذا الناقد من أخلص أصدقائى، فإنى أميز دائماً بين الخلافات الفكرية والصداقات الشخصية.

العيون الزرق :

وفى منتصف عام ١٩٦٦ فوجئت بصدور مجموعتى القصصية الثالثة « العيون الزرق » . وكنت قد تعاقدت على نشرها مع المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر فى يونيه ١٩٦٣ .

لم تعلن عنها المؤسسة . ولم أفكر فى إهداء نسخة منها إلى أحد الصحفيين أو النقاد . حتى لا يندفع أحد الدخلاء وراء عقدة العظمة، فيقيم من نفسه حاكماً بأمره ، ويفرض أحكامه العشوائية دون رقيب أو قانون يحمى فلذات أفكارى التى اعتصرها من نفسى فى جهد ومعاناة . وليكن القارىء وحده هو صاحب الرأى الأول والأخير .. فإما أن يقبل إنتاجى أو يرفضه .

ليت المسئولين فى وزارة الثقافة يستصدرون قانوناً يحمى الأدباء والفنانين عموماً من هجوم النقاد والظالمين. ولما كان تحديد الظلم أمراً عسيراً ، خاصة إذا كان أسلوب الناقد فضفاضاً يحتمل أكثر من معنى ، فإنى أقترح أن ينشر الناقد وجهة نظره فى حدود النقد الموضوعى ، ثم يتاح للكاتب أن يعقب على رأى الناقد فى

نفس المساحة و نفس العدد إن أمكن . وبهذا يتاح للقارىء أن يستخلص الحقيقة بدراسة الرأيين والعمل الأدبي ذاته .

ضمير القاضي :

إن مهمة الناقد في تصوري لا تقل عن مسئولية القاضي ، الذي يجب أن يكون حكمه محايداً ، منزهاً عن الغرض . وكما يفرض عليه واجبه ألا يظلم.. كذلك ليس من حقه أن يجامل أو يحابي في غير حق.

اجتزت هذه التجربة منذ سنة ١٩٦٥ إلى الآن ، عندما اختارني نادي القصة ضمن الفاحصين الذين يقيّمون إنتاج المتقدمين لمسابقة القصة القصيرة . فأحسست لأول مرة بشيء من الرهبة والحرج أمام مائة قصة ، لا أعرف أحداً من أصحابها . وإن كنت أدرك بالبديهة أن وراء كل قصة برعماً موهوباً يتلمس طريقاً إلى ميدان الأدب . قد تحطم معنوياته كلمات ساخرة ، أو درجة ظالمة ، يحس أمام قسوتها بأنه غير جدير بالاستمرار في حمل القلم .

حقاً إن هناك نسبة كبيرة ممن يصور لهم الغرور أنهم جديرون بالاشتراك في مسابقة أدبية كهذه ، رغم أنهم محرومون من الموهبة ، وهؤلاء فقط أجد من واجبي أن أوقظهم من غفوتهم بكلمات حاسمة ، حتى أوفر عليهم المجهود الضائع ، الذي ما دفعهم إلى بذله سوى الطموح إلى الشهرة والمجد الزائف . أما الذي ألمح بين سطوره شبه موهبة ، فلا أسمح لقلمي بتثبيط حماسه . بل أبحث

مدققاً عن ميزاته الأدبية ، فأبرزها فى تعليق الذى أحرص على ألا يقل عن بضعة سطور مخلصة، تتضمن نقداً وافياً يبرز الحسنات قبل أن يشير إلى العيوب .

وكان من الملاحظات المثيرة التى تلفت أنظار المتسابقين ، أن يحصل أحدهم على أرقام عالية من بعض الفاحصين ، ثم يفاجأ بواحد منهم يمنحه صفراً أو درجة ضئيلة لا تتناسب مع الدرجات الأخرى التى حصلت عليها نفس القصة . ولا أدرى فى الواقع أى مبرر منطقى لمثل هذا الفاحص الذى يبدو ظالماً ، أو جاهلا . لكنى استبعد الظلم من شخص يجهل تماماً شخصية المظلوم ، كذلك ليس من الإنصاف أن نفترض الجهل فى أعضاء اللجنة الذين يختارون على أساس من ماضيهم المرموق . إذن فلابد أن يكون هناك سبب وجيه لهذا التناقض الواضح . ولعل أقرب الاحتمالات إلى الواقع — كما تخيلت — هو اعتناق المتسابق مبدأ فكرياً أو مذهباً أدبياً يتعارض مع معتنقات الفاحص .

لهذا كنت أحرص على ألا أدع لمزاجى الخاص فرصة للتدخل فى حكمى العادل على العمل الأدبى . حتى ولو كان المتسابق من أنصار أدب اللامعقول الذى لا أرتاح إليه . فإنى لا أقيم من نفسى ديكتاتوراً على دولة الأدب ، بل أجتهد أن أقيِّم الموهبة التى بين يدى ، بصرف النظر عن العمل الأدبى نفسه ، حتى لو كان منحرفاً

كضحية لموجة جارفة ، فالإنحراف لن يدوم ، وإنما الدائم هو الإنسان الموهوب نفسه .

أعترف بأنها مهمة شاقة أن يوضع بين يدى مصير إنسان ، قد يكون حكمى عليه هو القشة التى تقصم ظهر البعير . وقد تكون كلماتى الحميمة المشجعة هى الأمل الذى يدفعه إلى متابعة السير لتنمية موهبته .

ربما أكون مبالغاً فى تقدير مهمتى اليسيرة . وقد يكون مبعثها رغبتى القوية فى حماية الناشئين من الظلم والاستهتار الذى قاسيت منه فى بداية حياتى العملية . ولكن الحقيقة التى تؤكدها تجاربى العديدة مع البراعم الموهوبة ، هى أن التشجيع المنصف قد ينتشل يائساً من ظلام الاستكانة ، كذلك الكلمة الساخرة قد تذبل البراعم الغضة . قبل أن تتفتح للنور .

كتب تحت الطبع :

وفى مكتبتى مخطوطات أخرى تكفى لإخراج ثلاثة كتب جديدة ، أحدها يحوى مجموعة قصصية سبق نشرها فرادى بالمجلات ، وكتاب آخر يحوى مجموعة قصص قصيرة مترجمة . وكتاب ثالث يحوى مجموعة القصص القصيرة جداً ، التى سبق أن قدمتها فى البرامج الإذاعية ، ويمكننى أن أختار منها حوالى أربعين أو خمسين قصة مركزة . وأنشرها بعنوان « حكايات قصيرة » .

لكنى اصبحت متردداً أمام إنتاجى القديم ، وأحجم عن وضع إسمى على كتاب لست مقتنعاً بكل كلمة فيه . وكلما قلبت هذه المجموعات التى نشرت فعلا خلال السنوات الخمس الماضية ، أشعر أنها دون المستوى الذى أرتضيه لنفسى الآن . ولا أدرى هل هذا الإحساس يتضمن تقييماً عادلاً لإنتاجى ، أم أن رغبتى فى الإجادة جعلتنى أظلم إنتاجى القـــديم وأقف منه موقف المتشكك القلق .

الواقع أن فرص النشر متاحة أمامى ، لكنى لم أبذل أى جهد لعرضها على دور النشر حتى الآن . ولا أعتقد أنى سأفعل هذا طالما كان لدى إنتاج جديد أدفع به إلى المطبعة .

* * *

منهجي في التأليف

لاشك أن أسلوب الكاتب فى حياته اليومية ، وطباعه الخاصة ، تتدخل إلى حد بعيد فى أسلوب كتابته ، وأعنى هنا المذاهب الأدبية التى يعتنقها ويؤمن بها كأداة للتعبير .

فأنا مثلا إنسان عملى واقعى ، أغلّب العقل على العاطفة ، أو أسيطر بالعقل على العاطفة . كذلك أؤمن بالمنهج العلمى المنظم فى كل تصرفاتى، حتى أتجنب الأخطاء بقدر الإمكان ، وأصل غالباً إلى أحسن النتائج فى تحقيق النجاح والسعادة .

لهذا كان من الطبيعى أن أنتهج المذهب الواقعى الهادف كوسيلة لتوصيل تجاربى وآرائى إلى القارىء ، عساى أن أقوده إلى طريق السعادة التى حققتها لنفسى ، وحتى أجنبه العثرات التى اعترضت طريقى حتى وصلت إلى تحقيق ذاتى .

وكان طبيعياً ألا أميل كثيراً إلى المذهب الرومانسى، فإنى أحب أن أفكر وقدماى ثابتتين على أرض من الواقع ، ولا أحب أن

أبنى آمالا فى الخيال ، ثم أفيق على الواقع المر فاستسلم للندم والبكاء .

لهذا لم أكن أستسيغ كثيراً الشعر القـــديم ، الذى يستطرد فى وصف زهرة أو قبلة فى مترادفات طويلة مملة . لـكنى أحب الشعر الحديث الذى يحكى قصة . أو يبرز فكرة إنسانية ، المهم أن يكون له هدف إيجابى وليس مجرد الاستمتاع بألفاظ موزونة موسقة .

أما أدب اللامعقول فهو مذهب ساخط مدمر ، أرفضه تماماً لأنه أدب هدام لا يتناسب مع مجتمعنا الجديد .

إن الأدب الناجح يجب أن يكون معبراً عن اهتمامات المجتمع والعصر الذى يعيش فيه الكاتب . وبما أن المجتمعات والعصور تتباين مفاهيمها واهتماماتها ، فمن الطبيعى أن تتنوع الأساليب والقوالب والمذاهب من عصر لآخر ، متخذة أشكالا تعكس إحتياجات البيئة والمجتمع .

فعندما كانت القصة نوعاً من الترف تتسلى بها طبقة الملوك والنبلاء ، كان من الطبيعى أن تتخذ الطابع الرومانسى الملىء بصور البطولة الأسطورية والمبالغات الخيالية . وعندما أصبح الأدب أداة لتثقيف الشعوب ، كان من الضرورى أن يهتم بأحاسيس العامة ، ويناقش مشاكلهم ، ويعالج عيوبهم ، ويعايش آلامهم وآمالهم . ومن هنا بدأ الاتجاه إلى الواقعية المنطقية التى تحرك شخصيات القصة بطريقة مقنعة، وكلما كانت أحداث القصة من صميم

واقعنا ، استجابت لها مشاعر القارىء وانفعل بها . وإذا ما استطاع الكاتب أن ينقل انفعاله إلى رأس القارىء ، فإنه بذلك يحقق الهدف الأول من ممارسة الأدب .

وإذا نظرنا إلى مجتمعنا الاشتراكى الجديد ، مجتمع العاملين الكادحين ، نجد أن الأدب الواقعى هو أقرب ما يكون ملاءمة لاحتياجات عصرهم ومجتمعهم ، فلاهم من النبلاء العاطلين بالوراثة ينشدون مجرد الترفيه ، ولاهم يتخبطون فى الجهل والسذاجة حتى تبهرهم أساطير أبو زيد الهلالى ، ولاهم يائسون ساخطون حتى يجدون فى أدب اللامعقول متنفساً عن واقعهم المرير .

إنى لأدهش كثيراً عندما يخرج علينا بعض كتابنا بشطحات ذهنية لاهدف لها سوى مجرد التغيير على طريقة خالف تعرف ، أو لمجرد التقليد لبعض الكتاب الغربيين الكبار أمثال : بريخت ، وصمويل بيكيت ، ويوجين يونسكو ، ودورينمات وغيرهم ، دون تبصر بالاختلاف الواضح بين ظروفنا وظروفهم ، بين ماضينا وماضيهم . . بين بيئتنا واحتياجاتنا التى تختلف جوهرياً عن بيئتهم واهتماماتهم .

إنى لا ألوم كاتباً عاش فى مجتمع طحنته الحروب ودمرت القيم الخيرة فيه ، ومزقت أعصابه ، وعقدت نفوس أفراده . . لا ألوم كاتباً كهذا . . إذا عبر عن مقومات بيئته هذه بأدب

هستيرى متشائم كأدب اللامعقول أو العبث . أو أدب الساخطين والحاقدين والمساطيل .

وكان طبيعياً أن يرفض إنسان متفائل مثلى أن يسخر قلمه فى مثل هذا النوع من الأدب الهدام ، حتى ولو وصفنى بعض المتحذلقين بأنى متخلف عن ركب التجديد ، لأنى متمسك بالقوالب التقليدية المفهومة . أقول مفهومة لأنى بصراحة لم أفهم معظم ماقرأته فى هذا المضمار .. ماعدا بعض قصص لدورينمات التى كانت مفهومة وهادفة رغم أن أحداثها غير معقولة .. أو مبالغ فيها .

سألت ذات مرة أحد النقاد بعد أن شاهد مسرحية ليوجين يونسكو التى عرضها مسرح الجيب ، وكان أبطالها يظلون طول الوقت بداخل صناديق القمامة يوزعون عبارات الضياع والتشاؤم على المتفرجين حتى يحطموا أعصابهم ، ويصبغوا الدنيا أمامهم بالسواد .

سألت هذا الناقد المتحمس لكل أدب مستورد ، عما تعنيه مسرحية صناديق القمامة هذه . فقال بإعجاب :

— إنها عمل رائع يخرج منه المتفرج مؤمناً بأن الدنيا لا قيمة لها .. وأن الحياة مجرد عبث .

فسألته :

— وماذا أفاد الجمهور من هذا الرأى الهدام الذى يثبط الهمم ويعرقل تقدم الإنسانية ؟

فأجابنى وهو يرمقنى بنظرة استخفاف :

— هذه وجهة نظر الفنان .. وليس لنا أن نناقشه فيها .

عجبت لذلك المنطق الملتوى . كيف لا نناقشه ، بل نحاسبه ونحاكمه على إفساد نفوس شعبنا وتحطيم معنوياته .

حتى إذا ناقشنا الفكرة من وجهة نظر أصحاب الأبراج العاجية، الذين ينادون بمبدأ الفن للفن والمتعة والتسلية والجمال، نجد أن هذا اللون القاتم المعقد من الأدب ليست فيه متعة ولا تسلية ولا جمال. إلا فى رؤوس الشواذ ذوى النفوس المريضة .

وفى اعتقادى أن الأسلوب السهل الواضح هو أقصر طريق إلى عقل القارىء وقلبه . وكلما كان الأسلوب خالياً من التعقيد ، تمكن الكاتب من أن يوصل أكبر قدر من أفكاره إلى قارئه .. وهذا هو هدف كل صاحب قلم .

لكن هوس أصحاب هذا المذهب العابث يحرصون على التغيير بأى ثمن، لذلك يلجأون إلى الأسلوب المفكك الغامض، الذى يجمع الأفكار المشوشة فى غير ترتيب أو صياغة أدبية ترتفع بلغة القارىء العادى ، وهو أضعف ما يبتغيه مشترى الكتاب إذا ماخذلته المادة والمضمون .

إن الأدب فى مفهومى لم يعد لهواً وعبثاً .. بل يجب أن نجند فنوننا ونحشد جهودنا لدفع عجلة الحياة فى مجتمعنا الصاعد ، ولست أدعو بهذا إلى أدب هاتف جاف يخلو من العاطفة والمتعة والتسلية ..

بالعكس ، فإن الأدب الهادف يفقد قيمته وتأثيره فى الجماهير إذا لم يكن رقيقاً مستساغاً يعالج مشاكل المجتمع بصراحة . . ولكن فى قوالب فنية ممتعة .

الأدب والجنس :

فى رأيى أن كثيرين من شعبنا تنقصهم الثقافة الجنسية . والجنس فى رأى البعض مجرد عملية ميكانيكية لحفظ النوع . ولا يجوز الخوض فى أحاديث الجنس وعلومه وفنونه ، رغم أنه يعبر عن أقوى رابطة بين البشر . وكثيرون من المتزمتين يرفضون معالجة المشاكل الجنسية فى الأدب القصصى ، وأقصد بالجنس كل عاطفة أو تجاذب بين رجل وإمرأة . وإذا كانت هذه الغريزة الجامحة تكمن وراء كثير من مشاكلنا الإجتماعية ، فلماذا نخفى رؤوسنا فى الرمال ونتجاهل هذا الواقع الذى نعيش فيه ؟

لكنى لا أؤمن بالخوض فى أحاديث الجنس كيفما إتفق ، بل أصر على أن يلتزم الكاتب بشرطين أساسيين . أولهما أن يحرص على معالجة المواقف الحساسة بألفاظ عفيفة ، ويكتفى بالتلميح البليغ دون التصريح البذىء . والشرط الثانى أن يكون هدف الكاتب هو الانتصار للقيم الأخـــلاقية ، ولا يدعو إلى الإباحية والانحلال .

إن الكاتب البارع لا يلقى العظات المنبرية بأسلوب مباشر .

ولا يصرح على لسان أبطاله بأن فوضى العاطفة والجنس حرام ومفسدة وعمل قذر لا يرضى عنه المجتمع . فإن هذه النصائح الجوفاء لن تقنع الشباب الذى يحس بسعادة طاغية فى ممارسة تلك العلاقات غير المشروعة . وبالتالى لن يصدق النصائح التى يسمعها، لأنها تنافى الواقع الذى يلمسه فعلا .

لذلك عندما أتعرض لمعالجة مشكلة جنسية فى قصصى. فإنى أبدأ بإعطاء القارىء صورة مشرقة تطابق ما يحس به فعلا ، حتى يصدقنى عندما أتطور بأحداث القصة ، وأشده معى إلى الحدث النامى بطريقة منطقية مقنعة . . . حتى يجد نفسه فى النهاية يسقط مع بطل القصة فى شر أعماله . فيرى نفسه فى مرآة بطل القصة الذى أقنعه بالمصير المحتوم .

فهل يكون هذا أدباً مكشوفاً ؟ لا أعتقد .

العامية والفصحى :

منذ أن بدأت أعالج كتابة القصة ، كنت أكتب الحوار بالفصحى دائماً ، وبعد أن احتجبت مجلة « قصتى » عن الصدور ، غيرت من منهجى فى الكتابة سواء فى المضمون أو الشكل . . كما أسلفت من قبل . كذلك بدأت أكتب الحوار بالعامية فى بعض القصص ، التى تدور أحداثها فى بيئات شعبية أو ريفية ، حيث يكون الحوار أكثر مطابقة للواقع ، ويعبر فى صدق عن مستوى

الشخص المتكلم . كما أنه يخدم الكاتب فى تحديد أبعاد الشخصية الروائية . فكما أن الكاتب يحرص على ألا يجرى الحكمة والفلسفة على لسان شخص جاهل ، فإنه أيضاً — فى رأيى — لا يجوز أن يجعله ينطق بالفصحى المتقعرة ، فيخرج به عن حدود شخصيته .

ولا أوافق من يدعون أن هذا إزدواج فى اللغة ، ما دام السرد كله باللغة الفصحى السليمة، وهو ما أحرص عليه، ولا أوافق على خلطه بالعامية ، فالمفروض أنى أخاطب قارئاً مثقفاً يجيد قراءة الفصحى على الأقل . أما إذا كانت شخصيات القصة من طبقة يجوز لها التحدث بالفصحى ، فلا بأس من أن يكون الحوار فصيحاً ، بل يجب أن يكون كذلك .

وفى القصص المترجمة يجب أن يكون الحوار فصيحاً، لأنه ليس من المنطق أو الواقع فى شىء أن يتكلم الأجنبى باللهجة العامية . لذلك لم تنجح المحاولات التى قام بها أحد الأدباء لترجمة بعض أعمال شكسبير إلى اللغة المصرية العامية .

يستند معارضو فكرة الحوار بالعامية إلى حجج وجيهة تستحق التأمل والتحليل ، لكن رغم وجاهتها ، فى تصورى أن من الممكن التجاوز عنها فى سبيل خدمة العمل الفنى ، واستكمال العناصر الفنية لتجسيده، وتعميق مفهومه فى إحساس القارىء .

أولى هذه الحجج وأهمها . أن الحوار الفصيح يقرأ فى جميع الأقطار العربية بنفس الوضوح والفهم ، أما العامية فهى أحياناً

تستعصى على فهم القارئ العربى خارج حدود الجمهورية العربية المتحدة، وهذا صحيح إلى حد ما. فقد صادفتنى بعض هذه المفارقات الطريفة.

لى صديقة لبنانية هى الأخت الشاعرة سلوى الحومانى. التى بدأت صداقتى بها، عقب قراءتها لكتابى الأول «يستر عرضك» الذى أعجبها كثيراً. وكتبت عنه نقداً طيباً فى مجلة «العرفان» اللبنانية، فى عدد كانون الثانى «يناير» ١٩٦٢ وذلك قبل أن نلتقى.

وعند لقائنا الأول، وجدت معها نسخة من الكتاب، وضعت على هوامشه تعليقات كثيرة تؤكد أنها فهمته تماماً وتأثرت به، ما عدا بعض الألفاظ التى لم تزد عن ثلاثة أو أربعة، منها عنوان قصة «كروديا» الذى لم تستطع قراءته. والواقع أن كلمة «كروديا» لها فى مفهومنا الدارج معنى معين لا يمكن ترجمته بسهولة إلى الفصحى.

وقد أثير هذا الموضوع فى ندوة أدبية عقدت فى دارى جمعت مجموعة كبيرة من الأدباء. وحاول كل منا أن يجد لفظاً يطابق فى معناه كلمة «كروديا». فقال أحدهم: كرودیا معناها «خائب»، وقال آخرون إنها تعنى: «مغفل.. أو عبيط.. أو أبله.. أو سفيه. لكن كل هذه الألفاظ لم تعط الشحنة الانفعالية لكلمة «كرودیا».

وكانت بالكتاب قصة بعنوان «جر شكل». فقرأتها الزميلة سلوى الحومانى كأنها كلمة واحدة. وبالطبع لم تجد لها معنى فى قاموس اللغة العربية، ولها كل العذر. وفى نفس الندوة حاولنا أن

نختار للأخت سلوى تعبيراً آخر يوضح لها معنى « جرشكل » . فاقترح الموجودون أن تسمى القصة : مشاكسة ، أو مداعبة ، أو استفزاز أو مناوأة ، أو مناوشة ، أو تحرش .. إلى آخره .

لكن كل هذه الألفاظ كانت لا تعبر تماماً عن المعنى المقصود بتعبير « جر شكل » فبعضها كان يحمل معنى القسوة والعنف ، أو الرقة ، لكن المعنى المقصود كان يعنى خليطاً من المشاكسة ومحاولة رقيقة للصلح ، واستفزاز فى غير غدر .

المهم .. أن النتيجة النهائية ، أثبتت أن الحوار بالعامية مقروء ، ومفهوم .. حتى الألفاظ المحلية القليلة جداً أمكن للأخت اللبنانية أن تفهمها من سياق الموضوع . والواقع أننا فى مناقشتنا لهذا الموضوع ننسى أو نتناسى أن إخواننا فى الأقطار الشقيقة يفهمون لهجتنا المصرية تماماً ، بدليل إقبالهم الشديد على السينما المصرية والإذاعات والتمثيليات والأغانى المصرية .. وعلى قمتها أغانى سيدة الغناء العربى أم كلثوم . فهل يمكن لأحد أن يدعى أن هذه الفنون والآداب التى أساسها العامية المصرية ليست مفهومة أو مستساغة فى البلاد العربية الشقيقة ؟ !

والحجة الثانية لأعداء العامية هى أن اللغة الفصحى خالدة ، أى أن المؤلفات باللغة الفصحى يمكن قراءتها وفهمها بعد مئات السنين . أما العامية الدارجة فهى متطورة متغيرة ، تفقد بعض كلماتها وتكتسب أخرى على مر الزمن . . وهذا صحيح . لكنى أعتقد أن

الفصحى أيضاً تتطور ، وتكتسب ألفاظاً جديدة ، بل إن المجمع اللغوى ذاته يحرص على تطعيمها بألفاظ حضارية جديدة ، بدليل أنه أصدر «المعجم الوسيط» الذى يضم مئات من الألفاظ العامية والأجنبية التى أقر فصاحتها . كذلك تفقد الفصحى كثيراً من ألفاظها على مر الزمن . بدليل أننا نحتاج الآن إلى تفسير بعض آيات القرآن والشعر القديم ، بل إن أسلوب الكتاب فى أوائل هذا القرن أصبح يستعصى فهمه على الجيل الجديد ، وأدب شكسبير الخالد يختلف أسلوبه عن اللغة التى يفهمها الانجليز المعاصرون .

إذن فما دامت صفة الخلود لا تتوفر للفصحى وللعامية على السواء ، وما دامت كلتاهما مفهومتين للناطقين بالضاد فى عصرنا الحالى ، فلماذا نثير كل هذه الأزمات والمناقشات حول الحوار بالعامية ، رغم ما يضفيه على بعض الأعمال الأدبية من صدق وواقعية وتأكيد لأبعاد الشخصية الروائية ؟ !

جائزة الدولة التشجيعية :

فى صباح ١٠ أبريل ١٩٦٤ ، أيقظتنى أمى فى الصباح المبكر ، وهى تهزنى بانفعال ، وتهتف فى فرحة هيستيرية :

— إصحِ . . مبروك . . لقد نلت جائزة الدولة التشجيعية فى القصة القصيرة !

فتحت عينى مأخوذاً ، بينما ذهنى يحاول ترتيب كلماتها المنفعلة

ليستخرج منها ذلك الخبر المفاجىء . وفى اللحظة التالية ، اختطفت الجريدة من يدها ، ورحت أحملق فى صورتى البارزة من صدر صفحة أخبار الأدب بجريدة الأخبار ، وبجانبها صورة زميلى القبانى ، وتحتهما صورة الكاتبة القصصية جاذبية صدقى .

صافحنى عنوان الخـــبر بالبنط الكبير : « جائزة الدولة التشجيعية فى القصة القصيرة ». ثم انزلق بصرى إلى السطور التالية فقرأت فيها :

« من المقرر أن يفوز أحد ثلاثة من كتاب القصة القصيرة بجائزة الدولة التشجيعية هذا العام . . . . و . . . . »

توقفت عن القراءة .. وتطلعت إلى والدتى فى عتاب وقلت :

ـــ إن المسألة ما زالت معلقة . . كيف فهمت إذن أن الفائز بالجائزة ؟

قالت فى خجل :

ـــ هذا ما فهمته يابنى . . اقرأ بقية الخبر حتى تتأكد .

أسرعت ألتهم السطور الباقية ، فوجدت أن المرشحين للجائزة هم جاذبية صدقى والقبانى .. وأنا . عن المجموعات القصصية « الليل الطويل » ، و « قصر العذارى » و « سوق العبيد » على التوالى .

ثم كتب المحرر يقول مؤكداً :

« هذه نتيجة الفحص الذى انتهت إليه اللجنة فى آخر اجتماعاتها هذا الأسبوع . . سيختار الكتاب الفائز من بين الكتب الثلاثة

فى الاجتماع الثانى فى الأسبوع القادم ، قيمة الجائزة ٥٠٠ جنيه . تقدم لها هذا العام ٢٨ مؤلفاً بـ ٣٢ كتاباً ! ! » .

انتهى الخبر . فأخذت أعيد قراءته على مهل حتى أتأكد من صحته ، ثم أسرعت أتصل بالأستاذ أنيس منصور محرر الخبر. فأكد لى أنه صحيح ومصدره أحد أعضاء اللجنة ، ولا يعقل أن يفتعل مثـــل هذا الخبر ، لسبب بسيط . . وهو أن أسماء الكتب التى تقدمنا بها لا يعرفه أنيس منصور ولا سواه . حاولت أن أعرف مصدر الخبر ، حتى أتأكد منه شخصياً فلم يصارحنى به . ولما كنت لا أعرف أحداً من أعضاء اللجنة فقد صبرت على مضض.

مضت الأيام ولم يظهر الخبر رسمياً . فاتصلت بأنيس منصور أستطلع أنباءه بخصوص هذا الموضوع ، فقال :

— حظك عال . . فإن مصدر الخبر عندى الآن . . لحظة حتى أسأله عن آخر الأنباء . .

ثم سمعته يوجه السؤال ، ولكنى لم أتبين من الصوت المجيب إلا نبرات باهتة . وبعد مناقشة قصيرة بينهما ، جاءنى صوت أنيس منصور متألماً مواسياً .

— آسف يا صبحى . . الأخبار لا تسر . لقد دارت مناقشات حامية فى اللجنة للترجيح بين واحد من الثلاثة المرشحين . . وكانت كفتك راجحة لولا أن اعترض البعض على كتابتك الحوار بالعامية . ثم انتصر هذا الرأى لأن المجلس الأعلى للفنون والآداب يعتبر

جهة حكومية رسمية ، ولا يجوز له أن يشجع العامية . !

قلت ذاهلا :

— وماذا تم بخصوص المرشحين الباقين . . ؟

عاد يسأل مصدر الخبر ، ثم قال :

— استبعدا أيضاً . . وتقرر منح الجائزة للأديب أمين يوسف غراب .

ثم أردف فى مرارة :

— لماذا لا تكتب حوارك بالفصحى حتى تستطيع أن تدخل به مسابقة المجلس الرسمى . .

فقلت على الفور :

— كلا . . أنا لست مستعداً للتخلى عن مبدأ أؤمن به فى سبيل جائزة .. مهما كانت قيمتها .. وإذا كان أسلوبى فى الكتابة القصصية لم يحظ بالقبول . فهناك مجالات أخرى فى مسابقة الجائزة التشجيعية يمكننى أن أشترك فيها ، وهى الترجمة .. والسيرة الذاتية .. والبحوث الأدبية . . وغيرها . . وهذه ألتزم فيها بالفصحى . . دون إلزام خارجى .

هذه هى قصة الفرحة التى لم تتم ، سردتها كما حدثت تماماً . ورغم أنى أرجح صحة ما جاء بها الأسباب التى ذكرتها ، إلا أنى لا أستطيع أن أجزم بصحة وقائعها التى دارت فى الجلسة السرية . والعهدة على الأستاذ أنيس منصور .

كيف ومتى أكتب ؟

من الطبيعى أن أمارس الكتابة والقراءة والرسم فى وضعى الراقد. وقد بذلت عدة محاولات لأستطيع أن أتخذ وضعاً جالساً يساعدنى على الكتابة فوق سطح أفقى، فلم أوفق . فاكتفيت بطريقتى الميسرة ، التى استعمل فيها لوحة بسيطة من خشب الأبلكاج الرقيق. مساحتها حوالى ٢٥ × ٤٠ سم . أمسكها بيدى اليسرى ، وأضع فوقها الورق ، ضاغطاً عليه بالسبابة والإبهام ، ثم أجرى على الورق بقلم الرصاص .

إن جميع كتاباتى بالقلم الرصاص ، ما عدا الرسائل الخاصة والأوراق الرسمية . وذلك لأنى لا أطيق منظر الصفحة الملوثة بالكلمات المشطوبة أو المصححة بالحبر . أما الرصاص فيمكننى أن أمسح الخطأ فيه بممحاة « أستيكة » ، فتخرج الصفحة نظيفة واضحة منسقة ، بحيث لا تحتاج إلى تبييض ، لأنى لا أحتمل نسخ إنتاجى مرة أخرى . . فضلا عن أنها عملية مملة ، فإنها ترهق ذراعى . . اللذين أفضل أن أوفر جهدهما لعمل آخر جديد .

ومنذ أكثر من عشرين عاماً، لم أستعمل فى كتاباتى غير أفرخ « الفولسكاب » المسطرة ، ولا أضع على اللوحة أكثر من عشر ورقات ، حتى أستطيع أن أثبتها بسبابة يدى اليسرى وإبهامها ، أما الكراس أو « البلوك نوت » فلا أستطيع أن أتحكم فى تثبيتها

بسهولة على لوحة الكتابة . كذلك يساعدنى ورق الفولسكاب ذو الحجم الثابت .. على تقدير حجم المادة التى أكتبها بسهولة . وهى نقطة هامة فى الأعمال الإذاعية المحددة بالدقيقة ونصف الدقيقة ، أو التمثيليات الإذاعية ، التى تستغرق نصف الساعة منها خمس عشرة ورقة فولسكاب بخط يدى . .

وفى الترجمة أثبّت ملزمة من الكتاب الانجليزى فى طرف اللوحة كما ذكرت من قبل .

أما القلم الرصاص فكنت أحرص على أن يكون طرفه مدبباً رفيعاً ، حتى تخرج كلماتى محددة واضحة . لذلك كنت ألجأ فى الماضى إلى حك سن القلم على « سنفرة » ناعمة بين آونة وأخرى ، مما كان يقطع أفكارى . لذلك كنت أحتفظ بعدة أقلام مسننة إلى جانبى ، فإذا ما تآكل سن أحدها ، أسرع باستبداله بآخر ، ثم تلقيت هدية نافعة فى سنة ١٩٥٩ ، عبارة عن قلم شيفرز به سنون رفيعة لا تحتاج إلى « سنفرة » وتنطلق على الورق فى خطوط دقيقة سريعة حتى يستهلك السن الطويل بعد عدة أيام . ومن ذلك التاريخ أصبحت أقتنى مجموعة من هذه الأقلام التى تساعدنى كثيراً على الإنطلاق فى الكتابة الواضحة المنسقة السريعة .

والواقع أنى حريص إلى أبعد حد على توضيح خطى ، ووضع النقط فوق الحروف ، بحيث لا يلتبس الأمر على عامل المطبعة ، أو كاتب الآلة الكاتبة ، فيحرف المعنى ، ويشوه أفكارى. ورغم

أنى لا أعيد نسخ المسودات ، فإنى أحرص على مراجعة كتاباتى أكثر من مرة ، لأنقحها . . بل وأجملها . .

رغم أن كل من قرأ خطى يعترف بأنه واضح ومتقن ، إلا أنى لا أجد حرجاً من وقت لآخر فى القيام بمحاولات جديدة لتحسين خطى، أو للتمرين على حرف جميل أعجبنى وسط قراءاتى للخطوط اليدوية التى تصادفنى .

كثيراً ما نسمع عن الالهام و الوحى الذى يهبط على الأديب أو الفنان فى ظروف معينة من حيث الوقت ، أو المكان ، أو الحالة النفسية ، وقد يلجأ بعض الفنانين إلى تصرفات مضحكة أو سخيفة حتى يستلهموا الوحى والأفكار .

أما أنا فليس لى شرط معين للكتابة ، إلا أن يكون أمامى ورق ، وبين أصابعى قلم . لكنى أفضل الهدوء بالطبع حتى لا يشرد ذهنى . غير أنى لا أعجز عن الكتابة وسط الضجيج إذا اقتضت الضرورة ، فإن حجرتى غالباً ما تكون محط رحال أفراد البيت والضيوف وأخواتى وأبنائهن . لأنى أركز فيها كل أجهزة الترفية والراحة . . من راديو ، وتليفزيون، وتليفون وجهاز تسجيل ، وجهاز تكييف ، وأضواء كثيرة مختلفة الأغراض ، بعضها للقراءة المريحة ، وأخرى غير مباشرة لمشاهدة التليفزيون ، وبعضها حالمة للاستجمام . وهى موزعة فى أركان الحجرة ، بحيث يمكن أن تغمرنى دائرة من الضوء الباهر أثناء الكتابة. بينما ركن آخر يسبح فى ضوء

شاحب هادىء . أو أطوى سريرى فى ضوء خافت لأشاهد التليفزيون بوضوح ، بينما والدتى أو نعمات تمارسان التطريز تحت ضوء مركز فى زاوية أخرى .

أما الضيوف ، فلا بدأ أن يجاملونى بزيارة حجرتى ، ولا أستطيع بالطبع أن أنكر وجودى بالبيت لأستمتع بخلوة هادئة كما يفعل عباد الله غير المغضوب عليهم . كذلك ليس فى أستطاعتى ألا ألبى رنين التليفون ، لأن الطارق لن يصدق أنى غير موجود بالبيت . حتى إذا فكرت فى الادعاء بأنى فى الحمام مثلا . فإن بروتوكول التليفون يحتم على أن أطلب الضيف التليفونى بعد خروجى من الحمام .

ولست فى الواقع أضيق بالزيارات أو التليفونات المعقولة . بل أنى قد أشعر بالوحدة والفراغ إذا تعطل التليفون أو تأخر ضيف عن موعده . لكن هذه المشاغل تقطع تفكيرى وتعطلنى ، لذلك أعوض الوقت الضائع فى ساعات الليل الهادئة الرائعة ابتداء من الحادية عشرة تقريباً إلى الثانية أو الثالثة أو الرابعة ، حسب ظروف عملى ومواعيد التسليم التى ارتبطت بها سلفاً .

أما أثناء النهار .. فإنى أنتهز أى وقت لأواصل الكتابة ، حتى ولو لم أكن مرتبطاً بعمل معين ، فإن إنتاجى القصصى لم يرتبط يوماً بالاتفاق . فأنا أكتب وقتما أشاء ، ثم ألبى طلبات النشر من رصيدى المختزن .

إن أى وقت يعتبر مناسباً للكتابة ، إذ خلا من المعوقات التى ذكرتها . ولا يعنى هذا أنى لا أمنح نفسى فترات من الراحة والاستجمام والمتعة . فإن الحياة دون ترفيه تصبح مملة جافة . لذلك أحرص دائما على استغلال وقتى بين المتعة والعمل ، دون تبذير أو إفراط .

أحياناً أؤجل موعد عشائى بحيث يتفق مع برنامج إذاعى أو تليفزيونى حتى لا أضيع وقتاً مضاعفاً فى كل من الأكل والتليفزيون على حدة . كذلك أستغل الفترة التى أقضيها مرتين يومياً فى دورة المياه ، فأقرأ فيها الجرائد اليومية .

وإذا كانت الفترة الصباحية هى أنسب الأوقات لممارسة النشاطات المختلفة . فإنها بالنسبة لى غالباً ما تكون فترة خاملة نوعاً . لأنى أعانى من داء سخيف ، يجعل النعاس يداعبنى فى هذه الفترة بالذات ، رغم أنى أقضى ليلى فى نوم هادىء عميق . وقد حاولت كثيراً علاج هذا الداء اللعين ، لكن كل المحاولات الطبية باءت بالفشل . وجربت ألا أتناول إفطارى صباحاً ، لعل الأكل هو سبب هذا الكسل غير الإرادى . لكن نوبة النعاس كانت تدهمنى فى تلك الفترة ، ولا أفيق منها إلا إذا استسلمت لها نحو ساعة أفيق بعدها لأمارس عملى فى نشاط .

وأخيراً استنتجت أن هذا « الوخم » له علاقة وطيدة بالداء الرئيسى الذى يقيد مفاصلى منذ ربع قرن ، أو أنهما على الأصح

نابعان من أصل واحد . لقد أجمع الأطباء العالمون على أن التهاب المفاصل ناتج عن نقص هرمون « الكورتيزون » الذى تفرزه قشرة الغدة فوق الكلى « الادرينالية » . بدليل أن العليل إذا تعاطاه ليعوض كسل تلك الغدة ، فإن مفاصله تتحسن فى ساعات قليلة ، لكن هذا الهرمون اللعين له ضرر بليغ على قرحة المعدة مما جعل الأطباء ينهونى عن تعاطيه .

لكنى اضطررت إلى المجازفة بتناول « الكورتيزون » فى بداية سنة ١٩٦٧ كأمل أخير لعلاج نوع من الحساسية يسد أنفى منذ أربع سنوات . فإذا بالهرمون الساحر ، يفتح طريق الهواء إلى رئتى ، ويخفف آلام مفاصلى إلى حد كبير ، وزال عنى النعاس وأحسست بنشاط عظيم وحيوية دافقة .

لكن هذا التقدم الرائع لم يستمر إلا شهرين ، إضطر الطبيب المعالج بعدهما إلى إيقاف تعاطيه خوفاً من نزيف المعدة . وبمجرد توقف إنسياب الكورتيزون فى جسدى المحروم من هذا الهرمون عادت جميع الأعراض كما كانت .

وهكذا رجحت أن كسل قشرة الغدة الادرينالية هو أيضاً المسئول عن حالة النعاس النهارى الذى يدهمنى فى ساعات الصباح.

ولما كانت الزيارات شيئاً لا بد منه ، فقــــد حرصت بقدر الإمكان على أن أستقبل ضيوفى صباحاً ، حيث أحتمى فيهم من النعاس ، وحيث لا أضيع إلا الساعات الخاملة من النهار .

كذلك لاحظت أن الأعمال اليدوية تطرد النعاس من عيني، لهذا أدخر هواياتي اليدوية، وعلى رأسها .. الرسم، حتى أمارسها في الساعات الصباحية الخاملة . فتتفجر ينابيع النشاط، ولا أحس برغبة في النوم أو الأكل، حتى يحين موعد نومي ظهراً، فأنتزع نفسي من عملي اليدوي بصعوبة .

كذلك أستعين أحياناً بالموسيقى الراقصة على تنبيه أعصابي وانعاش حيويتي. وعندئذ ينتفض جسدي بنشوة راقصة، بل أني أرقص فعلا بلا حركة ! . والموسيقى الخالصة لاتشغلني عن التفكير والتركيز، أما الأغاني والتمثيليات فهي تشتت أفكاري إلى حدما، لأنها تضطرني إلى التفكير في معانيها ومتابعتها، وأحياناً لا تشغلني الأغاني عن عملي عندما تكون بلغة لا أفهمها . فتصبح حينذاك كأنها مجرد موسيقى بلا معنى يسرق إنتباهي .

كيف أختار أفكاري :

لاشك أن العمل الأدبي يتأثر بشخصية المؤلف وطباعه. ومن طباعي القلق والملل. مما يجعلني لاأحتمل الأعمال الطويلة. ولا أستسيغها كثيراً . لكني إذا اضطررت لأدائها ألجأ إلى تجزئتها إلى أقسام مستقلة، حتى أنتهي من أجزائها القصيرة واحداً بعد الآخر، وأنفض يدي منه وألقيه عن كاهلي . يحدث هذا في الكتب الطويلة التي أقوم بترجمتها، وكما حدث في كتابي هذا الذي قسمته إلى مراحل زمنية

ثم رصدت عناصر كل مرحلة ، وبدأت أتناولها باسهاب واحدة بعد أخرى .

لهذا أحب معالجة القصة القصيرة كما أحب قراءتها . وقد كنت شغوفاً بأعمال أنطـــون تشيكوف ، وسومرست موم ، وجى دى موباسان ، وهم رواد القصة القصيرة فى العالم ، وهم الذين جعلونى أهجر الروايات البوليسية الطويلة التى كانت تأسرنى فى فجر شبابى . أما الروايات العالمية الطويلة فكنت ألجأ إليها من وقت لآخر ، حتى اللامعقول منها كنت أقرأه على سبيل الدراسة ، فلم تزيدنى دارساته إلا بغضاً واستنكاراً .

هكذا تخصصت فى القصة القصيرة ، والتمثيلية القصيرة ، حتى استمتع بعملى . وإن اسعد الناس هو من يحترف هوايته .

من خصائص القصة القصيرة أنها تدور حول حادث واحد ، أو شخصية معينة ، أو موقف . لهذا فإن إحدى هذه العناصر قد تلهمنى قصة جديدة . وقد توحى إلى مكالمة تليفونية بموضوع مثير تظل أفكارى تدور حوله حتى تغزل نسيج قصة جديدة .

ومعظم أفكارى أستقيها من الحياة ، ثم أكسوها بشىء من الخيال . حتى يمكن صبها فى قالب فنى . وأكاد أجزم بأنى لم أكتب قصة من محض الخيال . . إلا نادراً جداً . وإذا تناولت اليوم إنتاجى القصصى أستطيع بسهولة أن أرجعه إلى أصوله فى الحياة ، وأتذكر مصدر إلهامه .

وما دامت العناصر الموحية ليست من صنعى ، فإننى لا أفتعلها . لكنى أستجيب لها بحساسية مرهفة. ويكون لقائى المفاجىء بالعناصر الموحية بمثابة الشرارة التى تثير انفعالى وتفكيرى .

لهذا ، فأنا لا أمسك بالقلم . وأقول لنفسى ، سوف أكتب قصة . بل يجب أن تكون عناصر القصة كاملة فى رأسى قبل أن أصبها على الورق، وإلا خرجت جنيناً مجهضاً . وقد تظل الفكرة تدور فى رأسى عدة أيام .. أو أسابيع . وقد تتطور الأحداث أثناء معالجتها فتسير فى طريق غير الذى رسمته لها ، فانقاد وراء التطور المنطقى للشخصية أو الحدث . فأعايش أشخاص القصة حتى أصل بهم إلى النتيجة التى أهدف إليها ، والمغزى المستتر الذى ألقى عليه أضواء غير مباشرة ، فتحدد أبعاده للقارىء دون أن يرى مصدر الضوء .

وإذا كانت الفكرة الجديدة تسيطر على رأسى أغلب ساعات النهار ، فإن أنسب وقت لمعايشتها هو ما قبل النوم ، بعد أن أطفىء أضواء الحجرة ، وأغمض جفنى ، فتمتد ذاكرتى لتسحب الفكرة من فوق الرف ، وأظل أقلبها فى رأسى ، وأناقش أشخاصها وأرسم لهم صوراً كاملة فى خيالى.. وأواجه كلا منهم بالآخر حتى يحتدم الصراع .. ثم أتدخل لوضع نهاية هادفة لذلك الصراع ، ولا يعنى هذا أن أنصر الخير على الشر دائماً . فإن انتصار الشيطان قد يجعلنا أكثر حذراً عند ملاقاته .

فى إحدى قصصى ، وكانت بعنوان « ثم هدأت العاصفة » ، وصفت زوجاً شريراً لا يرعى زوجته المخلصة ، مما يجعلها بعد صراع طويل تستسلم لليأس وتسقط بين براثن الخطيئة بعد أن قاومتها بكل إمكانياتها . هذه نهاية طبيعية كان يجب أن تنتهى إليها أحداث القصة ، وكان هدفى منها أن أقدم نموذجاً واقعياً لبيت تهدم بسبب تصرفات الزوج ، حتى يتعظ كل زوج مماثل فيتدارك هدم بيته ، عندما يرى نفسه فى مرآة بطل القصة . هكذا رأيت أن تكون النصيحة غير المباشرة .

لكن بعض النقاد والقراء اعترضوا على هذه الخاتمة ، وظنوا أنى أشجع كل زوجة على خيانة زوجها الخائن . وهذا غير صحيح ، لإن أية زوجة لا يرضيها أن يكون مصير بيتها مثلما حدث فى القصة .

ومن مقومات نجاح الكاتب القصصى فى رأيى أن يكون محدثاً بارعاً حتى لا يملـّه القارىء ، والمحدث البارع لابد أن يرتكز على ثروة ثقافية منوعة ، لتشمل معظم جوانب الحياة . فإن القصاص يتناول فى أعماله كل القطاعات . وإن لم يكن مثقفاً فسوف يكشف جهله مهما كان متبحراً فى أدب اللغة وأصول الفن القصصى .

أعرف زملاء قصصيين ، واسعى الاطلاع فى ميدان الأدب ، ويحفظون أسماء الأدباء العالميين ، ويحيطون بخصائص أساليبهم ، ويناقشون أعمالهم على مستوى عميق ناضج . ثم يتشدقون بالتعبيرات

المتحذلقة المبتكرة ، على أساس أنهم أصحاب أقلام يملكون حق استنباط الاشتقاقات المبتكرة فى اللغة . كل هذا طيب وجميل، لكنك إذا حدثتهم فى غير الأدب . تجد أنهم على قـــدر كبير من الجهل المخجل .

و إذا كان هذا النموذج من الثقافة مقبولا بالنسبة للنقاد المحترفين، فأعتقد أنه لا ينبت قصاصاً مجيداً . فالقصاص مهمته ابتكارية خلاقة ، والخالق يجب أن يكون على وعى كامل بظروف مخلوقاته، وأعنى بهم شخصيات قصصه ، ومنهم الطبيب والمهندس والمحامى والعامل والمجرم ورجل الدين . . . إلى آخر هذه النماذج البشرية المتناقضة تماماً .

لهذا حاولت بفطرتى أولا ، ثم عن عمد أن تكون ثقافتى موسوعية منوعة ، ولو على حساب التعمق فى تاريخ الآداب العالمية، حتى ألم بطرف من كل علم وفن وأدب ، إن لم يكن إلماماً شاملا فهو على الأقل ييسر لى البحث فى الأعماق إذا ما احتجت إلى غزوها فى معاقلها من كتب وموسوعات ، أو عند أربابها حيث يسهل علىّ تفهمها وهضمها .

وليس العلم فى بطون الكتب وحدها . بل يجده القصاص فى دراسة البيئات والأشخاص الذين يحتك بهم ، فيحاول أن يحلل

تصرفاتهم ويسبر أغوارهم ، ويرجع تصرفاتهم إلى أصولها النفسية ، مطبقاً فى ذلك دراساته فى علم النفس والاجتماع ، وهما على رأس الكتب التى اقتنيتها فى مكتبتى الخاصة .

أحياناً أتعرض فى قصصى لشخصية غريبة أو إجراءات معينة، أو معلومات خاصة ، فإن لم أكن متأكداً منها ألجأ إلى أربابها لاتزود منهم بالتفاصيل التى أريدها .

فى قصة « أصلية يا أم فلفل » كان على أن أصف أحد الحشاشين فى جزء منها ، فاستدعيت صديقاً عربيداً ، أجلسته أمامى وطلبت منه أن يتصور الشخصية التى حددتها له ، ثم يتخيل كيف تتعاطى المخدر ، ثم صغت تخيلاته الساذجة فى قالب فنى أعتقد أنى وفقت فيه ، لدرجة أن بعض السيدات ظنن بى السوء لدقة الوصف !

وفى إحدى قصصى بعنوان « حنان وقسوة وحب » لجأت إلى أحد أصدقائى المحامين ليصف لى الإجراءات الصحيحة التى يمر فيها التحقيق فى جناية معينة ، وكيف يعتقل المجرم ، وكيف يحال إلى النيابة ثم القضاء ، وكيف يمكن استخراج إذن بزيارته فى السجن إلى آخر هذه التفاصيل التى لم أمر بها شخصياً .

وفى تمثيلية إذاعية بعنوان « العابثة » أردت أن أجعل الممرضة تقتل مريضها بطريقة خافية . فسألت مجموعة من أصدقائى الأطباء عن أحسن وسيلة يمكن أن تتفتق عنها عقلية ممرضة وثقافتها

وإمكانياتها ، والعقاقير القاتلة التى يمكنها الحصول عليها . بسهولة إلى آخر هذه التفاصيل التى ساعدتنى فى حبك عقدة التمثيلية .

وبعد فالقصة فى تصورى هى : موهبة . . وفن . . وثقافة . . وهدف إنسانى ، وأنا أحاول أن أستكمل هذه العناصر ، عسانى أستطيع أن أكتب قصة أرضى عنها .

* * *

خطيباتى

عندما عدت من لندن ، كنت مصمماً تماماً على ألا أتزوج حتى لا أنجب أبناء يرثون شيئاً من مرضى، فأشقى ضميرى وأشقيهم. وإذا كان الفيلسوف الكبير أبو العلاء المعرى قد قال :

هذا جناه أبى علىّ   وما جنيت على أحد

فإن لسان حالى كان يردد :

هذا جنته علىّ أمى   ولن أجنى على أحد

ولست أتهم أمى بإيذائى عن عمد ، فهى لم تكن سوى مخلب القط ، حيث استخدمها القدر كجسر ليصل إلى مفاصلى . بل هى ضحية مثلى وليست جانية على أى حال ، لأنها كانت تجهل تماماً طبيعة المرض الوراثى . . أما بعد أن تأكدت أنا من احتمال انتقال المرض إلى أبنائى وأحفادى من بعدهم ، فمن الإجرام أن أجازف

بسعادة أجيال قادمة سينتقل إليها الداء اللعين عن طريق . ومن أوجب الالتزامات أن أضحى بنفسى وأحطم هذا الجسر ، حتى أوقف المرض عند حدود جسدى المنكوب .

لكن الإنجاب شيء والزواج شيء آخر . وإذا كنت قد حرمت على نفسى نعمة الأبوة ، فلا معنى لأن أحرم نفسى من ميزة الزواج . ولكن أين هى الأنثى التى تسيطر على غريزة الأمومة فى أعماقها ؟

وعلى هذا الأساس بدأت أبحث عن زوجة من جديد، خاصة بعد أن تحسنت ظروفى المادية ، وأصبحت أملك بيتاً مغرياً تتوفر فيه أسباب الرفاهية ، وإيراداً يفوق دخل من هم فى مثل سنى .

لم أبذل فى الواقع مجهوداً إيجابياً فى البحث عن زوجة ، لكنى فقط نكست راية الإضراب ، وفتحت قلبى للفرص الوافدة . . وما كان أكثرها . .

لن أستطرد فى سرد مشاريع الخطبة التى اكتنفتها العقبات منذ البداية ، فنبذتها بطبيعتى العملية . لكنى سأسرد هنا بعض العلاقات الحميمة التى وصلت إلى اتفاق تام بين الطرفين بما يرفعها إلى مستوى الخطبة .

العروس الأم :

كان اهتمامي بعدم الإنجاب هو الذى جعلنى أفكر فى تلك السيدة الشابة المطلقة . فقد كانت أماً لطفل صغير يملأ حياتها ، ويغنيها عن التفكير فى مزيد من النسل . ولم تكن تلك الميزة وحدها هى التى جذبتنى إليها . فقد كانت فى الواقع شابة حسناء على خلق عظيم ، وكان بيننا ود وتفاهم على مستوى أخوى عفيف . والأصح أن طلاقها وابنها هما العاملان اللذان أطمعانى فى التفكير فيها ، على أساس أن كلا منا يكمل نقص الآخر ويعوض احتياجاته

لاشك أنى ما كنت ألمح بالزواج لهذه الصديقة الممتازة ، لولا أنى أحسست بتجاوبها مع أفكارى ، وارتياحها لصحبتى ومناقشتى فى مشاكلها وشئونها الخاصة . قلت لها يوماً وأنا أسبر غورها خلال حديث عرضى :

— وأين هى الفدائية التى ترضى بى زوجاً ؟

فأجابت بحماس صادق :

— إنها سعيدة الحظ التى تعرفك على حقيقتك .

وكانت تجلس معنا إحدى الصديقات المقربات ، التى تعرف شغفى بها ، فقالت :

— ولم لاتكونى أنت هذه السعيدة الحظ ؟

فضرج وجهها ، وقالت فى حياء محرج :

ـ أنا فى الواقع أعتبر صبحى كأخى تماما . . لكنه يستطيع أن يجد من هى أفضل منى . . لأنه يستحق كل خير .

صدمتنى إجابتها الديبلوماسية . لكننى أسرعت أقول متضاحكا :

ـ فعلا . . . إن شعورنا المتبادل لا يخرج عن نطاق الأخوة .

انتهت الجلسة ، دون أن تؤثر على علاقتنا الأخوية الوطيدة. ومرت الشهور والأعوام . . دون أن نطرق هذا الحديث من قريب أو بعيد ، حتى تقدم لها خطيب مناسب ، فتزوجت للمرة الثانية . تزوجت موظفاً كبيراً . . سناً ومركزاً ومالا . . .

مضت شهور العسل سريعاً ، ثم ظهرت حقيقته المؤسفة ، فقد اتضح أنه مقامر سكير .. يسهر معظم الليل خارج البيت . ويترك عروسه الحسناء مع ابنها الصغير تعانى مرارة الوحدة والإهمال. ولم تجد حولها من تشكو إليه . . سواى .

وفى ليلة حزينة روت لى بدموعها خلال مكالمة تليفونية ، كيف حاولت أن تقنع والدها بالزواج منى ، فرفض فى ديكتاتورية واستبداد حتى مناقشة الفكرة من أساسها ، لأنه كان يريد لابنته الحسناء زوجاً ممتازاً . ثم ودع الحياة بعد عام واحد من زواجها الثانى ، وتركها فريسة سهلة بين براثن الزوج العربيد الذى اختارهلها. وكان من الممكن أن تنحرف هذه السيدة التعسة نتيجة الإهمال والوحدة ، لكن حصانتها الذاتية عصمتها من السقوط .

إنى لا ألوم ذلك الوالد لأنه رفضنى ، فهو حر فى مقاييسه

للأمور. لكنى أحمّل مثل هؤلاء الآباء وزر تحكمهم المستبد، وعدم الرضوخ لرغبات بناتهم . . أقصد الحقوق المشروعة فى اختيار شريك الحياة ، خاصة إذا كانت الابنة ناضجة ، وليست طفلة متهورة.

العروس الموظفة :

فى أواخر سنة ١٩٦٠ ، قدمنى صديق إلى خطيبته ، التى عرفت منها أن لها أختاً تهتم بأخبارى منذ فترة طويلة ، وتجمع قصاصات الصحف التى تكتب عنى ، وتقرأ كل إنتاجى ، ومن أغلى أمانيها أن تتعرف بى ، لكنها تخشى ألا أرحب بصداقتها .

أسرعت أبدى ترحيبى التام بزيارة أختها ، وقد أسعدنى أن أعثر على فتاة تهتم بى إهتماماً موضوعياً ، وليست كسواها من ذوات النزوات العابرة ، وانتشيت زهواً لحرصها على تتبع إنتاجى وأخبارى بمثل هذه الدقة والاهتمام .

فى اليوم التالى كانت الأخت الولهانة تجلس أمامى فى رهبة وشرود ، وراحت تتلفت حولها فى ارتياح كبير ظهرت آثاره على وجهها الباسم . وبدأت تصب فى سمعى كلمات الإعجاب والتمجيد .

عرفت منها أنها موظفة فى إحدى السفارات ، وأنها خريجة كلية الآداب . ولها ميول أدبية، وصلات قوية برجال الصحافة والإعلام بحكم عملها كمترجمة فى السفارة .

لم يكن وجهها مليحاً ، لكن جسدها كان ممشوقاً ومن الطراز

الذى يستهوينى ، وأنا أحتمل الوجه المتوسط الجمال لأن المساحيق وأدوات التجميل والحلاق . . قد يحدون من دمامته ، أما الجسد البدين أو المترهل فلا أحتمله فى المرأة . . كزوجة . ربما لأن والدتى وأختى يتمتعن بقدر من البدانة مما يوحى إلىّ بأن كل بدينة صورة منهن . فيجردهن هذا الإيحاء من الجاذبية الجنسية بالنسبة لى شخصياً . ولا يعنى هذا بالطبع أنى أنفر من الصديقات والأخوات البدينات . مادامت علاقاتى بهن ليس أساسها الجنس .

نعود إلى خطيبتى الموظفة ، التى اشترطت أن تبقى فى وظيفتها محاولة أن تقنعنى بأننا أحق بمرتبها الذى يربو على الأربعين جنيها ، خاصة فى بدء حياتنا الزوجية ، حيث كان إيرادى حينذاك فى حدود الأربعين جنيها فى المتوسط . وهو مبلغ لا بأس به إذا وضعنا فى حسابنا المسكن المجانى .

ومع أنى لست رجعياً فى مبدأ اشتغال المرأة ، بل أحبذه ، فقد كنت أعارض اشتغال زوجتى خارج البيت ، لأنى فى الواقع محتاج إلى خدماتها أكثر من احتياجى لمرتبها . فرضخت أخيراً لإرادتى . وقد كانت فى الواقع تستجيب لكل رغباتى دون قيد أو شرط ، وكانت تأسرنى دائما بطاعتها وانقيادها لآرائى عن طواعية ودون ضغط .

وبعد أن اتفقنا على كل شىء ، لاحظت أنها تماطل فى تنفيذ الخطوة الأولى ، وهى مصارحة أهلها برغبتنا فى الزواج . حتى بدأ

الشك يلعب بأفكارى فحددت لها موعداً قاطعاً للتنفيذ، وإلا فلتعتبر الخطبة الشفوية مفسوخة إلى غير رجعة .

وعندما حاصرتها بتهديدى الحازم ، انهارت مقاومتها ، وانفجرت فى البكاء . فدهشت لدموعها المفاجئة ، مع أنها هى المسئولة عن المماطلة . ثم استجمعت شجاعتها ، وقالت باكية :

— أرجوك لا تظلمنى . . فأنت لا تعرف السبب .

قلت فى إصرار :

— إذا كان لديك سبب جوهرى . . فيجب أن أعرفه .

وبعد تردد طويل همست فى خجل :

— أنا فتاة لها ماض . . لقد أخفيت عنك السر حتى لا تهجرنى.

— وما نوع هذا الماضى؟ .. علاقة عاطفية. أم خطبة مفسوخة.؟

— خطبنى شاب منذ عامين . . ثم تخلى عنى قبل أن أعرفك بخمسة شهور .

قلت أطمئنها :

— وهل أنت أول من فسخت خطبتها ؟

أجابت فى تردد :

— لكنه كان نذلا .

— هذا أدعى لأن تفرحى لخلاصك منه . .

فأجهشت بالبكاء ، وخرجت الكلمات من بين نشيجها كخناجر تمزق سعادتى ، فقد اعترفت التعسة بأنهما تعجلا الزفاف قبل عقد القران !

ثم مرت لحظات رهيبة صامتة بعد أن عقدت المفاجأة لسانى. ويبدو أن عدم انفجارى قد أطمعها فى صفحى ، فارتمت على صدرى وهى تنتفض فى نحيب مكتوم ، حتى لا يسمعها أهل البيت خارج الباب المغلق . وأحسست بدموعها الدافئة تبلل قميصى وتلسع كتفى فى استرحام وندم .

لقد علمتنى الحياة ألا أصدر حكماً قاطعاً أثناء غضبى حتى لا أندم عليه . لهذا تمالكت نفسى ، ودفعتها برفق وبرود ، فجلست على حافة السرير تمسح عبراتها ، ثم قالت دون أن تجرؤ على مواجهتى بنظراتها :

ــ لعلك الآن تحتقرنى .

قلت :

ــ وكيف أحكم عليك . . وأنا لم أعلم التفاصيل بعد ؟

وبعد أن قصت حكايتها من وجهة نظرها ، سألتنى كمن ينتظر حكماً من القاضى يحدد مصيره ، فقلت مؤثراً عدم التسرع :

ــ عندما وعدتك بالزواج كان وعدى لانسانة لها صفات معينة صفحتها بيضاء . أما الآن فأنا أمام إنسانة أخرى لا أستطيع أن أعدها بشىء قبل أن أختبرها وأطمئن إليها .

قالت بمرارة :

ــ لهذا كنت أخشى أن أطلعك على سرى .

قلت صادقاً :

ــ أنا لم أرفض فكرة الزواج بعد . وفى استطاعتى أن أغفر الخطأ

إذا اقتنعت بأنك كنت ضحية مغلوبة على أمرك . . وفرق شاسع بين النادمة على الخطأ . . والمستهترة بالخطأ . . ومحترفة الخطأ .

— وما رأيك إذن ؟

— رأيي أننا مازلنا أصدقاء . . ولنبدأ من هذه النقطة فإذا اقتنعت بك يوماً كزوجة ، فسوف أطلب منك الزواج .

كانت تترامى إلى سمعي إشاعات عن ماضيها ، فأقابلها بالرفض والتكذيب ، حتى أختها حذرتني من تهورها ، فظننت أنها تضع بيننا العراقيل بإيعاز من أهلها . ولكن بعد أن اكتشفت ماضيها ، أخذت أستعيد كل الإشاعات وأتتبع خيوطها ، بعد أن تضخم الشك في رأسي . وجعلني أتحرى الحقائق بمزيد من الدقة والحياد ، وبعد أن تخليت عن ثقتي ومحاباتي المتحيزة لها .

تأكدت بما لا يدع مجالا للشك أن الذئب الذى أدعت أنه كان خطيبها . . لم يكن خطيباً . . أو ذئباً ! كذلك لم يكن الرجل الوحيد فى حياتها . واتضح لى بالبحث فى أرشيف كلية الآداب أنها لم تكن يوماً إحدى طالباتها . وعندما استخرجت سراً شهادة رسمية تثبت ميلادها الحقيقي ، اتضح لى أنها تخفى من عمرها عشر سنوات كاملة ! وعندما اتصلت بالسفارة التى تعمل بها عن طريق موثوق به ، علمت أن مرتبها سبعة عشر جنيها ، وليس أربعينا كما كانت توهمنى لتغرينى بالبقاء فى عملها ، حتى تمارس نشاطها غير المشروع .

هكذا وجدت نفسى أمام إنسانة مستهترة كذوب ، تغطى فجورها بقناع البراءة والرقة والطاعة . . فنبذتها . . حتى كصديقة.

الفتاة المثقفة :

أما الثالثة فقد بدأت علاقتى بها هادئة متحفظة . كانت طالبة فى كلية الآداب ، تخطو نحو الليسانس بخطى متأرجحة .. زارتنى أول مرة بصحبة والدتها المريضة لتأخذ بعض حبوب «التاندريل» التى أعلنت عنها فى «الأهرام». وعرفت أنها تتتبع إنتاجى وتعجب به. فأهديتها بعض كتبى المترجمة . وفى الزيارة التالية أبدت دهشتها وإعجابها بأسلوبى فى الترجمة، وسألتنى كيف أختار اللفظ المناسب المكان المناسب، وبعد أن شرحت لها طريقتى الخاصة أعطيتها الأصل الإنجليزى للكتاب المهدى إليها.لتقارن بين الأصل والترجمة . .

ثم تكررت زيارتها مع أخيها الأكبر ، الذى أبدى لى كثيراً من الود والإعجاب . ورجانى أن أسمح لها بالتلمذة على يدى فى الترجمة . وأبديت ترحيباً بالفكرة ، فهى على الأقل ستساعدنى فى المراجعة ، حيث تتدرب تلقائياً على الترجمة دون مجهود خاص أبذله من أجلها . وقد كانت فى الواقع تجيد الإنجليزية إلى حد كبير ، لكن ضعفها كان فى اللغة العربية ، حيث لم تكن تستطيع التعبير الصحيح رغم فهمها للمعنى تماماً . والمترجم يجب أن يجيد

اللغة التى ينقل إليها إجادة تامة . أما ضعفه النسبي فى اللغة الأجنبية فيمكن تعويضه بالقاموس .

توالت زياراتها ، التى كنا نقضى معظمها فى العمل ، والقليل منها فى المناقشات البريئة ، التى غالباً ما تحضرها إحدى سيدات البيت حتى تتخذ وضعاً عائلياً .

أعجبت بتصرفاتها وبساطتها التى تنبع عن نفس خيرة متدينة . وأحببت فيها أنها حولت حريتها إلى مسئولية تلتزم بها أمام ضميرها دون رقيب . كانت ألفاظها وحركاتها مهذبة ، وأحياناً تتسم بسذاجة محببة ، وغالباً ما يصبغها الحياء والتحفظ ، ويبدو أنى كنت أقارن تلقائياً بين نقائها وفجور الأخرى الكذوب ، فازداد إعجابى بها وتقديرى لها .

بدأت تنشأ بيننا علاقة روحية هادئة رقيقة قوامها التعاطف والارتياح . . ولا أقول الحب . حتى عندما تفاهمنا على توحيد حياتنا فى زيجة واحدة ، لم يجروء واحد منا على كشف ستار التحفظ المسدل بيننا . حتى الكلمات كنا نختارها بحرص وعناية . فنستعمل لفظ . . « الاعزاز » أو « الإعجاب » . بدلا من كلمة « الحب » المستهلكة .

وعندما نجحت فى امتحان الليسانس ، قررنا معا أن نضع أحلامنا موضع التنفيذ . واتفقنا على أن أفاتح أخاها وصديقى فى الموضوع . متوقعين منه كل الترحيب والموافقة .

طلبته بالتليفون ذات ليلة ، ورجوته أن يزورنى فى أقرب فرصة حتى أعرض عليه موضوعاً هاماً . فأجابنى ضاحكاً :

ـــ أنا تحت أمرك فى أى وقت .

وشجعتنى لهجته المرحبة على جس نبضه . فقلت :

ـــ إنه بخصوص الأخت . . .

تساءل ضاحكاً ، ومازالت لهجته ودية خالصة :

ـــ خير إن شاء الله .

قلت بلهفة :

ـــ كل خير . . الحكاية أنى أريد أن أوطد علاقتنا بما هو أكثر من الصداقة والأخوة .. وبصراحة .. أطلب منك يد أختك .

إلى هنا وكان صاحبنا يتكلم كالآدميين . وفجأة انقلبت لهجته إلى سخرية حادة وهو يسألنى فى مزيد من الدهشة كأنى أهنت كرامته :

ـــ ماذا تقول ؟ . . أنا لا أكاد أصدق !

صعقتنى لهجته المتهكمة ، لكنى تمالكت أعصابى حتى لا يفلت الزمام من يدى ، وقلت .

ـــ وماوجه العجب يا أخى . . ؟

قال فى عصبية :

ـــ وهل تعلم هى عن هذا الموضوع شيئاً . ؟

ـــ نعم . .

فصاح محتجا :

— وكيف تفاتحها فى موضوع كهذا قبل أن تأخذ رأيى . ؟

أجبته بهدوء :

— أعتقد أنها كفتاة جامعية لها الحق فى الاختيار . . وأقسم لك أنى لم أخـــدش حياءها بأى لفظ أستحى من توجيهه إليها فى حضورك .

عاد يمعن فى ايذاء مشاعرى ، فقال :

— وكيف وافقت هى ؟

قات أساومه بأسلوبه المادى :

— أعتقد أنك كأخ يهمك فيمن يتقدم لأختك أن يكون إنساناً شريفاً ذا مركز مرموق ، وإيراد طيب ، ومستقبل يبشر بالخير . وأعتقد أن هذه صفات لا تنقصنى . أما عيوبى الجسدية فلا تعنى أحداً غيرها . وهى راضية وإلا مافاتحتك فى الموضوع . . هل لديك اعتراض آخر ؟

— إنك لا تحمل شهادة جامعية .

قالها متبجحاً ، مع أنه شخصياً لم يحصل إلا على شهادة الميلاد . لكنى لم أشأ أن أتحداه ، فقلت :

— إن الشهادة الجامعية ليست هدفاً فى حد ذاتها ، بل هى وسيلة لتحقيق أهداف معينة ، توسيع آفاق الإنسان ، ومنحه مركزاً

إجتماعياً ، ثم هى أخيراً رخصة تفتح أمامه أبواب العمل ، وهى بالنسبة لى إذن تحصيل حاصل .

قال معانداً :

— أريد أن افتخر بزوج أختى الذى يخرج معها إلى السينما ، ويسافر معها إلى رأس البر فى الصيف ، ويمتعها بالحياة . .

لم أشأ أن استمر معه فى المناقشة بعد أن وصل تفكيره إلى هذه الدرجة من التفاهة . وأسرعت بانهاء المكالمة قبل أن تفلت أعصابى ، وأنزل إلى مستواه فى الألفاظ الجارحة واللهجة المتحدية . فقد خشيت أن يصب غضبه ونقمته على أخته المسكينة البريئة ، ظاناً أن بينى وبينها علاقة تشينه .

لقد آلمتنى تلك المناقشة إلى أبعد حد . إن قيودى فى حد ذاتها لم تستطع أن تنال من سعادتى أو تقلل من ثقتى فى نفسى . لكن قسوة القيود تبرز واضحة عندما أصطدم بمثل هذا الجاهل المغرور الذى يستنكف من إنتسابى إليه كزوج لأخته ، لكن اقتناعها بى وهى المثقفة الواعية خفف من ثورتى ، وضمد شيئاً من جراحى . وكان فى وسعى أن أغريها بتحقيق هدفنا ، لكنى لم أشأ أن أثقل ضميرها المتدين بعصيان أخيها ووالدتها التى انضمت إليه .. كذلك كانت هى أضعف من أن تتحدى أخاها القاسى المتهور .

الواقع أنى لا ألومه كثيراً على رأيه فى شخصى ، وقد أكون أنا غير كفء للزواج من أخته . . لكنى ألومه بشدة على ألفاظه

الحجرية ولهجته الساخرة . وكان أحرى به أن يرفض طلبي دون إبداء الأسباب من أن يجرحني متعرضاً لعيوب لست مسئولا عنها .

وعدت أقرر الإضراب عن الزواج حتى لا أتعرض لمزيد من الصدمات فتتحطم آمالي على صخور الأهل المتزمتين .

بلا أهل :

كانت العروس هذه المرة بلا أهل ، مما شجعني على العدول عن الإضراب ، خاصة وأن العرض كان من طرفها بعد أول زيارة.

كانت تعمل مشرفة في إحدى المدارس الأهلية بمرتب بسيط جداً ، وتبيت في نفس المدرسة . مما جعل حياتها جافة قاسية . لكنها كانت طموحة وناقمة على وضعها وحياتها .

سمعت عني من بعض زميلاتها اللاتي جئن لزيارتي في ظروف معينة . فدفعها حب الإستطلاع لرؤية ذلك الشخص الغريب الذى يتحدثن عنه . ولم تشأ أن تأتى معهن. فطلبتني بالتليفون ، وأبدت رغبتها في لقائي على انفراد . فرحبت بزيارتها خاصة بعدما سردت عليّ جانباً من حياتها القاحلة ، ووحدتها القاتلة .

كانت فتاة في حوالى الخامسة والعشرين ، وسيمة ، هيفاء . جلست أمامي في رهبة ، وخرجت كلماتها المهذبة تبدى إعجابها بي

فى كثير من المجاملة ، ثم سألتنى فى سياق الحديث :

ـــ عرفت من زميلاتى أنك لم تتزوج حتى الآن .. رغم أنك تملك كل مؤهلات الزواج !! فهل أنت مضرب ؟

أجبت ضاحكاً :

ـــ بالعكس . أنا محتاج لزوجة أمينة ترعانى وتسعدنى وتساعدنى على الحياة .

قالت :

ـــ ألا تقوم الآنسة نعمات بهذه المهمة ؟

ـــ للزوجة اختصاصات لا تستطيع نعمات أن تؤديها .

قالت مبتسمة :

ـــ وما هى شروطك . ؟

ـــ لا شروط على الاطلاق أكثر من أن تكون وفية مهذبة مقبولة الشكل . . على قدر معقول من الثقافة . . والأهم . . أن ترضى بى ، وتقبلنى بعيوبى دون أن تشعر بأنها مضحية .

قالت بثقة :

ـــ طلباتك بسيطة وموجودة .

هتفت متصنعاً اللهفة :

ـــ إلىّ بها . . أرجوك . .

قالت بتواضع :

ـــ لكن شكلها قد لا يعجبك .

ــ صفيها لى إذن ..

قالت على استحياء :

ــ إنها تشبهنى . .

قلت صادقاً :

ــ إنها إذن ترضينى تماماً . .

ثم عدت أقول وقد تذكرت شيئاً هاماً .

ــ كل هذا جميل . . لكن الأهل دائماً يرفضون .

ــ لا تحمل هماً . . فإنها وحيدة . . والرأى لها وحدها .

وضح الشك حتى صار يقينا . . بأنها تعنى نفسها ، لكنها تخجل من التصريح . فقلت أشجعها :

ــ إذن اتفقنا .

فتضرج وجهها الأسمر بحمرة الحياء ، وقد أدركت أنى فهمت تلميحها . وهكذا بدأنا نناقش الموضوع بصراحة فى أول مقابلة ، ثم تعدد لقاؤنا على أسلاك التليفون. ولما كان الوقت صيفاً ، والمدارس فى عطلتها السنوية، فقد كانت تزورنى كثيراً، وتمضى عندى أياماً كاملة تختلط فيها بأهلى وأختى وأبنائها . . وسرعان ما اكتسبت حب الجميع بتصرفاتها الودية وألفاظها المهذبة حيث كانت تحترم الكبير والصغير .

وهكذا تطورت المناقشة العفوية إلى مشروع جاد . بعد أن وجدت فيها خامة طيبة قد تجعل منها نسخة أخرى من نعمات ،

وهذا أقصى ما أتمناه . وبعد شهرين من لقائنا الأول كنا قد اتفقنا على كل شيء . ولما كان بيتي كامل التأثيث ، فلم نكن بحاجة إلى مزيد من التكاليف ، ما عدا بعض قطع الأثاث الخاصة بها . فعهدت إلى النجار بانجازها .

شيء واحد لم أكن مطمئناً إليه .. هو شغفها العظيم بالأطفال ، رغم أنها وافقت على شرطي الهام في عدم الإنجاب ، ولاحظت أنها تحتضن أطفال الجيران وتقبلهم في حنان دافق . فسألتها أثناء انفعالها :

— هل تحبين الأطفال إلى هذا الحد ؟ .

اجابت بدون تحفظ :

— بل أعبدهم ..

— وكيف وافقتني إذن على عدم الإنجاب ؟

قالت متراجعة :

— مادامت هذه رغبتك .. فلن أعارضها .

— ليست رغبتي فقط هي المهمه ، يجب أن تكوني مقتنعة .

فتدخلت والدتي في الحديث تؤيد رأيها . ووالدتي دائماً تتلهف على أن أنجب أنا وأخي .. حفيداً تلعب به..لا أدرى لماذا؟ وكثيراً ما أبدت حسرتها على فرع الأسرة الذي سيذبل من بعدنا.

تحمست خطيبتي لمؤازرة والدتي ، وقالت بدلال .

— دعيه ياماما .. بعد الزواج يفرجها ربنا .. ساعتها أتوسل

إليه مرة وأبكى له مـــرة ، فيستجيب لرجائى .. أنا عارفه إن
قلبه طيب .

فقلت بلهجة حازمة :

ــ المسألة لا تحتمل المساومة ياجماعة، هذا مبدأ أنا مقتنع به .
ولو طلبتم التضحية بشىء أملكه لكان من الممكن أن أقتنع .. لكنى
لا أملك المجازفة بسعادة أقرب الناس إلى قلبي .. وهم أبنائى . .

قالت ذاهلة :

ــ أهذا هو رأيك الأخير ؟

ــ نعم . . ويجب أن تفكرى فى حياتنا معاً على هذا الأساس.
وأرجو ألا ترضخى لإرادتى . فإن حرمانك إلى الأبد من الأطفال
سوف يجعل حياتك جحيماً . . وسوف تعتبرينى عدوك اللدود
الذى حرمك من ممارسة أمومتك .

قالت فى يأس :

ــ ألا يمكن أن تغير رأيك فى المستقبل ؟

قلت فى تصميم أكيد :

ــ مستحيل . . إلا فى حالة واحدة . .

ــ وما هى ؟

ــ أن يكتشف العلماء علاجاً مضموناً لمرضى . . ليس لشفائى
أنا . . فإن حالتى ميئوس منها . . ولكن لنواجه به العدو الرهيب
إذا هاجم أبناءنا .

— مادام هناك أمل فـ . . .

فقاطعتها فى إصرار وحزم :

— لا أستطيع أن أعلق حياة الأبرياء على مجرد احتمال . .

— إذن فأنت مصمم ؟

— كل التصميم . .

وهكذا اختلفنا .. وكانت أمينة مع نفسها ، فلم تخدعنى أو توهمنى بالموافقة . وعدت أسحب العربون من النجار . . بعد أن فشل المشروع . وتحولت خطيبتى السمراء ذات الأمومة الفائرة إلى إلى قائمة الأخوات . . ومازلنا حتى كتابة هذه السطور على صلة طيبة ، بعد أن قبلنا الموقف بروح رياضية.

زواج بلا أبناء :

كانت أختى تتحدث إلى بعض ضيوفها ، فتطرق الحديث إلى موضوع خطوبتى للسمراء المهذبة ، وعرفوا سبب الفسخ ، فانبرت من بينهم شابة متحمسة وقالت :

— وهل هذا سبب لرفض الزواج ؟ . . لو أنها كانت تحبه لضحت بأمومتها فى سبيل إسعاده .

قالت أختى تتحداها :

— لو أنك مكانها . . هل كنت تبذلين هذه التضحية عن طيب خاطر ؟

فاندفعت بحماس :

ــ طبعاً . . ليته يتزوجنى أنا . .

ــ حقاً . . أم أنك تمزحين ؟

ــ والله العظيم أنا أعنى ما أقول ؟ . .

ثم انتهى الحديث ، وانفض المجلس . وأسرعت أختى تعرض علىّ الفدائية الجديدة التى توافق على شروطى بمحض إرادتها ودون ضغط .

كنت أعرفها ، لأنها كانت تتردد علينا فى فترات متباعدة ، لكنها لم تلفت نظرى كزوجة . لا لشىء إلا لأنها كانت على قدر ضئيل جداً من التعليم . . حتى لتكاد تقرأ بصعوبة . وكانت من عائلة متواضعة جداً ، لكنى لم أهتم بهذه النقطة . وكان سنها مناسباً لأنها فى حدود الثلاثين . أما شكلها فلم يكن من الطابع الذى يرضينى لكنها لم تكن دميمة ، لهذا تغاضيت عن تلك النقطة أيضاً ، وكان أجمل ما فيها أن والدتى وأختى ونعمات كن متحمسات لها ، لأنها مؤدبة و « ست بيت » وتقنع بالقليل لأنها تعودت عليه .

اقتنعت بعقلى ، خاصة بعد أن أكدت العروس لأختى أن أهلها يرحبون بالفكرة ، ويتشرفون بهذا النسب . . على حد قولها . وأقنعت نفسى بأنها زيجة مصلحة لكلينا ، تتعادل فيها كفتا التضحيات والميزات . فلكل منا عيوبه وحسناته . أما عيوبى فلم تكن تعنيها

كثيراً ، لأنها كانت تستمتع بالحياة المنزلية ولا تهوى الخروج إلا للضرورة القصوى . وذلك بحكم بيئتها المحافظة . وكان انتقالها إلى بيتى يعتبر طفرة كبيرة فى مستوى معيشتها . أما عيبها الرئيسى فى نظرى فهو الجهل . فنويت أن أتغلب عليه بقدر ما تستطيع ان تستوعبت من مكتبتى المتنوعة . . وتحت اشرافى .

جاء موعد التنفيذ. واستعدت أختى للخطوة الإيجابية التى مهدت لها العروس بنفسها . لهذا لم نكن نتوقع أية عقبات . ولكن عندما زارت أختى بيت العروس لتطلبها رسمياً بإسمى ، فوجئت بهم يتلعثمون ويماطلون ، مدعين أن أحد أصدقاء أخيها طلبها منه فى اليوم السابق وأن أخاها تورط فى الموافقة عليه !

ثارت أختى ، وقد تصورت المطب الذى أوقعتنى فيه بحسن نيتها فصاحت فيهم :

ــ والذى بيننا .. ألم يكن إتفاقاً ؟

أخذوا يرددون فى خجل العبارات المأثورة فى مثل هذا الموقف ، من أن الزواج قسمة ونصيب . لكننا لم نقتنع بحجتهم المكشوفة، والتى أكدت السنوات التالية أنها كانت كذبة بيضاء . بيضاء لأنها لم تؤذى شعورنا ، كما فعل الأخ المتهور شقيق خطيبتى الجامعية.

كانت هذه آخر محاولاتى للزواج . لم أحاول بعدها أن أقوم بأية خطوة إيجابية إلا بعد أن أقدر لقدمى قبل الخطو موضعها .

فلست مستعداً لمزيد من الصدمات المهينة لمشاعرى . ولكن ، حمداً لله أنها ليست صدمات عاطفية ، وإلا كانت العواقب وخيمة. فقد كنت أقدم على تلك المشروعات بعد حسبة عقلية أقدر فيها حساب الأرباح والخسائر . . أو التضحيات والميزات .

ومع هذا فما زلت لا أرفض فكرة الزواج . . لكنى لن أسعى إليه .

* * *

مناوشات مع المرض

إذا كان المثل القائل بأن « المؤمن دائماً مصاب » صحيحاً ، فلاشك أنى سأضمن الجنة على رأس المؤمنين . فإن شيطان المرض يطاردنى من وقت لآخر بأحد أسلحته البتارة ، لكنه — والحمد لله — لم يستطع أن ينال من روحى المعنوية ، رغم أنه لم يترك جزءاً من جسدى دون أن يترك عليه بصمات التشويه .

انسداد الأنف :

فى ديسمبر ١٩٦٣ ، أصابتنى نوبة زكام عادية . عوفيت منها بعد عدة أيام ، فاختفت الإفرازات وكل أعراض الزكام ، ومع ذلك بقى أنفى مسدوداً !! كأن يداً خفية تضغط عليه من الخارج فتمنع تسرب الهواء خلال فتحتيه . فإذا ما ألقيت إليه ببضعة نقط من عقار قابض تنكمش الأغشية المخاطية ، ويعود أنفى ليفتح طاقتيه فى دقائق قليلة . وكأن شيئاً لم يكن . . .

وبعد أربع ساعات ، تعود اليد الخفية تطبق على أنفى تدريجياً فتغلقه تماماً ، بحيث لا تنفذ منه ذرة هواء . ولا يسعنى إلا أن ألقى فى أنفاق أنفى بضع قطرات سحرية، فلا تلبث أن تنفتح على مصراعيها .

لجأت إلى أساتذة الأنف والأذن ، ليخلصونى من هذا الاختناق الذى يلازمنى ليلا ونهاراً ، صيفاً وشتاء .. كل أربع ساعات .. إن لم يكن أقل . وأحياناً أصحو من نومى كالمخنوق الذى يلتمس نسمة هواء .

حار الأطباء فى تشخيص حالة أنفى ، فلم تكن لها أية أعراض معروفة . ليست بها زوائد لحمية أو التهاب أو حساسية ، أو إفرازات .. إلى آخر هذه الظواهر التى تنير الطريق أمام الطبيب المعالج .

وكان لابد والأمر كذلك أن نفترض وجود الحالات المعروفة رغم عدم ظهورها ، ثم نعالجها، وكأننا نحارب عدواً غير منظور. ومن عادتى أن أستسلم لتجارب الطبيب دون خوف أو تردد، حتى لا أتدخل بخبرتى المحدودة فى صميم تخصصه .

بدأ الطبيب يحقننى فى أنفى من الداخل بحقن الكلسيوم ، علها تضطر الغشاء المخاطى إلى التراجع مفسحاً فى الأنف ممراً للهواء .

ولما لم تجد تلك الطريقة رغم تكرارها ، وافقت الطبيب على

اقتراحه بتجربة « كى » الغشاء المبطن الأنف ، حتى يتآكل منه جزء فتتسع فتحة الأنف .

كانت عملية الكى هذه أرحم كثيراً من كيات الشيخ على الكرش على جسدى فى بداية القيود . لكنها كانت مؤلمة تماماً ، رغم قطنه المخدر الموضعى التى دسها الطبيب فى أنفى قبل الكى بدقائق .

كانت أداة الكى عبارة عن جهاز كهربائى ، ينتهى بمقبض يمسك به الطبيب فى يده ، وفى طرف المقبض سلك رفيع قطره حوالى ملليمتر واحد. فإذا ما أدار مفتاح الجهاز ، تسرى الكهرباء إلى السلك الفضى فيسخن ويتحول فى لحظات إلى لون أحمر مشع . ثم يدخل هذا السلك الأحمر فى طاقة أنفى ويمر به على أجزاء معينة ، فتنبعث منه « طشطشة » مع رائحة شواء اللحم . وعندما يخرج السلك الملتهب من أنفى يخرج معه الزفير مشبعاً بدخان معطر يطابق رائحة الكباب ، حتى أنى لم أتمالك نفسى ، فقلت لوالدتى بلهجة جادة :

— إسرعى إلى برغيف . . . حتى أكله على رائحة الكباب ! .

ولم يكتف الطبيب بمنطقة واحدة ، فأعاد العملية ثلاث مرات حتى تأكل النار مساحة مستديرة من الغشاء المخاطى المتمدد .

كان المفروض أن تسقط القشرة من فوق الجرح بعد أيام مخلفة مكانها إنخفاضاً من الغشاء الضامر المتليف ، وقد سقطت

القشرة فعلا ، لكن الأنف ظل مغلقاً طاقتيه فى عناد .

إستنفد الطبيب الأستاذ كل ما فى جعبته من تجارب طوال عامين كاملين، ثم أعلن عجزه آسفاً . كذلك فشلت كل العلاجات التالية للسيطرة على أنفى المسدود ، الذى يصر على كتم أنفاسى دون أية أسباب ظاهرة .

شلل نصف الوجه :

كان وجهى هو المكان الوحيد الباقى فى جسدى دون تشويه، ويبدو أن هذا الاستثناء لم يرق لعدوى اللدود . . شيطان المرض .. وفى مساء ١٤ فبراير ١٩٦٦ ، شعرت فجأة ودون أية مقدمات بأنى لا أستطيع السيطرة على عينى اليمنى وأغلاقها . . فلم أهتم كثيراً ، ظاناً أنه عرض بسيط لا يلبث أن يزول .

وبعد ساعة قمت فى رحلتى المسائية إلى دورة المياه . تلك الرحلة التى اختمها بغسل أسنانى بالفرشاة . وعندما أخذت أمضمض فى ، فوجئت بالماء ينبثق من جانب فمى دون أن أستطيع التحكم فيه . . !

تملكنى رعب شديد ، وخشيت أن يمتد الشلل إلى ذراعى اليمنى بعد أن هبط من عينى إلى فمى وشمل نصف وجهى كله . عدت بسرعة إلى السرير ، وحاولت أن أطلب أحد أصدقائى الأطباء ليشير على بطبيب مختص ؛ فوجدت أنى لا أستطيع ان أسيطر على نطق الكلمات . وكان بعضها يفلت من بين شفتى المتهدلتين .

أسرعت الأخت نعمات تطلب لى طبيب الاسعاف مؤقتاً حتى نعثر على طبيب أخصائى فى الأمراض العصبية . وبعد ساعة واحدة، وصل طبيب الإسعاف الذى ما كاد يرى وجهى حتى هتف مطمئناً :

— لا تخف .. هذه حالة بسيطة جداً .. ان تتعدى نصف الوجه . . . ولن تلبث أن تزول بعد أسبوعين على أكثر تقدير .

هدأت نفسى كثيراً ، وقمت بعدة إتصالات لأتأكد من قول طبيب الإسعاف . وقبل أن أنام فى تلك الليلة كنت قد إستشرت أربعة أطباء ، أكدوا جميعاً نفس التشخيص والعلاج ، الذى أرسلت فى شرائه ، وبدأت أتعاطاه بعد الإصابة بساعتين فقط ، حتى أدعم الشفاء التام الذى أجمع عليه الأطباء .

عرفت أن سبب هذا الشلل فى نصف الوجه ، هو لفحة هواء بارد أصابت منطقة خلف الأذن ، حيث تنبع الأعصاب التى تغذى نصف الوجه . وعرفت أن حالتى تعتبر خفيفة جداً إذا قيست بالإصابات المألوفة التى تسبب إعوجاجاً شديداً بالفم نتيجة تغلب عضلات النصف السليم على عضلات النصف المشلول .. فتجذبها . لكن حالتى كانت خفيفة لدرجة أن وجهى كان يبدو عادياً فى حالة السكون . أما إذا تكلمت أو ضحكت ، فإن نصف وجهى فقط هو الذى ينفعل بالضحك ، أما النصف الآخر فيبقى ساكناً تماماً كأن الأمر لا يعنيه !

فى صباح اليوم التالى إستدعيت طبيباً إخصائياً فى الأمراض العصبية ، فلم يخرج فى حديثه المطمئن عن إجماع الأطباء الذين

إستنشرتهم فى الليلة السابقة ، وأوصى بتدفئة الوجه جيداً ، وتغطية العين المصابة حتى لا تدخلها شوائب مؤذية بعد أن تعلق جفنها فى وضع محملق لا يختلج .

بعد تنفيذ تعليمات الطبيب لاحظت أن شكلى يشبه القرصان ؟. فقد لففت عمامة على رأسى لأثبت بها الوشاح الذى يدفىء وجهى، ووضعت عصابة سوداء على العين المصابة، ثم جاء الفم المعوج أثناء الكلام، فأكمل صورة قريبة جداً من القراصنة والأفاقين . وكنت أضحك من نفسى كلما تطلعت إلى المرآة فيستجيب لضحكاتى الخد الأيسر ، ويظل النصف الأيمن كتمثال لا يؤمن بالمرح .

لاحظت أن لسانى يفلت بعض الحروف دون أن أتحكم فيها. وبعد عملية حصر سريعة إتضح لى أنى عاجز عن نطق حرفى «الباء» و « الفاء » . وكان صوتى يخرج مضحكا إذا ما قلت :

« لطفك يارب » أو « افرجها يارب » . . !

ومن العجيب أن أول تقدم أحرزته بعد أيام كان فى نطق حرفى الباء والفاء. وهكذا يؤكد الخالق أنه سميع مجيب الدعوات ، وكأنما عز عليه أن يناجيه واجد من عباده بلسان عاجز .. فأعاد إلى النطق السليم .

مرت الأيام والشهور. والعلاج مستمر بالتدليك والحقن والأدوية والكهرباء . وبدأ التحسن طفيفاً فى حاجبى وجانب فمى، واستطعت بعد شهور أن أغلق عينى عامداً ، لكن اختلاجة الجفن اللاإرادية ظلت عاجزة عن أداء مهمتها فى غسل العين ، وبالتالى كانت المقلة

تلتهب وتدمع . . حتى اضطررت أن أثبت قطعة من القطن بجانب عيني، لتتلقى قطرات الدموع التي لا تنقطع إلا أثناء الليل. وأصبحت هذه القطنة المثبتة بشريط لاصق . . إحدى علاماتي المميزة حتى الآن. وأحياناً تلتهب عيني إذا ما أجهدتها في القراءة والكتابة عندما أكون مضطراً إليها ، فلا أجد بداً من إغلاق عيني اليمنى بشريط لاصق حتى تهدأ ، ثم أنجز عملي بالعين الأخرى . ومن سوء الحظ أن أصابني هذا الداء في فترة تفرغي لتأليف هذا الكتاب مما كان يتطلب مجهوداً مستمراً مضاعفاً حتى أنجزه في الوقت المحدد .

ومن المضاعفات التي تخلفت عن الإصابة رغم تحسن حركة العضلات من حيث الشكل ، أني لا أستطيع أن أشرب من الكوب كالمعتاد ؛ لأن شفتي لا تقويان على التحكم في حافة الكوب . لكني تغلبت على هذه المشكلة بسهولة بعد أن استعنت بمصاصة زجاجية معوجة حتى تناسب وضعي الأفقي .

والآن وبعد مرور أكثر من عام على إصابتي ، فإن مضاعفاته مازالت باقية ، . . ومن حيث المظهر فإن اعوجاج فمي يزداد وضوحا عندما أتكلم أو أضحك . . ومع هذا فلم أكف عن الضحك . . فان الضحك هو أحد أسلحتي الرئيسية في معركة الحياة .

الضرس الفاسد :

منذ أن حشا لي طبيب الأسنان ضرسين في بداية القيود ، لم تصب أسناني بداء يستوجب عرضها على طبيب . وظللت أكثر

من عشرين عاما أراقب من حولى يترددون على أطباء الأسنان ، فينتابنى القلق ؛ وأتخيل اليوم الذى سأحتاج فيه إلى زيارة عيادة طبيب الأسنان ، فلا أستطيع الانتقال إليها . . وإذا كانت رحمة السماء قد ترفقت بى عشرين عاما ، فمن المستحيل أن تظل أسنانى سليمة إلى الأبد .

وليت المشكلة اقتصرت على انتقال الطبيب أو معداته . فقد كنت أخشى أن تكون خاصية التصاق العظم قد زحفت إلى أسنانى ، فألصقت جذورها بعظام الفكين. وعندئذ يتعذر خلعها إلا بعملية كبيرة يزال فيها جزء من عظام الفك حيث يخرج مع الضرس . . حتى هذه العملية ليست سهلة ، فإن فتحة فمى محدودة الاتساع بعد أن زحفت القيود على مفصلى الفكين فى البداية وحدّت من حركتهما.

يقول المثل « وقوع الشر خير من توقعه » وهذا صحيح . فقد وقع الشر فعلا بعد عشرين عاماً من الترقب القلق . وإذا بجميع مخاوفى تتبدد فى جلسة واحدة مع الدكتور الصديق وفيق محروس أخصائى جراحة الفم والأسنان .

عندما أصاب التسوس أحد ضروسى ، بدأ ينبح بشدة منذراً بوقوع المأساة . واضطررت إلى إستدعاء الدكتور وفيق محروس على غير سابق معرفة . أرسلت الأخت نعمات لتشرح له حالتى ووضعى الخاص . فأبدى ترحيباً كريماً بزيارتى . وخف إلى نجدتى . واتضح أنه كان يتتبع خطواتى وأخبارى من الجرائد. وأبدى سروره

بزيارتى التى كان يرغب فيها منذ فترة طـــويلة ، لكنه لم يجد الفرصة المناسبة .

إرتحت لروحه الطيبة ، وأدبه الجم ، وحديثه المهذب ، فأفرغت مخاوفى وقلقى بين يديه . فراح يشرح لى بأسلوب علمى كل ما قد يحدث لأسنانى ، مفترضاً أسوأ النتائج . ثم ألقى نظرة على الضرس الفاسد ، وأشار بازالته فوراً .

نبهته إلى فتحة فمى الضيقة ، وطلبت منه أن يشرح لى عمل « الكلابة » التى سيخلع بها الضرس ، وأدهشنى أن وجدتها أداة بسيطة دقيقة . يمكن ايلاجها فى فمى بسهولة . و لما سألته عن إحتمال التصاق جذور الضرس بعظام الفك ، أبدى شكه الكبير فى صحة هذا الاحتمال . ثم أكد لى استعداده التام لمعالجة الموقف إذا تحققت مخاوفى .

بدأ يحقن المنطقة حول الضرس بمادة مخدرة . وكانت وخزاتها محتملة إلى حد بعيد ، ثم تقدم نحوى بالكلابة ، فأغمضت عينى وفتحت فمى بقدر ما استطعت . فسمعته يقول بلهجته المهذبة :

ـــ عن إذنك يافندم . .

وكأنما كان يستأذن لكلابته قبل الدخول إلى فمى . وبعد لحظة سمعته يقول بالانجليزية :

ـــ آسف إذا كنت قد آلمتك . .

فتحت عينى ، فرأيت الضرس الفاسد مضغوطاً بين فكى

الكلابة . وفى اللحظة التالية كانت قطنة مشبعة بمادة قابضة تحتل مكان الضرس المخلوع دون أن تسيل قطرة دم واحدة .

وقال الطبيب المهذب :

– بعد ساعة تستطيع أن ترفع القطنة .

وهكذا تضاءل الوهم الكبير ، إلى كلمات مطمئنة جاءت على لسان الدكتور وفيق الذى قال مؤكداً فى صدق واخلاص :

– لا تحمل هماً لأسنانك بعد الآن ، وإذا استدعى الأمر أن أنقل اليك الحفارة، فعندى منها آلة احتياطية صغيرة سهلة الحمل .

وكأنما كانت أسنانى تنتظر ظهور الطبيب الماهر الذى يعنى بها ، فقد بدأت تشكو وتنفس عن كبت عشرين عاماً . فهذا ضرس يطالب بالحشو ، وذاك ناب نافر يستدعى الازالة . . فلا يحتاج الأمر لأكثر من مكالمة تليفونية لصديق الدكتور وفيق الذى يسرع بإعادة الأمور إلى نصابها داخل فمى المتمرد .

مستشفى خاص :

بقدر ما ابتليت بمجموعة من الأمراض المزمنة ، فقد حابتنى السماء بقائمة من الأطباء البارعين ، فى فروع الطب المختلفة ، وكلهم يمنحوننى صداقتهم الحميمة ، ويضعون خبراتهم تحت تصرفى ، ويخفون إلى نجدتى دون أى مقابل . بل منهم أحياناً من يصف الداء ويزودنى بالدواء من العينات المجانية التى تصرف للأطباء .

كان أول من غمرنى بخدماته الطبية الأخ الصديق الدكتور صبحى نصيف الذى كان زميلا لأخى . وهو شاب متدين خجول يجند نفسه لخدمة الإنسانية بروح شفيفة وقلب كبير ، وثقة لا حد لها فى عدالة السماء . أذكر أنه كان فى إحدى زياراته لى منذ حوالى خمس عشرة سنة ، فرآنى أجتاز نوبة من الكآبة والضيق . فقال يواسينى :

— حمد الله على ما أنت فيه . . فمتاعبك أهون من غيرك .

قلت ساخطاً :

— أتحداك أن تأتى لى بانسان ظلمه القدر أكثر منى .

وأخذت أعدد له قائمة الحرمان التى تخنقنى . فقال بهدوء :

— هل تعتقد أنك الوحيد الذى ترقد فى السرير ؟

قلت :

— كلا بالطبع . .

فقال :

— تصور إذن إنسانا فى مثل رقدتك . . ملقى على الأرض لا يجد من يخدمه أو يطعمه . ولقد رأيت عدة حالات كهذه أثناء عملى بالأرياف .

صدمتنى الصورة القاتمة عندما تخيلتها . . وهمست فى رضا :

— لك حق . . الحمد لله . .

ومنذ ذلك الوقت صار هذا الحديث — على بساطته — عاملا

يخفف الضغط على أعصابى . . كلما جنح بى السخط عن حظيرة الإيمان .

* * *

الشخصية الثانية فى قائمة أصدقائى الأطباء أقرب إلى فئات الملائكة منه إلى صفات البشر . يشع وجهـــه بالطيبة والرحمة . وتمتلىء رأسه بالعلم الغزير ، وتجرى على لسانه أرق عبارات المجاملة .

إنه أخى الأكبر الدكتور فايق فهيم أخصائى العيون .

كان لتعارفنا قصة طريفة . . فعندما عدت من لندن ، زودنى الطبيب الانجليزى بكمية من دواء جديد اسمه « تاندريل » لم يكن قد ظهر بعد فى الأسواق العالمية، ولما قاربت كمية الدواء على الانتهاء ، كتبت إلى الطبيب الانجليزى أطلب منه أن يمدنى بكميـة أخرى يسحبها باسمه من المصنع . وبعد أيام وصلتنى رسالة تقول إن شركة « جايجى » قررت أن تهدى إلىّ ألف حبة من « التاندريل » .

وجدت أن تلك الكمية أكبر من حاجتى ، خاصة وأن الكمية الأولى لم تكن قد نفدت بعد . وخطرت لى فكرة ارتحت لها كثيراً .

لماذا لا أشرك اخوانى المتألمين فى هذا الدواء انجانى ؟

اتصلت بالأخ كمال الملاخ ، وطلبت منه أن ينشر عن لسانى أنى متبرع بثلاثمائة حبة لعشرة من المرضى . ولم أكن أتوقع أن

أتلقى ذلك السيل الجارف من طلبات المتألمين سواء بالتليفون أو بالحضو ر. حتى أن كمال الملاخ كتب فى ٢٢ أكتوبر ١٩٦١ مقالا تحت عنوان كبير، «بيت أديب يتحول إلى مستشفى» جاء فيه أن ما تبقى لى من الألف حبة لم يزد عن سبعين!

المهم أنى خرجت من تلك العاصفة بفائدتين لا تقدران بمال. أولاهما أنى كسبت صداقة عائلة الدكتور فايق فهيم، الذى كانت السيدة زوجته تشكو من الروماتيزم، وكانت حبوب «التاندريل» رسول التعارف بيننا. والمكسب الآخر معنوى، وهو أنى أدخلت هذا العقار إلى مصر وأصبح الآن فى متناول الجميع ليخفف القيد عن اخوانى فى الألم.

ومن المضحك أنى شخصياً لا أجرؤ على تعاطيه الآن لأنه — مثل كل أدوية الروماتيزم — يهدد قرحة المعدة بالنزف.

إن كرم الدكتور فايق فهيم لم يقتصر على نقل معداته وعدساته ليجرى كشف نظارة بمنزلى، بل اصر على ان يهدى إلى النظارة كاملة.!

* * *

وعن طريق الدكتور فايق تعرفت على الأخ الدكتور أمين شاروبيم اخصائى الأمراض الجلدية والتناسلية من جامعات باريس، الذى زارنى بناء على دعوة من صديقه الدكتور فايق، ليعالج رأسى التى تقرحت من الخلف لالتصاقها بالوسادة ساعات طويلة. وعندما

مددت له يدى بأجر الكشف ، انتفض محتجاً، بل وعندما لم أجد الدواء الموصوف فى الصيدليات أهدى إلى زجاجة كبيرة منه . . ولم يكن ثمنها يسيراً .

ومنذ سنوات يضع الدكتور النبيل أمين شاروبيم خبراته فى الأمراض الجلدية فى خدمتى دون مقابل . .

* * *

ومن الشخصيات النادرة التى انضمت أخيراً إلى قائمة أصدقائى الطبية . . الأخت الحنون اخصائية العلاج الطبيعى السيدة سميرة المحروق . . التى تفضل أن يناديها الناس بلقب « الحاجة » ، فقد أدت فريضة الحج ست مرات . وتنتظر ان تتيح لها « القرعة » فرصة الحجة السابعة . إنها أيضاً إحدى رسل الرحمة لتخفيف آلام البشرية .

عرفتها بعد إصابتى بشلل نصف الوجه ، عندما وصف لى الطبيب علاجاً بالتدليك والكهرباء . ورغم انشغالها فى عيادتها الكاملة المعدات ، فقد كانت تحضر إلى منزلى بعد موعد العيادة مضحية براحتها ووقتها لتقوم بتدليك وجهى وتنبيه عضلاته بالكهرباء . بعد أن نقلت الجهاز الخاص إلى منزلى . وبهذا وفرت على متاعب الانتقال إلى إحدى المستشفيات . وكلما حاولت أن أحاسبها على الأتعاب ، كانت تمهلنى حتى يتم العلاج . .

وعندما رأى الطبيب أن التقدم بطىء نحو الشفاء ، أمر بزيادة

قوة الجلسات الكهربية من خمسة مللى أمبير إلى ثمانية مللى أمبير .
وعندما نقلت هذه التعليمات إلى الحاجة سميرة ، أبدت دهشتها الشديدة ، ولم تخف عنى خشيتها من تفاقم الحالة . وأشهدت علىّ والدتى بأنها غير مسئولة عن العواقب السيئة إذا ما نفذت تعليمات الطبيب .

تملكتنى الحيرة . . أيهما أصدق ؟ .. مهارة الطبيب الأخصائى المدرس فى كلية طب قصر العينى . . أم خبرة ثلاثين عاماً قضتها الحاجة سميرة فى العلاج الطبيعى بالتدليك والكهرباء ؟.. ولا أدرى لماذا انحزت فى النهاية إلى رأى الطبيب .. ربما لأن رأيه كان يعنى الوصول إلى نتيجة سريعة فى العلاج . .

وبعد شهور .. وقع المحظور .. وتحققت مخاوف الحاجة سميرة التى طالما أنذرتنى بها . . وانحرف وجهى إلى الجهة اليمنى . . لشدة تأثير الصدمات الكهربائية على العضلات المشلولة .

عاتبتنى الحاجة سميرة على عنادى . . فى غير تشف أو شماتة . وقالت فى حنان :

— ولو . . لن أتخلى عنك . . وسأظل معك بإذن الله إلى أن يعود وجهك إلى ما كان عليه .. ولو أن هذا سيتم بالتدريج البطىء ..

وقد مضى أكثر من عام ، والحاجة النبيلة لا زالت تباشر علاجى بالتدليك من وقت لآخر ، ودربت الأخت نعمات على تدليك وجهى فى فترات انشغالها القهرى . وهى بعد هذا لم تتقاض

قرشاً واحداً مقابل كل خدماتها الجليلة حتى الآن . وتعتبر مجرد إلحاحي لدفع أتعابها . . إهانة لصداقتنا الأخوية الوطيدة . . التي امتدت إلى أفراد عائلتي .

* * *

هذه نماذج إنسانية مشرقة، منحتني إياها عدالة السماء حتى تعوض بعض ما أفسده الدهر . إنهم على اختلاف تخصصاتهم يشكلون مستشفى كاملا ، يمنحني أطباؤه الحب الصادق .. قبل الرعاية الطبية.. دون أي هدف أو مقابل . .

والعجيب أن وضعي الحالي لا يوحي باحتياجي المادي ، أو عجزي عن دفع أجورهم .. حتى يتطوعوا بعلاجي مجاناً . لكنها الصداقة والحب المتبادل في أسمى صوره ، والإحساس العميق برسالة الطبيب في تخفيف آلام البشر . إنهم نماذج نادرة في هذا العصر . لكنها — على ندرتها — تؤكد أن الدنيا ما زالت بخير .

* * *

وفي حياتي نماذج أخرى مشرقة في ميدان الطب ، وفي ميادين حيوية مختلفة . وعلى رأسهم الصديق الحميم الأخ عدلي فرج المحامي. وهو شعلة من الذكاء والنشاط والعاطفة . يعاتبني بشدة إذا تصرفت في مشاكلي القانونية دون أن ألقي بها على كاهله الوفي ، وهو بعد هذا يهوى الشعر والأدب ، وله فيهما محاولات ناجحة ، لكن ولعه بالقانون شغله عن الاستمرار في هذا الطريق .

ومن أقرب الأصدقاء المخلصين إلى قلبي ، أخي وجاري سيد محمود ، الذي يجند نفسه دائماً لمساعدتي على تصريف أموري خارج البيت وداخله . فهو يرحب متطوعاً لشراء احتياجاتي في سماحة وكرم ، ويساعدني في مراجعة كتبي حينما أحتاج إلى زميل يقرأ معي النص أثناء تصحيحي للنسخ المطبوعة . وأحياناً يكتب لي بعض ما أمليه عليه حينما تعيقني القيود عن الكتابة بنفسي . إنه نموذج ممتاز للصديق الخدوم المتفاني في الوفاء لأصدقائه . ومما يزيد من انتفاعي بخدماته أنه يسكن الطابق الأعلى من منزلي ، مما يجعله يخف إلى نجدتي في الوقت المناسب .

سكرتيرة متطوعة :

كذلك أحاطتني العناية الإلهية بمجموعة من الصديقات الوفيات اللاتي يتطلعن إلى إسعادي بشتى الوسائل . ويتطوعن لتقديم خدماتهن في كرم وإيثار ، مشوب بأمومة غريزية حانية رغم أني أكبر منهن سناً .

وفي مقدمة هؤلاء الصديقات النبيلات ، الأخت الإنسانة «آمال» ، التي خصصت جزءاً كبيراً من وقتها لمساعدتي ، وكرست لي معظم جهدها لتخفف عني بعض أعبائي . وقد أرسلتها لي عناية السماء عندما تراكمت احتياجاتي بحيث أصبحت نعمات تعاني إرهاقاً شديداً

إذا ما تكفلت بها وحدها . وعندما تكون الأخت نعمات خارج البيت لقضاء بعض أعمالى لدى الجهات التى أتعامل معها ، أو لشراء بعض مطالبى ، حينئذ يصبح دور الأخت آمال رئيسياً ولازماً . خاصة بعد أن تمرنت على رعايتى التى تحتاج إلى خبرة طويلة . وبهذا أصبحت بفضل السكرتيرة المتطوعة لا أعانى من القلق والخوف من أن تدهمنى حاجة ملحة فى غياب نعمات . الذى كان يترتب عليه أيضاً تعطيل جانب من عملى عندما أحتاج إلى أوراق معينة، أو كتاب، أو ملف، أو أدوات لا يعرف مكانها إلا نعمات. أما الآن فالأخت آمال تعرف خبايا دواليبى وأدراجى ومكتباتى ، فتسارع لنجدتى سواء فى غياب نعمات أو وجودها .

ومما ييسر المهمة الإنسانية التى تقوم بها الأخت آمال فى حياتى ، أنها تسكن قريبا من بيتى ، ومن السهل أن استدعيها فى دقائق . وقد دفعها قلبها الكبير إلى أن تتعلم النسخ على الآلة الكاتبة خصيصاً لترفع جزءاً من العبء عن كاهل نعمات . كذلك التحقت بمدرسة ليلية لتنمى لغتها الإنجليزية حتى تستطيع أن تساعدنى فى مراجعة إنتاجى المترجم ، بدلا من آلة التسجيل الصماء ، فتوفر لى وقتا ثميناً أصرف فيه أموراً أخرى . ومن أهم ميزات آمال .. خط يدها ، فإنه من أجمل وأوضح وأنظف الخطوط التى صادفتنى فيمن ساعدونى فى كتابة ما أمليه عليهم ، وتكاد تكون الوحيدة التى لا يحتاج خطها إلى

مزيد من التوضيح والمراجعة رغم وسوستى فى توخى الدقة المتناهية فى مراجعة مخطوطاتى أو مخطوطات الآخرين .

ولم تتوقف خدمات الأخت آمال عند حدود أعمالى الأدبية فحسب ، بل تعدتها إلى احتياجاتى الخاصة، وفى مقدمتها « بلوڤراتى» وهى أرديتى الشتوية المفضلة . فهى تحتكر صناعتها منذ سنوات وتضفى عليها من فنها الرائع مزيداً من الأناقة التى أختال بها على أبنائى الشبان .

وقد يتساءل البعض عن سر هذا الإهتمام الذى يدفع إنسانة كالأخت آمال إلى التفانى فى مساعدتى ، عن رغبة أكيدة صادقة . وفى الواقع أن هناك عدة عوامل ساعدت على انصهار هذه الشخصية النبيلة فى بوتقة الحياة ، لتخرج منها فى النهاية هدية ثمينة تخفف من قسوة قيودى ، وترفع عن كاهل نعمات ما يزيد عن طاقة البشر .

أول الدوافع أن آمال ذات ميول أدبية ، تقرأ بغزارة ، ولها محاولات فى التأليف تمارسها فى شكل مذكرات ممتعة قد تفتقر إلى مزيد من التنقيح والصقل ، لكنها عامرة بالأحاسيس الإنسانية الجياشة ، يدرك قارئها لأول وهلة أنها نابعة عن موهبة أصيلة.

والدافع الثانى أن فى حياة آمال مأساة هزت كيانها بعنف فى فترة من حياتها ، وتركت فى مشاعرها المرهفة أثراً عميقاً لا تمحوه الأيام ، رغم عبور المأساة بسلام . فقد أصيب إبنها الأكبر فى صغره بشلل الأطفال ، مما هدد مستقبله بالجدب والقيود . ومما زاد

لوعة الأم على فلذتها أن ظروفاً خاصة قاهرة منعتها من تمريض طفلها فى محنته العصبية ، فكانت تتمزق لهفة عليه دون أن يُسمح لها برعايته عن قريب . ومع أن رحمة السماء قد رفعت الغمة عن الأم وولدها . ورغم أنه أصبح الآن شاباً على أبواب الجامعة يفيض صحة وحيوية ، فما زالت الندبة فى قلب الأم تختزن رغبة دفينة فى اللاشعور ، ما لبثت أن وجدت متنفساً فى تمريضى ورعايتى ، متمثلة فى قيودى نموذجاً يعوضها عن خدمة إبنها عندما كان محتاجاً إليها فى فترة ما . . حتى بعد زوال المأساة .

والسبب الثالث أن الأخت آمال كانت تعانى من فراغ طويل بعد أن انفصلت عن زوجها بالطلاق، وانفصلت بالتالى عن أبنائها. ومن الطريف أنه مازالت تربطنى بطليقها علاقة طيبة ، وارتبط بصلة وثيقة بأبنائها الذين يعتبروننى أباً روحياً لهم، وأضعهم باعتزاز فى قائمة أبنائى الروحيين .

إن الأخت النبيلة آمال ليست هدية السماء لى وحدى ، بل الأخت نعمات أيضاً التى أصبحت فى وجودها تجد متسعاً من الوقت كى تلتقط أنفاسها بعد إرهاق دام عشرين عاما .

* * *

وإذا كانت الظروف قد حرمتنى من وجود أخى بجانبى، لإقامته بمقر عمله بالأرياف ، فقد عوضنى القدر بأبناء أختى الذين أصبحوا

الآن شباناً ناضجين . ثلاثة منهم فى المرحلة الجامعية . . وهم سامى وسمير وعدلى ، وإثنان فى المرحلةالثانوية . وهما فايز ومنير . وقد أصبحت أعتمد عليهم فى كثير من الخدمات ، سواء فى مشترياتى أو اتصالاتى الخارجية أو مشاركتنى فى إصلاحاتى وإنشاءاتى التى لا تنتهى داخل البيت ، أو فى تدليك عضلاتى الواهنة .وهم بعد هذا يشكلون هيئة سكرتارية متنوعة النشاطات ، تعرض خدماتها فى رضا وسعادة .

* * *

هكذا تجد — يا أخى القارىء — أن السماء لا تظلم أحداً . أليس فى كل هذه الأيادى الكريمة البيضاء ، والقلوب الكبيرة الوفية. أكبر تعويض عن قيودى ؟ . . إنه ولا شك تعويض منصف .

الانسان الآلى :

لم تعوضنى عناية السماء المنصفة بهذه الثروة الآدمية فحسب . بل وهبتنى فى الفترة الأخيرة ، وفى مايو ١٩٦٧ بالتحديد ، هدية ثمينة كنت أتلهف عليها منذ سنوات طويلة لتؤمن خدمتى عند المفاجآت الملحة ، أثناء غياب نعمات عن البيت . . .

لقد ذكرت من قبل أن نعمات هى الإنسانة الوحيدة التى تستطيع أن تنقلنى بمفردها من السرير إلى الكرسى المتحرك وبالعكس . ورغم أنه يوجد لدى تابع دائم ، وهو عادة يكون رجلا مفتول

العضلات ، إلا أنه لا يستطيع أن يخدمنى وحده فى هذه المهمة ، لذلك كنت محتاجاً دائماً إلى شخص آخر يعاونه .. فمن السهل على أى أثنين غير مدربين أن ينقلانى بسرعة إذا ما تعاونا على حملى. وليس من الميسور أن أستخدم تابعين فى بيتى. حتى ولو تيسر هذا فإنى فى الواقع لا أحتاج فعلا لخدمات شخص ثالث إلا فى ظروف خاصة نادرة . ورغم ندرتها فإن تأثيرها النفسى يرهق أعصابى بمنتهى القسوة . فإنى لا أتخيل أن تضطرنى الضرورة أن أذهب إلى دورة المياه فلا أجد من ينقلنى على الفور ! !

أخيراً عثرت على هذا الإنسان الثالث الذى يؤمن قلقى ضد المفاجآت ويشكل خط الدفاع الأخير لتأمين مخاوفى . إنه يؤدى مهمته بطريقة أضمن وأسهل من أى إنسان عادى، ثم هو لا يتقاضى أجراً ولا طعاماً . . كذلك يؤدى خدمات أوسع من مجرد نقلى إلى الكرسى. وذلك بمساعد أى شخص حتى ولو كان طفلا صغيراً، أو سيدة ضعيفة كوالدتى .

إنه إنسان آلى قمت بتصميمه ، وتم تنفيذه فى أحد المصانع الصغيرة. وإذا كان لفظ إنسان يطلق على الآدمى فقط، فقد جرى العرف على إطلاق الاسم جوازاً على أية آلة تقوم بعمل الإنسان .. ولا يلزم بالضرورة أن يكون لها شكل الآدمى. وبهذا نستطيع أن نطلق اسم « الإنسان الآلى » على الآلة الرافعة التى تحملنى بسهولة وضمان كامل ، وتتجه بى فى أى اتجاه من أعلى إلى أسفل أو من

اليمين إلى اليسار أو من الخلف إلى أمام .. كل هذا بحركات سهلة .. وإذا كان من المحتمل أن يتعثر الإنسان مهما كان قوياً أو مدرباً ، فإن تصميمي للجهاز الآلي لايدع أي احتمال للخطأ ، فإن حركاته يدوية إرادية ، وليس به محرك كهربائي أو بالوقود حتى لايتوقف عند انقطاع الكهرباء ، أو تلف الأسلاك أو نفاد الوقود .

والجهاز مبسط للغاية . فهو عبارة عن هيكل متين من الحديد يتحرك بأمان على أربع عجلات من المطاط المصبوب ، تتحرك فى جميع الجهات ، لأنها تدور حول نفسها على « رولمان بلى » وهذه العجلات لم أدفع فيها قرشاً ، فإنها عجلات السرير المتحرك التى قطعتها منه عندما تحايلت على اسقاطه داخل السرير الخشبي كما شرحت من قبل .

وللإنسان الآلى ذراعان تمتدان فوق السرير ، وتثبتان فى أربطة خاصة حول صدرى وفخذى ، ثم يحرك المساعد الآدمى يداً بمجهود بسيط فترتفع الذراعان وتعلقانى فوق الفراش، ثم يتحرك الجهاز كله مبتعداً عن السرير حوالى نصف متر .. حتى يجيء جسدى فوق الكرسى المتحرك . وهنا يحرك المساعد الآدمى ذراعى الجهاز .. كلا منهما على حدة ، فينزلنى برفق فوق الكرسى المتحرك..

ثم يتحرك الإنسان الآلى مبتعداً عن المكان ، ويستأنف الكرسى المتحرك رحلته إلى دورة المياه .. ثم تعاد هذه العملية بطريقة عكسية فى رحلة العودة . وقد تبدو هذه الحركات صعبة أو معقدة، لكنها فى الواقع لا تستهلك زمناً أكثر من الإنتقال العادى الذى يحتاج إلى منضدة ووسائد سميكة وعكازين ، مع فارق الأمان وعدم الألم .. وهو ما يتميز به الإنسان الآلى .

الأجهزة المعوضة :

وبهذا الإنسان الآلى استكملت مجموعة من الأجهزة تعوضنى عن جزء كبير من العجز الجسدى .. كان أولها الكرسى المتحرك الذى ينقلنى إلى دورة المياه ، فيشعرنى بأنى مازالت كائناً متحركاً .

ثم السرير ذو القاعدة المتحركة الذى يغير من وضع رقدتى الأفقية ، فينشط الدموية الراكدة، ويحد من ترسيب الحصيات فى الكليتين ، ويتيح لبصرى مجالا أوسع بعد ما كان نظرى معلقاً بسقف الحجرة .

ثم التليفون ، ذلك الصديق الأسمر الذى ألمسه بأصبع واحد، فيقتحم كل مكان ، ويحضر لى أى إنسان أريد محادثته . . سواء فى زيارة تليفونية،أو فى إنجاز عدة أعمال سريعة لا تستغرق دقائق فيوفر لى المجهود والوقت .

وكانت حركتى المقيدة لا تسمح لى بالتجول بين البرامج الإذاعية.

وكنت أحتاج إلى من يعاوننى فى تحريك مفاتيح الراديو الكبير . ثم جاء الترانزستور الرشيق ، فأصبحت أتجول بين البرامج المختلفة بلمسة واحدة من أصبعى ، وكأنى ساحـــر يقتحم الأجواء بالكرة البلورية .

لكن الموسيقى والأغانى والأحاديث التى أحبها لم تكن فى متناول مفتاح الراديو وقتما أريد ، فجاء جهاز التسجيل ، ليحتفظ لى بثروة من الأصوات التى تسعدنى وتنعشنى وتسلينى فى أى وقت أشاء .

أما التليفزيون ، فهو النافذة التى أطل منها على العالم ، فأرى أجمل ما فيه . ولو كرست حياتى للتجول بين أنحاء العالم لما رأيت كل هذه الأجواء ، والمناظر ، والفنون المختلفة ، والطبيعة فى أروع صورها . كما أتاح لى أن اتجول فى بلدى وأرى معالمها الحديثة وآثارها القديمة ، كما أغنانى عن زيارة دور السينما والمسارح والنوادى الليلية ، وكأنى جندت آلاف العاملين فى تليفزيونات العالم ليجلبوا إلى حجرتى أروع ما الدنيا الواسعة .. من متعة وثقافة وتسلية .

ثم جاء جهاز تكييف الهواء . فرحمنى من جحيم الصيف الذى كان يضاعف من قسوته فراشى المبتل بالعرق الساخن . فحوّل شهور السنة كلها إلى ربيع دائم ، وأغنانى عن المصايف والنزهة على

كورنيش النيل . مع الفارق ، فإن حجرتى تخلو من الأتربة والضجيج وحوادث الطريق والمناظر المؤذية . .

أليس فى حجرتى كل الاكتفـــاء الذاتى الذى يغنينى عن الخروج . . ؟

سبحانك يا إلهى .. منعت فبلوتنى بالشقاء ، ثم منحت فأجزلت لى العطاء .

* * *

من أرشيف الذكريات

من عاداتى منذ الطفولة أن أحرص على حاجياتى وأعتنى بها ، وقد ظللت أحتفظ ببعض لعب طفولتى ، حتى أهديتها إلى أبناء أختى . ومازلت أحتفظ بآلة التصوير التى اقتنيتها فى الثامنة من عمرى ، بعد أن أدخلت عليها بعض التحسينات ، والتقطوا لى صوراً بها فى سن الأربعين .

ولدىّ « البومات» مبوبة تحوى صوراً عديدة تسجل مراحل حياتى المختلفة ، ومن بينها « البوم » خاص يحوى أربعين صورة ، تمثل كل منها عاما من عمرى ، أسجلها فى يوم ميلادى ، أو بالقرب منه . وهى بمثابة شريط سريع يعرض تطورى الشكلى على مدى أربعين عاماً .

كذلك احتفظ بشهاداتى المدرسية فى ملف خاص .

وفى زاوية من مكتبتى القديمة مجموعة صغيرة من كتبى المدرسية وعليها تعليقاتى ورسوماتى منذ السنة الأولى الإبتدائية .

وفى زاوية أخرى صندوق كبير يحوى الرسائل الهامة ، وأسميه « صندوق الذكريات » . ولا أسمح لأحد بالاقتراب منه. حتى سكرتيرتى الأمينة . . نعمات .

واحتفظ بسجل خاص أدوّن فيه تواريخ الميلاد والزواج والوفاة ، لأفراد الأسرة جميعاً منذ الجد الأكبر . وهو مرجع دقيق لأبناء الأسرة ، ومصدر إزعاج لبعض السيدات اللاتى يكرهن حديث الأعمار .

أما إنتاجى فى الرسم فاحتفظ به فى حقيبة خاصة ، منذ أن كان خطوطاً بدائية ساذجة . أما الجديد فيأخذ مكانه على الجدران ، حتى يصيبنى منه الملل ، فيحتل مكانه من الأرشيف ، ليفسح الطريق أمام الرسوم الجديدة .

كذلك أحتفظ بالأصول الخطية لجميع مؤلفاتى ومترجماتى . وأفرد لها أحد الادراج فى دولاب المحفوظات ، حيث تصطف فى أكوام مرتفعة من أفرخ « الفلوسكاب » ، وكلما تطلعت إليها فى اعتزاز ، أكاد أنكر أنى ملأتها كلمات بسن قلمى وذوب فكرى .

هذا عدا أرشيف ضخم يحوى عشرة ملفات « كلاسيرات » تضم كل أوراقى الرسمية والمالية والإدارية ، والفواتير والإيصالات

والعقود ، والتقارير ، والتذاكر « الروشتات » الطبية . . إلى غير ذلك من الأوراق الهامة التى قد تهم مصلحة الضرائب، أو احتفظ بها على سبيل التذكار والتذكرة .

وكان طبيعياً والأمر كذلك ، أن احتفظ بدولاب خاص يخص بالمطبوعات الشخصية . قسم منه يحوى نسخاً من كتبى المؤلفة والمترجمة والمجلات التى أصدرتها . وقسم آخر يحوى الجرائد والمجلات التى نشرت فيها إنتاجى المتفرق . وقسم ثالث يحوى الصحف والمجلات التى تضم التحقيقات المصورة التى نشرت عنى . أما الأخبار القصيرة التى لا تزيد عن صفحة ، فأحتفظ بها ملصقة على أفرخ من الورق ، يضمها ملف كبير « كلاسير » ، وتحت كل قصاصة منها التاريخ واسم الصحيفة . . وهذ أسميه . . . أرشيف القصاصات . أما أحاديثى ومناقشاتى الإذاعية ، وبعض تمثيلياتى وقصصى المذاعة ، فهذه أحتفظ بها مسجلة على أشرطة .

ومن جملة هذه الذكريات المدونة والمسجلة استقيت بعض الفقرات والتواريخ الدقيقة التى ذكرتها فى هذا الكتاب .

ولعلك — ياأخى القارىء — لاتمانع فى أن أدعوك إلى جولة سريعة بين الذكريات . فقد نجد فيها شيئاً من الطرائف أو العبر تختم بها جولتك الطويلة عبر حياتى . . .

والآن . . . لنبدأ بمكتبتى . . .

إن الكتب فى حياتى ثروة أعتز بها . . بل أقدسها ، فهى أساتذتى

وأصدقائى ، والنبع الصافى الذى استقى منه المعرفة . لهذا أفردت لها خمسة دواليب تضمها بحنان ، وحرصت على تغليف الكتب القيمة منها بالمشمع والجلد ، وخصصت لوناً لكل مادة على حدة. فالكتب الأدبية والروائية غلافاتها خضراء . والكتب العلمية غلافاتها بنية اللون . أما كتبي الخاصة التى تضم مؤلفاتى ، فهى تتصدر الدولاب الرئيسى فى غلافات حمراء فى لون النبيذ .

أما الموسوعات والمعاجم والقواميس والكتب السماوية « التوراة ، والإنجيل ، والقرآن » فقد جمعتها فى دولاب خاص بغرفتى حتى تكون فى متناول يدى ، فكثيراً ما ألجأ إليها .

ولعلك يا أخى القارىء — لا تدهش الآن بعد أن عرفت عنى الكثير ، إذا ما تصفحت عناوين الكتب فوجدتها خليطاً متناقضاً ، فهى تعبر بصدق عن شخصيتى النهمة إلى المعرفة المتنوعة ، المؤمنة بالمنهج العلمى فى شتى نواحى الحياة . . حتى فى الهوايات : فبجوار الكتب الأدبية التى تمثل الأغلبية بلونها الأخضر ، تجد مجلدات متخصصة فى تربية الدواجن ، وتدريب الكلاب ، ولعبة الشطرنج . وتجد جناحاً كبيراً يختص بعلم النفس ، والاجتماع ، والفلسفة ، إلى جانب مجموعة الغيبيات والميتافيزقا ، كقراءة الكف ، وتحضير الأرواح ، والتنجيم ، واليوجا . كما تحتل كتب الطب والجنس جزءاً كبيراً من رفوف المكتبة . أما الكتب الفنية فهى قليلة ، فقد تعلمت

الرسم بالتقليد والممارسة والتجربة ، أكثر مما تعلمته عن طريق التلقين والكتب ، فيما عدا كتيبات « كلية لندن للفن » ومجموعة كبيرة من المجلات واللوحات الفنية .

أما كتبي الأجنبية فمعظمها بالإنجليزية ، ولا تخرج مضامينها عن الأدب والقصص ، وعلم النفس ، والسير الذاتية ، والطب .

ولا تخلو مكتبتي من بعض الكتب العلمية العميقة التي تشرح النظريات العالمية الهامة . مثل النظرية النسبية لأينشتين ، ونظرية الوراثة لمندل ، ونظرية النشوء والارتقاء لداروين .

وهذا الكتاب الأخير هو الذي سنتوقف عنده قليلا . .

داروين والإلحاد :

من الكتب القيمة التي قرأتها في فجر شبابي ، هذا الكتاب الذي كتبه الأستاذ سلامه موسى ، يشرح فيه نظرية التطور ، أو النشوء والارتقاء ، هذه النظرية التي استطاع داروين أن يقنع بها كثيراً من العلماء ، بأن الإنسان وليد الصدفة ، وليس من صنع الله . وأثبت فعلا بالأدلة العلمية المقنعة أن الإنسان والقرد أبناء عمومة . ولم يكتف بهذا النسب غير المشرف ، بل تراجع بالإنسان إلى أشكاله المتطورة عبر التاريخ ، حتى أثبت أنه كان خلية واحدة تعيش في الماء .

ولست هنا بسبيل شرح نظرية داروين ، أو التقليل من شأنها

فإنى فى الواقع لا أنكرها ، لكنها فى فترة ما من حياتى هزت إيمانى بعنف ، وشككتنى فى وجود الخالق عز وجل ، فإذا كان الإنسان لا يعدو أن يكون خلية متطورة ، فأين هو دور الخالق إذن ؟

وقد تصادف أنى قرأت هذه النظرية لأول مرة فى أحلك فترة من حياتى ، حين كنت أزحف عند نقطة الصفر بين المرض والفقر والخواء ، ووجدت روحى المتمردة فى هذه النظرية متنفساً للضغوط النفسية التى كنت أعانى منها ، فانحدرت بقوة نحو الإلحاد ، حيث صور لى غرورى أنى توصلت إلى سر الحياة !

وبدأت بدورى أصوغ نظريات ملحدة متمردة ، وأدعو لها بين المحيطين بى . كنت أحاول أن أثبت عدم وجود الله بمعادلة منطقية ، أدعمها ببرهان ساذج من وحى ظروفى الفردية الخاصة .

كنت أبدأ بالتساؤل البرىء . هل الله موجود أم غير موجود ؟

وقبل أن يحتج محدثى أسرع بتهدئته ! فأفترض أنه موجود . ثم أسترسل فى الإستنتاج فأقول : « إذا كان موجوداً . . فلابد أن يكون منزهاً عن الظلم . وإذا كان عادلا لما سمح لنفسه بأن يسلبنى كل شىء . من صحة وحرية ومال وعلم وزوجة وأولاد . . دون إثم إرتكبته . . بينما يغدق كل شىء على إنسان شرير يعيث فى الأرض فساداً . إذن فالقوة المسيطرة على مصائرنا ليست

عادلة، ولا يجوز بداهة أن يكون الله ظالماً . إذن فالله غير موجود !!!

أستغفرك يا إلهى . . كم كنت ضيق الأفق بهذا المنطق المغالط، وكم كنت جاهلا عندما ظننت أن عدالتك قد تخلت عنى إلى الأبد . ولكن . . كيف كان لى أن أعلم أنك تدخر لى هذا الخير العميم يا أعدل العادلين ؟

وكان طبيعياً بالنسبة لإنسان عقلانى مثلى ، ألا يكف عن التفكير والتأمل والاستدلال . ومع الوقت كانت هذه العوامل ذاتها هى التى عادت بى ثانية إلى شاطىء الإيمان بعد ما قادتنى من قبل إلى التمرد والالحاد .

ومع إقتناعى بالجانب العلمى من نظرية داروين ، فقدأدركت أنها تفتقر إلى حلقة مفقودة ، حتى لو كان الإنسان أصله « أميبا » حقيرة ، فإنه يحتاج إلى خالق يبعث الحياة فى هذه الخلية الحية ، ومن عهد داروين حتى الآن لم يتوصل العلماء فى العالم كله إلى خلق خلية حية داخل المعمل ، رغم إستماتتهم فى هذه المحاولات .

إن الإيمان الموروث يسهل انهياره ، أمام صراع النفس القلقة المتمردة . أما الإيمان الناتج عن تجربة واقتناع فهو راسخ أكيد لا تزعزعه الاضطرابات النفسية، فهو حينئذ يكون كالحقيقة العلمية التى أكدتها التجارب المعملية ، تقنع أى إنسان فى أى مكان ، ومن جميع الأديان .

هكذا بالعقل وحده آمنت بالله . إيماناً لاتزعزعه الأحداث ولا تشككني فى وجوده قسوة الحياة ، إنها حقيقة ساطعة تنير قلبي ووجدانى ، وتملأ نفسى ثقة بالعدل الالهى فى أسمى صوره .

وفى كلمات بسيطة أستطيع أن ألخص استدلالى المنطقى على وجود الله . . كما اقتنعت به . . فأقول :

بما أنى موجود ، فلابد أن هناك من أوجدنى ، والذى يستطيع أن يوجد إنساناً عاقلا ، لابد أن يكون أكثر عقلا وأسمى تكويناً . هذا العقل الأسمى ، ذو القوة الخالقة ، هو الذى خلق الإنسان فى صورة رائعة يعجز أهل الارض جميعاً عن تقليد أصبع منه ، فما بالك بأجهزته الدقيقة كالقلب أو المخ أو الكلى .

حتى لو بلغنا قمة التفاؤل، وتصورنا أن العلم البشرى فى المستقبل البعيد استطاع أن يخترع هذه الأجهزة ، فكيف يستطيع أن يبعث فيها الحياة ؟ ولماذا ننتظر علماء المستقبل.. فلنسلم علماء اليوم إنسانا كاملا سليم الأعضاء كامل التكوين، ولكن بعد أن تفارقه الروح بلحظات . . . فهل يستطيعون جميعاً أن يجعلوا شعرة واحدة تختلج فى جسده الهامد ؟

تلك القوة القادرة العاقلة العادلة هى التى أؤمن بوجودها . وإذا كنا لانراها — لعظمتها وقصورنا — شيئاً مادياً ملموساً ، فهذا لا ينفى وجودها . ويكفى العاقل أن يراها فى آثارها المادية الواضحة . إننا مثلاً لا نرى الطاقة الكهربائية، لكننا نلمس أثرها

فى تحريك الآلة الصماء، فندرك أن وراء الحركة طاقة قادرة، وإن لم ترها أعيننا .

* * *

والآن لنترك داروين ونظريته ، لنكمل جولتنا فى أرشيف الذكريات . ولنتوقف قليلا أمام صندوق كبير من الورق المقوى . إنه غاص بالرسائل المختلفة الأحجام والألوان والخطوط . لن تتسع جولتنا السريعة لقراءتها جميعاً رغم أن كلا منها تحمل ذكرى عزيزة .. ولنقنع بتصفح بعض هذه الرسائل الزرقاء القابعة فى ركن الصندوق وقد أحاط بها شريط حريرى رفيع .

الرسائل الزرقاء :

إنها ستون رسالة من حجم ولون واحد ، لا يشذ عنها غير مظروف كبير أصفر يحوى صورة كبيرة لصاحبة الرسائل الزرقاء . تلك الإنسانة النبيلة الحنون ، التى دخلت حياتى مع أول رسالة زرقاء ، وغادرتها مع الرسالة الستين . وبين الرسالة الأولى والأخيرة قضيت خمسة شهور من أحلك أيام حياتى ، قامت خلالها صاحبة الرسائل الزرقاء بدور إيجابى فى تخفيف الضغط عن أعصابى المرهقة .

إنها الشهور الخمسة التى قضيتها فى لندن، حيث كان الألم واليأس يزيدان من إحساسى بالوحشة والحنين إلى أرض الوطن . وكنت

أتلهف على رسالة تحمل إلىَّ أخبار بلدى وأهلى وأصدقائى، وأترقب الساعة التاسعة من كل صباح ، حيث تمر رئيسة الممرضات بخطواتها السريعة عبر الممر الطويل، وهى تحمل البريد إلى المرضى ، فإذا ما عبرت حجرتى دون أن تلجها ، أحس بغصة تقبض قلبى . وأحياناً كانت تحمل إلى رسالتين أو ثلاث ، وغالباً ما كنت أجد بينها إحدى الرسائل الزرقاء .

وقد لفت اللون الأزرق المتكرر انتباه « المستر رايس » ، فكانت تبتسم وهى تلوح بالرسالة فى حركة ذات معنى ، فلا أخفى فرحتى وأنا ألتقطها منها بلهفة وشوق . وأحياناً كانت الرسائل الزرقاء تتلكأ فى البريد ، فلا يفوت « المستر » اللماحة أن تواسينى وتبدى أسفها لاختفاء اللون الأزرق من بين رسائلى . ولكن سرعان ما تتضح براءة صديقتى من تهمة التأخير أو الدلال ، عندما تهل علىَّ « المستر » فى صباح قريب وهى تحمل لى مع بسمتها العريضة رسالتين معا يصبغهما اللون الحبيب الوفى .

وصلتنى رسالتها الأولى فى القاهرة قبل سفرى إلى لندن بأيام. وفى كلمات رقيقة قدمت لى نفسها . . إنها فتاة فى السابعة والعشرين من عمرها ، تعمل بالتدريس فى مدرسة إعدادية بإحدى عواصم الصعيد ، تهوى الأدب ، وتكتب الشعر ، وتنشر بعضه بالمراسلة فى إحدى المجلات التى كانت معروفة حينذاك . وفى بساطة وبراءة

عرضت عليّ صداقتها الأخوية بالمراسلة ، على أن أزودها بعنوانى فى لندن .

للأسف لم يتسع وقتى للرد عليها فى تلك الدوامة التى سبقت السفر ، ثم نسيتها فى غمار طوفان الصداقات التى غمرتنى فى تلك الفترة الخصبة من حياتى .

وفى لندن طالعتنى رسالتها الزرقاء ضمن البريد ، تعاتبنى فيها برقة ، لأنى لم أرد على رسالتها الأولى ، ثم تلتمس لى العذر فى سماحة وكرم ، تقديراً لظروفى . وعرفت أنها طلبت عنوانى فى لندن بالتليفون من والدتى بالقاهرة ، ثم ختمت رسالتها المرحة بقولها : إذا كنت ترغب حقا فى صداقتى وترحب برسائلى ، فإنى على استعداد لأن أكتب إليك دائماً ، دون أن أكبدك عناء الرد . لكنى فقط أنتظر منك كلمة صغيرة توقع بها على معاهدة صداقتنا . وبعدها فلن تنقذك من رسائلى أية قوة فى الوجود » .

شعرت بأحاسيسها النبيلة بين سطورها ، وأسعدنى أن أعـ على صديقة من وطنى تكتب لى دائماً دون أن تنتظر الرد . فإن من أصعب الأمور على نفسى أن أكتب رسالة إلى إحدى بنات حواء . . حتى ولو كنت أضمر لها الود الخالص . فإنى أخشى أن تقع الرسالة فى يد خشنة من ذويها ، فأتسبب فى أذاها . لهذا أحرص على أن تكون ألفاظى متحفظة جامدة ، مما قد تسىء صديقتى معناها . ومن النادر أن تستمر إنسانة فى الكتابة إلى شخص

ما دون أن تتلقى صدى لكلماتها ، حتى لا تشعر بأنها كالمجنونة التى تحدث نفسها .

لهذا رحبت بصداقة صاحبة الرسالة الزرقاء ، وكتبت لها رسالة مقتضبة أرحب فيها برسائلها . وكنت فى الواقع لا أثق كثيراً فى وعدها الحاتمى . لكنها كانت صادقة فى حماسها ، فأوفت بالعهد ، وأخذت تكتب لى رسائل مطولة ، وكانت تصلنى منها المظاريف الزرقاء بمعدل ثلاث مرات أسبوعياً ، تحوى بداخلها كل ما تيسر لها أن تكتبه فى فترات خلوتها بعيداً عن أعين الرقباء المتزمتين .

كانت تتحدث على الورق فى بساطة وانطلاق ، دون تحذلق فى الأسلوب ، رغم تمكنها من التعبير السليم . كانت تقول أى شىء بلا كلفة ، كأنها تعرفنى منذ عشرات السنين . تحكى عن نشاطها الأدبى والصحفى الذى كانت تمارسه بالقاهرة خلال أجازتها الصيفية ، وتصف لى الأماكن التى زارتها ، والأشخاص الذين قابلتهم ، وتلخص لى أخبار الوطن . . كلها أحاديث أخوية بسيطة ممتعة تضفى عليها الكثير من مرحها البرىء وأسلوبها المهذب ومشاعرها الودية .

مضى شهران . . وثلاثة . . دون أن تيأس أو تمل أو تنقطع ، ثم بدأت تتساءل فى قلق . . « ترى ماذا تقول عنى . . ؟ . . هل أثقل عليك بأخبارى المفصلة التى لا تعنيك فى شىء ؟ . . ترى هل

تقرأ رسائلى. أم أنك تمزق المظروف الأزرق الذى مللت ثرثرة صاحبته؟ . . ليتنى أعرف رأيك . . ليتنى أعرف أن رسائلى تعنى شيئاً بالنسبة لك . . لظللت أكتب إليك طول العمر . . »

لم أحتمل تساؤلاتها القلقة المتكررة، ولم أشأ أن أتركها نهباً للحيرة واللهفة. ولكن . . كيف أكتب لها رأيى الصريح، وأنا أعرف أنها تقيم بين أهل متزمتين . وأحسست برغبة طاغية فى أن أكتب إليها مؤكداً سعادتى برسائلها الرقيقة الحانية ، التى أصبحت شيئاً هاماً فى حياتى لا غنى عنه .

أخيراً جاءنى الحل عفواً فى إحدى رسائلها، التى أبدت فيها تشوقها إلى معرفة أخبارى ، بعد أن ترددت فى الصحف أخبار العملية الفاشلة . واستأذنتنى فى أن تتصل بأهلى تليفونياً من وقت لآخر، حتى تطمئن على تطورات حالتى الصحية ، إذا لم يكن فى تكرار إتصالها ما يضايقهم .

أسرعت أكتب إليها مؤكداً ترحيب أهلى باتصالاتها التليفونية. وفى نفس الطائرة التى حملت هذه الرسالة إليها، كانت توجد رسالة أخرى إلى الأخت نعمات ، أخبرها فيها بحكاية صديقتى ، وأطلب منها الترحيب بها والسعى إلى لقائها ، ولو فى مكان عام ، إن لم تقبل الدعوة إلى بيتى فى القاهرة . ومع رسالتى إلى نعمات كانت ترقد رسالة أخرى مغلقة أطلب توصيلها إلى صديقتى النبيلة .

كانت رسالتى إليها تملأ ثمانى صفحات ، اودعت فيها كل

عواطفي المكبوتة التي شحنتها الرسائل الزرقاء طوال ثلاثة شهور. وأجبت فيها على كل تساؤلات صديقتي القلقة . وبكل ما أكنه لها من عرفان بالجميل اندفعت في عواطفي الجياشة في صدق وانطلاق .

كانت رسائلي المنفعلة بمثابة القذيفة التي نسفت جدار التحفظ في عباراتها ، فبدأت تكشف عن عواطفها ، وتحررت كلماتها من قيود التردد ، وتراجعت أساليب التلميح ، لتفسح المجال لعاطفة صريحة جياشة ، لم يسعني إلا أن أتجاوب معها دون روية بعد أن وجدت في نعمات رسولاً أميناً يحمل رسائلي إليها .

وعندما اقترب موعد عودتي إلى أرض الوطن ، إرتفعت حرارة الشوق للقاء السعيد ، بعد تلك الصداقة الوطيدة على الورق. ورحنا نتخيل اللقاء . . وكيف سيقدر له أن يكون .واتفق تقديرنا معاً إلى أنها ستقرأ خبر وصولي في جرائد الصباح ، فتسرع إلى لقائي عبر أسلاك التليفون . ثم تتساءل في إحدى رسائلها الأخيرة : « ترى هل ستميز صوتي ضمن عشرات الأصوات التي سوف تتواثب إليك من سماعة التليفون لتهنئك بسلامة الوصول ؟ » .

وأسرح بخيالي في ذلك الموقف الرومانسي الفريد . فأكاد أجزم بأن صوتها لن يختلط في سمعي مع باقي الأصوات..ولاشك أني سأميزه فوراً . . رغم أني لم أسمعه من قبل .

وقد كان . . فرغم ظروفي النفسية العصيبة في ذلك اليوم ، إذ

بصوتها الحالم الهامس ينتزعنى من أشجانى ، فهتفت أرحب بها فى فرحة صادقة. وجاءنى صوتها مرتعشاً متهدجاً تهنئنى بسلامة الوصول. هتفت فى لهفة : « أريد أن أراك فى أقرب وقت .. الآن .. حالا »

قالت فى تأثر:

— آسفه .. .. لن أستطيع ...

— لماذا . ؟

ومن خلال كلماتها الباكية ، عرفت أنها لم ترض أن تزورنى دون علم أهلها . وشاءت أمانتها أن تستأذن منهم . وفى تعنت صارم حظروا عليها زيارتى ، ولم يسمحوا لها بالخروج قبل أن تقسم على احترام رغبتهم .

بقدر ما خاب أملى فى لقائها ، فقد أسعدنى احترامها لقسمها ، وتظاهرت بالشجاعة والصبر متمنياً أن يكون اللقاء قريباً ، وقبل أن تتحقق الأمنية ، حان موعد سفرها لاستلام عملها بعد انتهاء الإجازة الصيفية .

وعادت تراسلنى من عملها . فأجيب رسائلها فى حرية وصراحة دون خوف من رقيب . الواقع أن إحساسى نحو هذه الفتاة النبيلة لم يتسم بطابع الغرام العنيف ، رغم تعلقى بها ولهفتى على لقائها . كان شعورى نحوها مزيجاً من التقدير والإعجاب والتفاهم والتعاطف ... فقد عرفت كل شىء عن حياتها وخلجات نفسها من خلال رسائلها الطويلة، وتمنيت بحق أن تربطنى بها علاقة خالدة ،

بل فكرنا فعلا فى تتويج صلتنا بالزواج .. لا عن رغبة شهوانية ، أو نداء جسدى . فإننا لم نطرق هذه الموضوعات خلال رسائلنا ، ورغم أننا تحدثنا فى كل شيء .. حتى التفاهات . ولعل تفكيرنا فى الزواج لأنه أضمن وسيلة تجمعنا إلى الأبد .. حيث يتفانى كل منا فى خدمة الآخر وإسعاده .

بعد سفرها بأسابيع إلى مقر عملها ، توالت الأحداث فى سرعة وإثارة . فقد تقدم لخطبتها أحد أقربائها . ووافقت عائلتها فى حماس تضاءلت بجانبه أعذارها فى الرفض . إستنجدت بى أن أفعل شيئاً . وماذا كان بوسعى أن أفعل ؟ كان موقفى ضعيفاً بجانب ذلك الخطيب الذى لا ينقصه شيء من مسوغات الزواج . بينما كان مركزى المالى ما زال يحبو فى أول الطريق ، بالإضافة إلى قيودى الجسدية . فرأيت أن أكون واقعياً، ولا أجعل أنانيتى تضيع عليها فرصة الاقتران بذلك الزوج المناسب ، خاصة وأنها كانت قد وصلت إلى السن التى تتضاءل فيها فرص الزواج .

ولما كانت علاقتنا أسمى من الجنس ، فقط إستطعت أن أقنعها بقبول الزواج على أن تبقى صداقتنا الأخوية العفيفة،التى لم تدنسها كلمة عربيدة أو آهة حارة ، أو لمسة طائشة . وكان من الطبيعى أن تصارحه بعلاقتنا البريئة ، فأبدى روحاً طيبة ، ولم يعارض فى إستمرار صداقتنا، طالما كنا نمارسها على الورق ، لكنه كان فقط يتظاهر بإتساع الأفق حتى يتمكن منها ، فبمجرد إتمام عقد

القران .. بدأ يتذمر ويبدى غيرته من علاقتنا ورسائلنا .. التى لم نكن نمانع فى إطلاعه عليها . لكنها لم تستسلم لمناوشاته ، وأنذرته برفع راية العصيان ، وعدم إتمام الزفاف ، إذا أصر على حرمانها من أخيها الروحى .وفوجئت يوما برسالة منه . كان أسلوبه مهذباً وهو يمتدحنى ، ويؤكد ثقته بى وتقديره لأحاسيسى الأخوية نحو الإنسانة التى أصبحت فى حكم زوجته .لكنه كرجل شرقى لا يؤمن بالصداقة بين رجل وإمرأة ، مهما كانت نظيفة سامية . ثم رجانى فى مزيد من الرقة أن أضحى بهذه الصداقة . وإستنجد بانسانيتى أن أبدأ بالقطيعة ، ولا أرد على رسائلها ، وأدعها تتفرغ لزوجها وبيتها وأولادها . . بإعتبار ما سيكون .

كان الموقف لا يحتاج إلى أى تردد . إن واجبى يحتم على أن أبتعد عن هذه الإنسانة العظيمة ، وأدعها تعيش فى سلام . أسرعت أكتب إليه مؤكداً أنى سأستجيب لرغبته ، وأنى أبارك زواجه بتلك الفتاة الشريفة التى لم تدنس علاقتى الأخوية بها هفوة واحدة تنتقص من قدرها كزوجة وفية جديرة بثقته واحترامه .!

لكن .. لم يطاوعنى قلبى على أن أقطع علاقتى بها بالطريقة المخجلة التى إقترحها . فبعثت إليها رسالة أخيرة . . كتبتها بنزف قلبى ، وحاولت أن أقنعها بالقطيعة دون أن أجرح مشاعرها الرقيقة . وقلت لها إن أخوتنا الخالدة يمكن أن تستمر أيضاً دون مراسلة كما إستمرت من قبل دون لقاء . وإنها ستعرف أخبارى من متابعة

إنتاجي فى الجرائد والكتب ومختلف وسائل الإعلام . أما أنا فيكفيني أن تصلني منها كل عام بطاقة معايدة فى رأس السنة . . فأعلم أنها بخير .

لا أدرى لماذا طلبت منها هذه البطاقة السنوية . ربما خشيت أن أفقد هذا القلب الحنون إلى الأبد . وربما لكى أقنعها بالعدول عن إصرارها فى إستمرار الكتابة إلىّ ، فلم أشأ أن أصدمها بالقطيعة المفاجئة . على أى حال فقد شاء القدر أيضاً أن ينقطع هذا الخيط الأخير ، فلم تصلني منها أية كلمة أو بطاقة . . منذ ذلك الحين . لا أدرى لماذا . . ؟ لكنى لا ألومها . وأرجح أنها ارتبطت بقسم اضطرارى أمام زوجها الغيور . . كما ارتبطت أمام أهلها من قبل بألا تلقانى . وهى إنسانة شريفة . . تحترم كلمتها .

حوار إذاعى :

وفى جولة بين أشرطة التسجيل ، نعثر على حديث إذاعى مدته ١٣ دقيقة ، سجلته معى الإذاعية المعروفة ساميه صادق . وقد أذيع فى ٥ ديسمبر ١٩٦٣ ، فأحدث ضجة ، وأعيدت إذاعته عدة مرات . وفى كل مرة كان يأتى لى بمزيد من الصديقات ، ليس بينهن كالعادة غير رجل واحد ، كانت له ظروف مرضية تمنعه عن الحركة ، فأراد أن يتعرف بزميل له فى القيود . . أدهشه أن يكون سعيداً .

كان الحوار طريفاً تتجلى فيه لباقة الأخت سامية ، وبراعتها

فى إحراجى بأسئلة مثيرة فى الصميم . واسمح لى ياأخى القارىء أن أنقل لك من الشريط المسجل جزءاً من هذا الحوار التلقائى الذى يعبر بصدق عن بعض جوانب شخصيتى وأسلوبى فى الحياة :

س : هل تؤمن بالحظ ؟

ج : الحظ كلمة اخترعها إنسان فاشل حتى يبرر تقصيره .

س : وبماذا تؤمن إذن ؟

ج : بأن من جد وجد .

س : وإذا لم يجد ؟

ج : يطبق المثل الذى يقول : « إن لم يكن ما تريد . . فأرد ما يكون . . وما دام قد أدى واجبه . . فليترك الباقى لخالقه .

س : معنى هذا أنك سعيد ؟

ج : جداً

س وما هى السعادة فى نظرك ؟

ج : السعادة إحساس ينبع من داخل الإنسان ، وليست نتيجة عوامل خارجية .. مثل المال والجاه والصحة .. خذى مثلا . مارلين مونرو ، التى كانت تملك كل ملذات الدنيا .. ومع ذلك انتحرت لأنها لم تكن سعيدة .

س : ماذا يسعدك إذن ؟

ج : أولا . . العمل . كنت فى بداية المرض تعيساً جداً لأنى

لا أستطيع أن أعمل شيئاً . . فالعمـــل يستلزم حركة . . وأنا لا أتحرك . . وكان إحساسى بأنى عضو عاطل فى المجتمع . . يشقينى، لكنى الآن والحمد لله أعمل وأنتج وأكسب وأعيش من مجهودى، ولم يعد العجز الجسمانى يشكل عقبة فى حياتى .

س : هل هذا هو سر سعادتك ؟

ج : هذا هو أهم عنصر من عناصر السعادة . ولـكن يسعدنى أيضاً أن لى أصدقاء كثيرين يحبوننى وأحبهم . والإنسان الذى يبادله الناس الحب لايشعر بأنه وحيد أبداً .

س : إذن بصفتك إنسان مكافح ، استطعت أن تنتزع السعادة من براثن الحرمان والمرض والألم . . هل تستطيع أن تـكتب لنا « روشتة » تجلب السعادة لليائسين ؟

ج : أنا لا أريد أن أضع على رأسى عمامة الإفتاء ، وألقى بعض الحـكم والمواعظ للناس . لـكنى أستطيع أن أذكر خلاصة تجاربى فى كلمات قليلة . . أولا : أنا أؤمن بمبدأ التعويض . فإذا فقدت شيئاً أحاول أن أعوضه بسرعة بدلا من أن أبكى على فقده. كذلك أحاول أن أحب الناس من كل قلبى . . وأغفر لهم أخطاءهم . وأهم من هذا وذاك . . الـكفاح الدؤوب المتفائل . . مع الرضا بالمقسوم ، وإذا بقيت لدى الإنسان بعد هذا مشا كل مستعصية فليتركها للزمن .

س : وإذا لم يحلها الزمن ؟

ج : يكون صاحبها قد نسيها .

س : وإذ لم ينسها ؟

ج : يكون قد تعود عليها .

س : وإذا لم يتعود عليها ؟

ج : ماهذا . . ؟ ! هل أنت معى . . أم معه ؟

س : معه هو إلى أن تجد له حلا .

ج : إذا فكر بعقله . . فسوف يجد أنه إذا حزن أو لم يحزن فلن يستطيع أن يغير شيئاً من إرادة الله .

س : طبعاً .

ج : فليصبر إذن . . وإذا صبرتم نلتم وأمر الله نافذ ، وإذا لم تصبروا كفرتم وأمر الله نافذ . . ولا داعى لأن يخسر الدنيا والآخرة .

س : قد يصبر فعلا . . لكنه لا يكون سعيداً . نحن نريد روشتة للسعادة .

ج : إن الإنسان بطبعه ناكر لنعمة ربه . وإذا حاول أى إنسان ناقم على حياته أن يمسك ورقة وقلماً . . وجلس ليكتب كل النعم التى يتمتع بها دون أن يدرى . فسوف يجدها أضعاف أضعاف الأشياء التى حرم منها . . إن الإنسان يمتلك نعماً وقدرات لا حصر لها .

س : الواقع أن الإنسان لا يعرف قيمة الشيء إلا عندما يفقده.

ج : فعلا . . ولهذا فأنا أحياناً أتصور أنى فقدت شيئاً هاماً جداً .. كنعمة البصر مثلا . . وأغمض عينى فترة طويلة .. أفتح بعدها جفنى وأقول .. الحمد الله . كذلك الذى فقد نعمة النظر ، لو نام على ظهره مثلى دون حركة ٢٢ ساعة فقط وليس ٢٢ سنة ، فلا بد أن يقوم بعدها وهو يتمطى ويقول .. الحمد لله على ما أنا فيه . .

س : الحقيقة أنك تفلسف حياتك ، ولهذا فأنت سعيد .

ج : إنها ليست فلسفة بقدر ماهى دراسة وتجربة وتأمل .. درست الحياة واستفدت من تجاربى وأخطائى .. وكيفت حياتى على أساس من واقعى الخاص .. ومن ظروفى الخاصة .. وبنيت سعادتى على قدر إمكانياتى . فإذا افترضنا مثلا أن هناك رجلين من عمال البناء ، أحدهما عنده قليل من بقايا الطوب ، وقليل من الأخشاب القديمة .. وبعض « الاصروميل » .. لكنه يحمد الله ، ويبنى بها بيتاً يعيش فيه .. وهذا مثلى أنا . أما الثانى فيملك كل أدوات البناء الفاخر ، لكنه لا يعرف كيف يبنيها .. إذن فسوف أصل أنا إلى نتيجة أحسن منه .

س : طيب .. سؤال أخير .. هل تفضل أن تكون بحالتك الصحية هذه وتنجح فى حياتك .. أم تكون فاشلا يمشى على قدميه؟

ج : لقد وجه هذا السؤال إلى والدتى يوما ، فاختارت

أن أكون أى شيء .. ولكن فقط أمشى على قدمى وأتمتع بالدنيا .. كانت تجيب بقلب الأم . أما أنا فرأيى يختلف قطعاً .. لأنى إذا ماقارنت بين الشخصيتين فسوف أجد أنى حى وأنا راقد .. والثانى ميت وهو واقف .

س : ماذا تعنى ؟

ج : أعنى أنى مثلا كشجرة العنب، راقدة أفقياً على التكعيبة .. لكنها تثمر . أما الشخصية الثانية فهى مثل النخلة الذكر التى تشغل جزءاً من الأرض دون فائدة من وقفتها الشامخة . قد يظن البعض أن كلامى هذا فيه شيء من الغرور .. لكنى فى الواقع أعتبره تسبيحاً بحمد الله واعترافاً بفضله ونعمته .

س : الحقيقة يا أستاذ صبحى أنك قدمت لنا صورة مشرفة جدا للكفاح والتفاؤل والإيمان . وباسم إخواننا وأحبائنا الذين تضمهم الأسرة البيضاء أرحب بانتاجك فى البرنامج ..

ج : أنا شاكر جداً .. ولك أن تعتبرينى مجنداً لخدمة البرنامج ، لأنى أعتبر نفسى نقيباً للأسرة البيضاء .. بحكم الأقدمية طبعاً .. وإذا كان هناك من ينافسنى فيه .. فليقدم طلباً بذلك .

وهنا أطلقت المذيعة الرقيقة ضحكة مرحة، وختمت حديثها قائلة :

— طيب .. مشكرين جداً ياسيادة النقيب .

وهكذا إنتهت المناورة الكلامية ، التى ترجمت جزءاً منها هنا إلى الفصحى ..

إن سامية صادق ذات صوت إذاعى دافىء رشيق ، يوحى بالألفة والتعاطف والحنان . ومن يعرفها عن قرب يلمس أن هذه الصفات لا تنطبق على صوتها فقط ، بل هى جزء لا يتجزأ من شخصيتها .

أكاذيب :

وإذا ماتجولنا فى أرشيف القصاصات ، سوف نجد صفحة طريفة بعنوان « أكاذيب » ألصقت فيها بعض القصاصات التى تحوى اخباراً كاذبة ، تطوع بنشرها الأخوة الصحفيون ، سامحهم الله . بعض هذه الأخبار لاضرر منه ، ولكن البعض الآخر سبب لى مشاكل سخيفة . ولنستعرض معا بعض هذه المفارقات الطريفة .

ذات مساء زارنى أخى الروحى وزوج أختى « عبد الملاك »، وكان متجهماً عاتباً . وبادرنى بقوله :

— كان جديراً بك أن تطلعنا على أخبارك الهامة ، من ان تحرجنا أمام الأغراب .

قلت مندهشاً :

— أية أخبار تقصد .. ؟

— خبر زواجك !!

ظننت أنه يمزح ، فقلت ضاحكا :

— فضلت أن أنتظر حتى أدعوك إلى حفل الزفاف .

لكنه ازداد تجهماً ، وقال :

— ولماذا تكلف خاطرك بهذه الدعوة . . سوف نقرأ خبر زواجك فى الجرائد .

تأكدت أنه جاد فى عتابه ، فقلت :

— أى زواج تقصد . . هل أنت جاد فى قولك ؟

فدفع إلىّ بجريدة مطوية وهو يقول :

— خذ إقرأ الخبر بنفسك . . لقد هنأنى أحد أصدقائى بزواجك .. فشعرت بالحرج وأنا أبدو جاهلا بالخبر ، ولم أصدق إلا بعد أن قرأته فى هذه الجريدة .

تناولت الصحيفة ، وكانت العدد الصادر فى ٧ أكتوبر ١٩٦١ من جريدة « المساء » وقرأت الخبر الموجز الذى يقول فى ثقة :

« الأديبان صبحى الجيار . . وسلوى الحومانى .

يعقـــد قرانهما فى الشهر القادم . . . »

أدهشنى هذا الخبر الذى لا يقوم على أى أساس من الصحة . إن الأديبة سلوى الحومانى حقاً صديقة كريمة ، وزميلة تحضر ندواتى الأدبية ، لكن فكرة الزواج هذه لم تخطر ببال أحدنا .

وعجبت لجرأة المحرر الذى كتب الخبر بكل ثقة دون أن يرجع إلىّ للتأكد من صحته. واتصلت بالجريدة غاضباً، فعلمت أن صاحب الخبر هو للأسف أحد أصدقائى ؛ ممن كانوا يحضرون الندوة الأسبوعية . ولما عاتبته على تهوره،قال ببساطة: « لقد كنت تحدثنى

عن مشروع زواجك ، ولما رأيت الآنسة سلوى الحومانى تتردد على زيارتك ، ربطت بين الواقعتين ، وخرجت منهما بسبق صحفى ! »

أبمثل هذه البساطة يقتنص السبق الصحفى ؛ على أساس من التخمين ، ودون تحقيق أو تدقيق ؟ ! ودون تقدير المسئولية ، ومدى الحرج الذى شعرت به أمام الأخت سلوى الحومانى ، التى ظنت لأول وهلة أنى أوحيت بالخبر للجريدة ، لأمر فى نفسى . ولم تقتنع بأنى ضحية مثلها إلا عندما أكد لها الصحفى الهمام أنه صاحب النبوءة السعيدة .

* * *

وإذا كان الحرج الذى سببه خبر الزواج هيناً . فقد أوقعتنى « الفبركة » الصحفية فى مأزق كاد يؤثر على رزقى فى فترة ما . فقد فوجئت فى ١٩ يونيه ١٩٦١ بخبر فى جريدة « الأخبار » داخل إطار صغير تحت عنوان « حب وسياسة ودين » جاء فيه :

« صبحى الجيار بدأ يترجم مجموعة قصص أمريكية بتكليف من لجنة الترجمة والتبادل الثقافى بمجلس الفنون والآداب ، لنشرها فى سلسلة الألف كتاب . وعندما أوشك على النهاية . أرسلت إليه لجنة الترجمة بإدارة الثقافة بوزارة التربية والتعليم خطاباً تقول فيه : يشترط فى المجموعة أن تكون خالية من قصص الحب والسياسة والدين . صبحى لم يجد قصة تخلو من حب وسياسة ودين ! »

وختم المقال بعلامة تعجب ساخرة من تعنت لجنة الترجمة وقسوتها فى الإضرار بى . بعد أن أوشكت على الانتهاء من ترجمة

الكتاب ! وهذا غير صحيح إطلاقاً . والصحيح أنى لم أكن بدأت فى الترجمة بعد ، وإنما قدمت تقريراً عن الكتاب بعد أن قرأته ، وقلت فى تقريرى إن هذا الكتاب سبق ترجمته فى مؤسسة فرانكلين إلى آخر هذه القصة التى سبق أن أشرت إليها فى حديثى عن الترجمة . ولا أدرى من أين جاء الصحفى الكذوب بهذا الخبر المختلق من أساسه لمجرد الاثارة ، أو لعله كان يريد التشهير بالمسئول فى تلك اللجنة ، الذى اتصل بى ثائراً بعد أن قرأ الخبر ، واعتبرنى مسئولا عن نشره ، ونصحنى بلهجة ذات معنى بأن أسرع بتكذيبه حتى لا تحملنى اللجنة مسئولية التشهير بها . قلت محتجاً : « وما ذنبى فى خبر لم يخرج منى ؟ » . قال : « لكنه نشر باسمك ، ومن حقك وحدك أن تطلب تكذيبه » .

اتصلت فوراً بالاستاذ أنيس منصور ، المشرف على باب أخبار الأدب . ورويت له المشكلة التى وضعتنى فى مركز حرج ؛ فاعتذر لى بالنيابة عن المحرر المتهور « وكان صحفياً ناشئاً تحت التمرين » وأسرع ينشر تكذيباً للخبر قال فيه : « يؤكد صبحى الجيار أن الخبر الذى نشر عنه تحت عنوان حب وسياسة ودين مدسوس عليه ، ولا أساس له من الصحة » .

وهكذا انتهت الأزمة على خير .

* * *

ومن الأخبار المؤلمة وإن لم يترتب عليها ضرر أو حرج ، ذلك الخبر الذى نشر فى جريدة « المساء » فى ٢٩ أبريل ١٩٦٢ ،

تحت عنوان .. « يد الفنان » جاء فيه .

« الكاتب القصصى صبحى الجيار .. قال فى ندوته التى تنعقد فى مساء كل يوم جمعة بمنزله ، إن المرض يزحف الآن وبشكل مروع إلى قلبه ويده السليمة.. وأنه ينتظر الآن معجزة من السماء . »

هذا هو ربع الخبر ، أما البقية فقد انفقها المحرر فى وصف كآبتى ، والتحسر على حالتى المؤلمة ، والدعاء لشخصى المسكين بالشفاء ! » .

الواقع أن هذا الخبر نصفه صحيح ، وهو إصابة يدى بنوبة من الألم ، تصيبنى من وقت لآخر ، ولا تلبث أن تزول بعد عدة أيام أو أسابيع ، وهذا جزء من طبيعة المرض كما ذكرت فى شرحى لأعراضه ، لكن المحرر العاطفى لم يكتف بيدى المعطلة ، بل زحف بالمرض إلى قلبى ، حتى يصبح الخبر أكثر إثارة ، وأعنف وقعاً على نفوس القراء .

والطريف فى الموضوع أن نفس الصحفى الذى زوجنى من سلوى الحومانى ، هو الذى دفع المرض إلى قلبى . وهكذا تمتهن مصائر الناس عندما يعبث بها العابثون .

***

ومن الأخبار المحرجة ، ذلك الخبر القصير الذى فوجئت به فى جريدة « الأخبار » الصادرة فى ١٢ أبريل ، وجاء فيه :

« صبحى الجيار تلقى آلة عرض سينمائى ١٦ ماليمترا ، ونسخة من فيلم الهاربة من شادية » .

والواقع أن شادية لم تَعِد بمثل هذه الهدية ، ونشر الخبر بهذه الصورة يظهرنى أمامها بمظهر الطامع الذى يوحى إليها بتحقيق هذه الرغبة . وصحة الخبر أن الفنانة شادية فى زيارتها لى سألتنى إن كنت أرى أفلامها ، فأجبت بالنفى ، لأن التليفزيون لم يكن قد ظهر بعد ، فوعدت فى نوبة حماس بأن تعرض علىّ أحد أفلامها فى حجرتى بآلة عرض تملكها . لكنى سافرت بعد أيام دون أن تتمكن من تنفيذ وعدها . ومما زاد من خجلى وحرجى ، أن هذا الوعد لم يكن أمام الصحفيين ، مما - لاشك - أكد فى ذهنها أنى الموحى به إلى الجريدة . ولو أنها لم تعاتبنى فى ذلك .

* * *

وفى ١١ فبراير ١٩٦٢ نشرت جريدة « المساء » خبراً فحواه أن ندوة الجيار كانت فنية ، حيث ناقشت الإعداد الفنى للتليفزيون وحضر هذه الندوة فلان . . وفلان ، وأديبة واحدة فقط هى بثينة حافظ . . إلخ » .

والعجيب فى الموضوع أن السيدة بثينة حافظ هذه لم تدخل بيتى على الإطلاق . ولم أرها مرة واحدة فى حياتى ، رغم أنى نشرت لها بعض إنتاجها القصصى فى مجلة « قصتى » . وذلك بالمراسلة ، لأنها سيدة محافظة ، أو لعل لديها أسبابا عائلية تمنعها عن زيارة الندوات الأدبية . ولا أدرى مدى ما سببه لها نشر هذا الخبر من إحراج .

* * *

وما زال فى صفحة « الأكاذيب » نوادر أخرى كثيرة :

بعضها يضفى علىَّ مجداً لا أستحقه. مثل الخبر الذى إدَّعى فيه المحرر أن مجموعتى القصصية «يسترعرضك» ترجمت إلى الألمانية، وستعرض فى ألمانيا كنموذج للأدب المصرى الحديث! . والحقيقة أن طالباً فى مدرسة الألسن كان قد ترجم ثلاث قصص من المجموعة .

ومن الأخبار المدسوسة مايسىء إلى سمعتى، كذلك الخبر الذى نشرته مجلة «الجيل» فى ٢٧ يوليه ١٩٥٩ تقول فيه أرسلت خطاباً إلى أهلى من لندن أقول فيه إنى اكتفيت بتركيب مفاصل لقدمى، ولن أقوم بعمل العمليات الأخرى بظهرى وذراعى بسبب الآلام التى أعانيها .!

وعلامة التعجب التى فى آخر الخبر من عند المحرر، الذى يسخر من جبن المريض المدلل، الذى يرفض بقية العمليات لتفادى الآلام، وواضح بالطبع أن العملية الفاشلة كانت فى ركبتى، ولم يفكر الأطباء إطلاقا فى أية عمليات فى الظهر أو الذراعين . !

وعلامة التعجب هذه المرة أسخر بها أنا من جهل المحرر وتجنيه على الحق .

أما أطرف خطأ غير مقصود فقد جاء فى جريدة «الأخبار» الصادرة فى ٥ مارس ١٩٦٢ حيث نشرت مجلة «الجيل» دعاية لأحد اعدادها، وذكروا فى الإعلان بعض مواد العدد، ومن ضمنها قصة العدد «لعنة المال» بقلم صبحى الجيار .

وفى الواقع أنى لم أنشر قصة فى هذا العدد بهذا العنوان أو بغيره، وإنما هذه القصة كانت للأخ حسين القبانى . . !

نمرة غلط :

وإذا كنا نستنطق الأوراق والرسائل والتسجيلات ، فمن باب أولى يجمل بنا أن نسأل صديقى الأسمر الجيم عن بعض ذكرياته . لنسأل التليفون الذى طالما أودعته أسرارى وطالما حمل إلىّ أسرار الآخرين . ولندعه يحكى لنا أطرف ذكرياته التى قام فيها بدور إيجابى فعال .

فى ربيع عام ١٩٦٣ ، لبيت نداء التليفون ، فصافح أذنى صوت أنثوى يتكلم فى سرعة وبساطة ، طالباً ... عنايات . ولما كنت لا أعرف أحداً فى بيتى بهذا الاسم ، فقد أدركت على الفور أن النمره غلط .

قلت :

— يظهر يا فندم إن النمرة غلط .

وفوجئت بها تهتف فى دلال :

— دعك من المكر والنى يامدحت .. ونادى عنايات بسرعة .

— ومن هو مدحت هذا ؟

قالت فى خبث :

— وهل تظننى عبيطة حتى لا أعرف صوتك يامدحت . ؟

خطر لى أن أسرح بها ، مادامت مصرة على أنى مدحت، فقلت:

— الحقيقة أن عنايات خرجت ..

— غير معقول ..

— لماذا؟

قالت بدهشة، وقد بدا الشك يعرقل انطلاقها :

— لأنها تنتظر منى هذه المكالمة .

— الواقع أنها اضطرت للخروج فى مسألة هامة ، وطلبت منى أن أعتذر لك بالنيابة عنها .. هل تحبين أن أقول لها شيئاً عندما تعود ؟

يبدو أنى ثرثرت بكلمات كثيرة أتاحت لها فرصة لتمييز صوتى فقالت بدهشة :

— من انت ؟

— أنا مدحت ..

— لا .. أنت لست مدحت .. ولو أن صوتك يشبهه تماما.

— قلت لك منذ البداية أنى لست مدحت فلم تصدقى .

تنبهت تماماً إلى غلطتها ، فقالت فى حرج :

— أنا آسفه جداً .

— حصل خير .. فرصة سعيدة .

— يظهر أنك شخص لطيف .

— شكراً .. بعض مما عندكم ..

— ما هو رقم تليفونك إذن ؟

— ٢٠١٢١ .

— ياخبر ! .. فرقت بنط عن نمرة صاحبتى ..

— ليتها تفرق دائماً ..

قالت ضاحكة فى دلال :

— صحيح ؟

— صحيح ...

— إذن سأطلبك من وقت لآخر ..

— مرحباً ..

— ألا يضايقك هذا ؟

— بالعكس ..

— إذن .. اتفقنا .

— لكنى لم أعرف اسمك بعد .

— لا يهم

— كيف ؟ . ألا تريدين معرفة اسمى ؟

— لا يهم أيضاً .. يكفى أنى ارتحت لصوتك.. ولتكن ما تكون.

خطر لى أنها تعرفنى فعلا ، لكنها تتخابث ، أو لعلها دسيسة من إحدى صديقاتى العابثات . لكن أذنى المدربة جزمت بعد الحديث الطويل بأنها صوت جديد فى حياتى ، كذلك كانت لهجتها ونبراتها الجادة ترجح أنها ليست عابثة مدسوسة ، حتى لو كانت كذلك فلن أخسر شيئاً مادمت محتاطا لنفسى من ألاعيبهن .

اثبتت الأيام والشهور التالية أنها لم تكن تلهو أو تعبث لحساب

غيرها . لكنها كانت طرازاً فريداً فى نوعه بين النساء .

كانت سيدة فى الرابعة والثلاثين ، تقرأ كثيراً وتناقش بوعى ، تضم ضلوعها قلباً رقيقا يفيض بالحنان والعاطفة . ويضم رأسها خيالا رومانسياً متطرفاً ، وكانت تعيش فى وسط يمنحها حرية كاملة ، استغلتها فى صداقات بريئة مع مجموعة من الأدباء والصحفيين . أما قلبها فقد اغتصبه صعلوك أفاق - كما كانت تسميه — يبعد عن وسط الصحافة . كانت تحتقر تفكيره الضحل ، لكنها لا تستطيع أن تكف عن عشقه فى هيام مستسلم . وحول هذا المعشوق كانت تدور نصف أحاديثنا ، لعلى أساعدها على نسيانه . والنصف الآخر من أحاديثنا كان يدور حول الانتاج القصصى الجديد الذى ينشر فى الصحف والمجلات والكتب .

مضت شهور ثلاثة دون أن تعرف إسمى أو أعرف أسمها أو تليفونها ! وكنا أحياناً نناقش بعضاً من قصصى المنشورة فى المجلات دون أن تعرف أنى صاحبها . ولم أكن أنا الحريص على إخفاء شخصيتى ، بل لعل ذلك الوضع الشاذ كان يضايقنى ، لكنها كانت تصر على بقاء علاقتنا فى هذا القالب الخيالى الغامض ، وتستحلفنى ألا أخرجها من ذلك الجو الرومانسى الفريد . لأنها تجد فيه نوعاً جديداً ممتعاً من العلاقات الإنسانية ، التى تختلف عن كل علاقتها العادية المألوفة . ولم أجد بأساً من تحقيق رغبتها ، فقد كان الأمر لا يعنينى شخصياً ، لأنى أعرف كل شيء عنها ماعدا رقم تليفونها

واسمها ، الذى اتفقنا على الاستعاضة عنه باسم صديقتها عنايات .

أما هى فلم تكن تعرف عنى إلا القليل ، ومنه علاقتى بالأدب واحترافى مهنة القلم ، وبالتالى أخفيت عنها قيودى ، حتى لا تربط بين الأثنتين فتعرف شخصيتى على الفور ، خاصة وأنها من القراء المدمنين . وتعرف الكثير مما نشر عنى ، كما علمت من مناقشاتى معها حول الأدباء وإنتاجهم .

وذات مساء دار بيننا حديث سريع قبل خروجها إلى إحدى دور السينما . وسألتها بطريقة تبدو عفوية ، عن قصة لى منشورة فى نفس اليوم بمجلة الإذاعة ، فقالت إنها قرأتها . قلت :

— هل أعجبتك ؟

— نعم .. يعجبنى هذا الرجل فى كتابته المتفائلة رغم ظروفه القاسية.

أسعدنى هذا الأطراء المنزه عن المجاملة ، فقلت مضللا :

— وهل هو ضمن قائمة أصدقائك ..

فاسرعت تقول بانفعال :

— ياساتر يارب ... أعوذ بالله !

صدمنى هذا النفور ، فقلت مستدرجاً :

— ولماذا تستنكرين صلتك به ؟

— أنا لا أطيق رؤيته فى هذا الوضع المؤلم .

فقلت معناً فى تضليلها :

— وهل تحدثت معه تليفونياً ؟

اسرعت تجيب :

— وهل هذا معقول ؟. إنى لا أحتمل سماع صوته الضعيف وهو يشكولى آلامه وظروفه . .

ضايقنى أن تكون صورتى مشوهة فى ذهنها بهذا الشكل ، فثار فى نفسى شيطان العناد ، يدفعنى إلى التخلى عن وعدى لها بإخفاء شخصيتى ، لتصحيح الصورة المستضعفة التى يرسمها لى خيالها المريض ، فقلت أناوشها :

— كيف تحكمين على شخص بالضعف والاستكانة ، دون أن تقابليه أو تتحدثى إليه ؟

— لكنى قرأت كثيراً عن مرضه .

قلت منفعلا :

— هذا لا يكفى . . فهو عكس ما تظنين تماماً .

— وهل تعرفه أنت ؟

— طبعاً . . وقد زرته كثيراً مع زملائى الصحفيين .

عادت تقول فى عناد :

— ولو . . أنت رجل . . لا تتأثر كثيراً بمثل هذه الأوضاع المؤلمة .

ولما لم تجد شهادتى الحماسية فى تغيير رأيها ، قلت متحدياً :

— أنت تعرفين أنى أمارس الأدب . . أليس كذلك ؟

— طبعاً . . .

ـ ألم يخطر ببالك أن أكون أنا صبحى الجيار ؟
وبنفس النفور صاحت تقول :
ـ أعوذ بالله . . فال الله ولا فالك يا أخى . .
ـ وما المانع من أن أكون هو . . . ؟
ـ لأن نفسك المتفائلة ، وصوتك القوى . . ومرحك . . وكل شيء أعرفه عنك ينفى أنك شاب مريض مسكين .
ـ فلنفرض جدلاً أنى هو . . برغم هذه الصفات ، فهل تقتنعين بأنك مخطئة فى تصورك ؟
ضاق صدرها لمجرد تخيل فكرتى ، فهتفت :
ـ أرجوك . . كف عن هذا الحديث . . ولا توجع قلبى . . وتصد نفسى عن السينما . . أى شيطان خطر على بالك اليوم . . ؟
قلت وقد تمدد الشيطان فى رأسى ، وصمم على تفجير المفاجأة :
ـ إذا كان المنطق لا يقنعك . . فاعلمى إذن أنى صبحى الجيار . فإذا كنت لمست منى طوال علاقتنا أى تخاذل أو ضعف . . فلك أن تقطعى صلتك بى . . وإذا اقتنعت أنى شخص آخر يختلف عن خيالك المريض ، فيجب أن تنزعى من رأسك هذه الصفات المهينة التى تؤلمنى .
صمتت لحظات رهيبة ؛ ثم جاءنى صوتها غليظاً مرعوباً :
ـ لو اتضح حقاً أنك صبحى الجيار . . فلن أستطيع مواجهتك بعد الآن .

— لماذا ؟

— لقد أفلت لسانى بما آذى شعورك . .

— لا بأس . . . أنى أغفر لك سوء ظنك

— مستحيل أن تكون هو . . بالله عليك لا تعذبنى . . إنك تكذب .

وهنا ألقيت آخر سهم فى جعبتى ، فقلت :

— البرهان سهل . . عليك أن تبحثى فى دفتر التليفون عن إسم صبحى الجيار . وسوف تجدين أمامه نفس الرقم الذى تطلبيننى فيه . .

وأنهينا المكالمة عند هذا الموقف المعلق الحرج . .

وفى صباح اليوم التالى جاءنى صوتها عبر أسلاك التليفون ، معتذراً فى خجل ، ثم اختارت أقرب الطرق إلى تصحيح خطئها ، فاعترفت بوجهة نظرى ، وأكدت اقتناعها بأن وعدتنى بزيارة قريبة ، تثبت فيها أن قيودى لم تعد تثير إشفاقها ، ولكن ساءنى فى زيارتها أنها جاءت معها بعلبة كبيرة من الحلوى، وكأنها تصر على أنى إنسان مريض . لكن زياراتها التالية أثبتت أنها لم تعد تؤمن بهذا الرأى .

كراسة الأفكار :

فوق أحد الرفوف المجاورة لسريرى ، كراسة كبيرة ذات غلاف أزرق ، أطلقت عليها « كراسة الأفكار » . وهى فى الواقع

كشكول جامع لكل ما يعن لى من أفكار سريعة سواء كانت ملخصاً لقصة ، أو أبياتاً من الشعر ، أو رأياً مركزاً ..إلى آخره

أما الأفكار القصصية ، فهى تلك التى تومض فى رأسى ، بينما أكون مغموراً فى زحمة العمل ، فأسرع بتسجيل ملخص للفكرة فى هذه الكراسة حتى لا أنساها . ولا تتجاوز الفكرة عادة أكثر من بضعة سطور تكفى لتقييد الفكرة قبل أن تهرب من رأسى ، حيث أعود إليها إذا ما فرغت من مشاغلى . وأحياناً أعود إليها فأجد أنها فقدت بريقها فأنصرف عنها .

ومع أنى لست شاعراً . لكن قلمى يتورط أحياناً فى نزوات طائشة ، خاصة فى لحظات الإنفعال العاطفى المفاجىء . فان الشعر فى هذه الحالة يعتبر من أنسب أساليب التعبير ، لتحمله الأجواء الحالمة والمبالغات الرومانسية .

ومع أن رأيى واضح - الآن — فى تلك العاطفة الأنانية التى اتفق العشاق على تسميتها بالحب ، فإن هذا لم يمنع تورطى فيها لفترات قصيرة ، كنت أتوهم فيها أنى متيم ولهان . ثم لا ألبث أن أفيق من أوهامى وأثوب إلى رشدى . ولكن بعد أن يندفع قلمى الأرعن فيسجل انفعالاته الثائرة .

مسكينة هى كراسة الأفكار . فهى التى تتحمل عبء نزواتى العاطفية . فهل يروق لك ياأخى القارىء أن تصحبنى فى جولة خاطفة بين هذه العواطف الجياشة .. ولو على سبيل التسلية ؟

كلا .. إن ضميرى لا يطاوعنى على تصديع رأسك بهذه الأشعار السخيفة التى لا تعبر بالفعل عن وجهة نظرى الآن، وما ذنبك حتى أثقل عليك بشطحات فكرية لم أعد أؤمن بها . فإنها لم تكن إلا نزوات مفاجئة لم تستمر إلا لأيام معدودات .. وجل من لا يخطىء .

وأفضل أن نتجول معاً فى صفحات أخرى فى آخر الكراسة الزرقاء ؛ أرجع إليها من وقت لآخر ، لأودعها فكرة أو شعاراً أو درساً لقنتنى إياه مدرسة الحياة .. لذلك جعلت عنوان هذه الصفحات . . «علمتنى الحياة» .... أقول فيها :

● أحاول دائماً أن أنبش داخل نفسى، باحثاً عن مواهبى وقدراتى واهتماماتى ، ثم أتعهدها بالصقل والتنمية فى أناة وصبر . ثم أحدد هدفاً واضحاً ، وأسعى إليه فى إصرار وصلابة ، وكلما ألقى القدر حجراً فى طريقى ، أصمم على الوصول إليه من طريق آخر .. مشروع .

● إن المرض الذى غزا معظم مفاصل جسمى ، نسى سهواً مفاصل أصابع يدى . فأمسكت بالفرشاة لأرسم ، والقلم لأكتب، وبهاتين الأداتين الصغيرتين ثقبت جدار سجنى ؛ وخرجت إلى الحياة .. وسرت فى ركب المكافحين .

● إن الشر دائماً يختلط مع الخير فى نسب متفاوته ، والشر المطلق شىء مستحيل . وكل حدث مهما بدا مؤلماً لا بد أن أجد فيه جانباً مضيئاً . وعلى هدى هذه الشعاعات الضئيلة أحاول أن أتحسس طريقى فى الحياة .

● الصداقة نعمة عظيمة، والأصدقاء ثروة روحية هائلة . ولكى أحتفظ بأصدقائى يجب أن أدفع الثمن . فأخدمهم ولو على حساب راحتى، وأتسامح معهم ولو على حساب أعصابى، وأتقبل خدماتهم بامتنان، ولو كانت بسيطة، ولا أفترض فيهم الكمال، فالكمال لله وحده .

● لكى أحتفظ بعملى، يجب أن أتفانى فى إتقانه . حتى يشعر من أتعامل معه بأنه لا يستطيع أن يستغنى عنى . وذلك بتقديم أقصى ما يمكننى من جهد وإخلاص .. بل وتقديس . فالعمل فى رأيى عبادة .. وسعادة .

● المال وحده لا يحقق السعادة .. فقد قضيت خمسة شهور من عمرى كمليونير فى لندن .. لكنها كانت أتعس أيام حياتى .. إن المال لا يشترى السعادة أو الصحة أو الصداقة .

● من البديهى أن خالق الكون منزه عن الخطأ، وبالتالى فهو يطبق العدل المطلق بين عباده . وإن ما يظنه الإنسان ظلماً — لجهله بالمستقبل — قد يكون تمهيداً لخير عميم، لقد ظننت يوماً أن السماء ظلمتنى بموت مجلة « قصتى » ثم اتضح لى أن احتجابها فتح أمامى مستقبلا أفضل، بعد أن أدت « قصتى » دورها فى التمهيد لهذا المستقبل .

● إن عدالة السماء قد تبدو متلكئة فى حساب الإنسان القلق، لكنها حتماً آتية . وللإنسان الذى يراعى ضميره أن يثق يقيناً

بأن السماء لن تتخلى عنه .. إن الثواب والعقاب ليسا قاصرين على العالم الآخر . بل هما مطبقان بدقة على الأرض.

● إذا أصابنى شر لا أعاتب السماء ، أو أسخط على الدنيا ، بل أبحث عن السبب فى أعماق ذاتى . . وتصرفاتى ، بروح محايدة أمينة ، وسرعان ما أكتشف الثغرة التى نفذ الشر منها ... فاغلقها .

● أحاول ألا أعتمد على أحد ، أباشر عملى بنفسى ، وأدرس أدق تفاصيله ، حتى أحتفظ بكل خيوط تحريكه فى قبضتى ، فاسارع بسد الفراغ إذا خذلنى حاسد أو حاقد أو مستهتر .

● مرارة الفشل هى ثمن بخس لتجارب الحياة ، ومهما فشلت التجربة فهى تتضمن جزءاً من النجاح ، هذا الجزء هو النواة للتجربة التالية ، وهو حجر الأساس الذى أتم عليه البناء . والذى لا يفشل هو الذى لا يعمل .

● الكذوب يفقد ثقة الأهل والأصدقاء والعملاء ، حتى ولو تصادف أن قال الصدق . والكذوب فى نظرى يسرق الحقيقة ، وأتوقع منه أن يسرق أى شىء .. إن سارق المال أرحم من سارق الحقيقة .. فالحقيقة أثمن من المال .

● الذى يحترم مرؤسيه فى البيت والعمل .. هو إنسان شهم ذو مروءة ، لأنه يمنح عن قوة ، رغم أنه قادر على المنع . والذى يحتقر مرؤسيه ويسىء معاملتهم فى البيت والعمل . . هو إنسان

معقد ، يحس فى قرارة نفسه بأنه ليس أهلا للرئاسة ، فيغطى نقصه بالصلف والعنجهية .

● كاتم السر تسعى إليه الأسرار . إن أسرار الناس أمانة لا أملك أن أوزعها على غيرى مهما كنت واثقاً منه . فإنه لا يرتبط بصاحب السر بنفس الصلة والمسئولية التى ارتبط أنا بها . إن الذى يفشى أسرار غيره كمن يبدد أموالا . أؤتمن عليها .

● أنا لا أترفع عن التعلم ممن هو دونى .. حتى الحيوانات التى أقتنيها . فمن الكلب أتعلم الوفاء لصاحبه والتسامح معه .. رغم قدرته على الانتقام ، ومن الحمام أتعلم كيف يرعى الذكر أنثاه ويساعدها فى كل أعباء الحياة ، فهو يشاركها فى احتضان البيض واطعام الصغار . ومن الارنبة التى تنتزع شعرها لتدفىء به صغارها ، اتعلم التضحية والايثار ، ومن الديك أتعلم الكبرياء والشهامة فى حماية أسرته ورعايتها ... ومن نمل الحديقة أتعلم الكفاح الدوؤب وفضيلة الإدخار .

● لا أؤمن بجميع الأمثال والحكم القديمة لمجرد أن الأجداد آمنوا بها ، بل اناقش كل قول مأثور ، فإما ان يقتنع به عقلى أو أرفضه . فإذا قال القدماء « إصرف ما فى الجيب يأتيك ما فى الغيب » أقول أنا : « حافظ على ما فى الجيب لتأمن شر الغيب » وإذا قال المثل القديم : « أنا واخى على ابن عمى وأنا وابن عمى

على الغريب » ، فإنى أقول « أنا والغريب على أقرب الناس إذا كان الحق مع الغريب » .

● يقول مثل انجليزى « لا تضع بيضك كله فى سلة واحده » واقول تمشياً مع هذا المبدأ : « لا تلتقط رزقك من منبع واحد ، ولا تركز آمالك فى شيء واحد ، ولا تعتمد فى حياتك على شخص واحد .

● لو لم أكن متفائلا بطبعى لخلقت لنفسى أملا أعيش عليه . ثم أنميه وأرعاه وأعايشه فى أحلام اليقظة، حتى يتحقق . فإن أحلام اليوم هى حقائق الغد .

● يقولون إن الطفوله هى أسعد مرحلة فى عمر الإنسان لخلوها من المسئولية . وأنا أقول إنها أتعس مرحلة . . لنفس السبب . فالمسئولية هى إحدى عناصر السعادة . . لأنها الإبنة الشرعية للحرية والسلطة ، وبقدر ماينال المرء من سلطة وحرية تكون مسئوليته عن تصرفاته .

● سر احتفاظى بصداقة المرأة ، أنى لا أفرض نفسى عليها ، فلا شيء يثير كراهية الأنثى واحتقارها للرجل قدر التطفل . لكن الانطلاق مع المرأة المتحفظة لا يقل ضرراً عن الإحجام مع المرأة المنطلقة . والمهم هو التميـــيز بين هذه وتلك ، فإن المظهر يخدع أحياناً .

● والحياة لوحة رائعة يمتزج فيها الأبيض بالأسود . والفنان

البارع هو الذى يستخدم الظلال السوداء لتخدم المساحات البيضاء وتبرز نصاعتها . وهكذا أحاول أن أستفيد من البقع السوداء فى حياتى ، فلولا الظمأ ما شعرنا بلذة الارتواء ، ولولا الألم ما أحسسنا بمتعة الشفاء .

وها أنذا — ياأخى القارىء — أضع لوحة حياتى بين يديك ، فهل ترى أنى وفقت فى رسمها ؟ . . الشىء الوحيد الذى أستطيع أن أؤكده . . هو أنى سعيد بها .

●

من أرشيف الصور



قبل السفر الى لندن
(١٩٥٩)



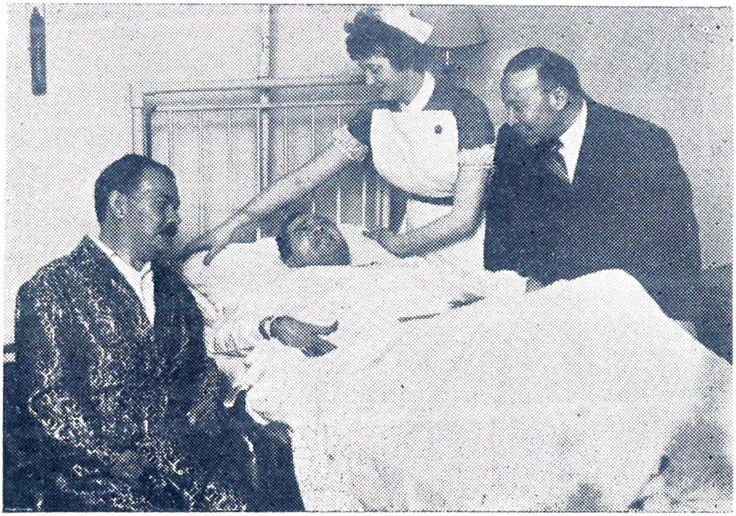
نظرة اخيرة على محتويات الحقيبة (أبريل ١٩٥٩)



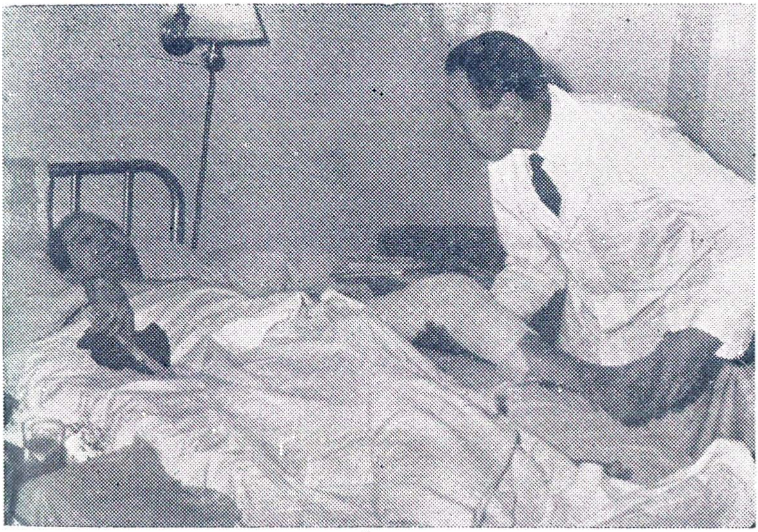
على رف الطائرة (أبريل ١٩٥٩)



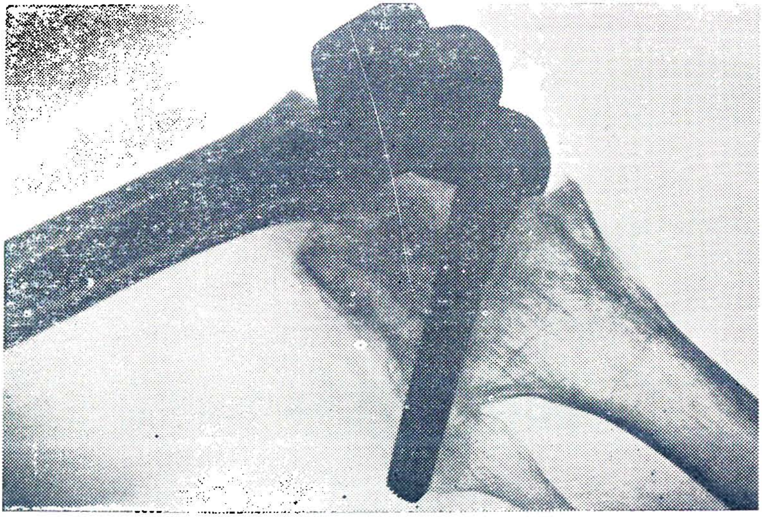
بداية رحلة الأمل (أبريل ١٩٥٩)



فى مستشفى ((لندن كلينيك)) قبـــل العمليات . الأمل يضىء وجوهنا بالبسمات . عن يمينى الزميل القبانى . وعن يسارى الممرضة ((مس كانتويل)) والدكتور البطريق .
(مايو ١٩٥٩)



المرض يحرك ساقى لاول مرة بعد ١٨ سنة
(يونية ١٩٥٩)



صورة الاشعة للمفصل الصناعى الذىأفلت من مكانه .. قبل اجراء العملية الثانية لانتزاعه من ساقى (يولية ١٩٥٩)



بعد فشل العمليات اغسطس ١٩٥٩



فى ندوة ادبية (١٩٦٠)



مع الفنانة زوزو ماضى فى ندوة فنيـة (١٩٦٢)

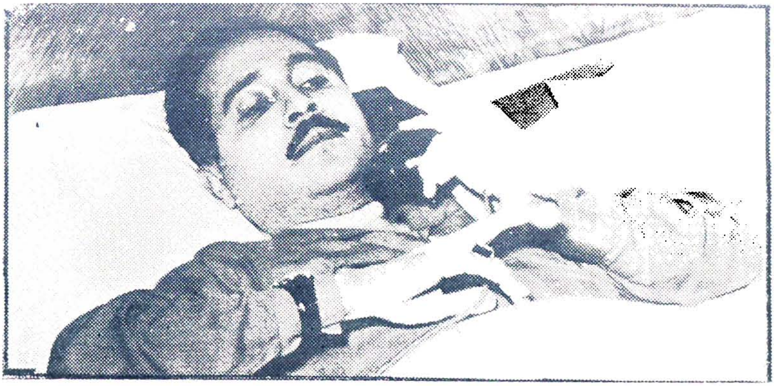


بين أفراد عائلتي (١٩٦٤)



مع أدباء وصحفيين .. مصريين وأجانب ... (١٩٦٧)

سنة ١٩٦١



سنة ١٩٦٤





في الاربعين سنة ١٩٦٧

فهرس

رقم الايداع بدار الكتب
١٩٦٩/١١٨٠

دار الهنا للطباعة ت : ٧١٣٢٧



الجزء
الثالث

الحصاد

الناشر | دار النهضة ...
٣٢ عبد الخالق ...

صبحى الجبار

ربع قرن في القيود
الجزء الثالث — الحصاد

دار النهضة العربية